منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef



الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

جمال ناجي

عندما تشيخ الذئاب

القائمة القصيرة لجائزة بوكر العربية عام 2010

طبع بدعم من وزارة الثقافة
2010

عندما تشيخ الذئاب

القائمة القصيرة لجائزة بوكر العربية عام 2010

جمال ناجي



الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef

عندما تشيخ الذئاب



الطبعة الأولى وزارة الثقافة الأردن 2005
الطبعة الثانية الدار العربية للعلوم ناشرون 2010

ردمك 978-9953-87-607-8

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef
149 شارع حسيبة بن بوعلي
الجزائر العاصمة - الجزائر
هاتف/ فاكس: 21676179 213+
e-mail: editions.elikhtilef@gmail.com

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL
عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)
ص.ب: 13-5574 شوران - بيروت 1102-2050 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: bachar@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

طبع بدعم من وزارة الثقافة، عمان - الأردن

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت - هاتف 785107 (1-961+)
الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (1-961+)

على الرغم من كل ما يود المشاركون في هذه الرواية قوله، سواء أكان صدقاً أم كذباً، أم دفاعاً عن النفس، فإن الحقيقة لن تكون جَديرة بالاهتمام، إذا لم تكن قادرة على حماية نفسها.

سندس

عزمي الوجيه أذلني ثلاث مرات.

الأولى في بيت والده الذي أغرم بي وتزوجني. الثانية يوم ضبطني في الغرفة الدخانية في دار الشيخ عبد الحميد الجنزير. أما الثالثة فبعدهما بثلاثة عشر عاما؛ حين بلغت الثامنة والثلاثين من عمري.

هو الوحيد الذي فعلها من بين كل الرجال الذين عرفتهم، ولا أدري كيف استعذبتُ إذلالهُ لي! مع أن أباه، رباح الوجيه، زوجي الثاني، وصبري أبو حصه، زوجي الأول والثالث، حاولا إخضاعي وإتباعي لإرادتيهما، لكنهما فشلا بشكل يثير الشفقة، ليس لأنني غير قابلة للاستجابة لشهوة السيطرة الذكورية، إنما لأنهما لم يمتلكا سحر ترويضي وأسرار تذويب كتلتي، على الرغم من إحساسي بتململ تلك الكتلة التي أعترف الآن، بأنها شكلت مبعث قلق وعذاب لي.

كان من الممكن أن يؤدي فشلهما معي إلى حزني على كل الذكور، لولا سحر الإثارة والسطوة الغامضة التي يمتلكها عزمي الوجيه، وقدرات الترويض التي تميز بها الشيخ عبد الحميد الجنزير.

ربما كنت بحاجة الى من يَكسرني ويمرّغ غروري. ألا يمكن أن تكون رغبتي في الخضوع كامنة تحت قشرة هذا الغرور؟

عزمي هو الذي تمكن من مداهمة معاقلي، وتحطيمها، إلى حد أنني امتثلت لأوامره جميعها، دون النظر الى النتائج التي لم أتوقع حدوثها.

يصغرني بخمس سنوات.

كان في صباه مختلفاً عن أبناء حينا في جبل الجوفة؛ شعره الفاحم الذي يرفعه إلى الأعلى فيوحي بالشموخ والثقة، ووجهه المستدير المشرق، عيناه الرمليتان العميقتان، نظراته المطْمَئِنة، ورتابة ملابسه، كل هذا أوحى لي باختلافه عن الشباب الآخرين.

أمه، جليلة، اعتنت به كثيراً، فهي لم تتمكن من إنجاب غيره بسبب حكايتها مع الجني الذي زارها بعد زواجها بأشهر، وكرر تلك الزيارة حين بلغ عزمي التاسعة عشرة من عمره. كثيرون من سكان الجبل يعرفون هذه الحكاية الغريبة.

في ذلك الجبل الذي تعتلي فيه البيوت بعضها، وتفصل بين صفوفها أزقة أو أدراج ذات حواف منحوتة، تحدث أمور أغرب من أن يصدقها أهل عمان الذين تعرفت إليهم في السنوات الأخيرة، فالإنسان هناك ليس هو المالك الوحيد لبيته وفِراشه، الملكية موزعة بينه وبين الكائنات الأخرى، لأن «الشراكة قائمة بين الناس والكائنات الأخرى التي تدب على الأرض بنظام مرسوم،» حسبما قال لي عزمي، بعد أشهر من زواج والده رباح مني.

فاجأني بقوله هذا، فهو مقل في الكلام مثل أمه، ويتحدث بطريقة الكاشف لما وراء الأشياء!

فكرتُ في ما قال. بدأت أنظر إلى الأشياء بطريقة مختلفة، وتبين لي أن للحياة في حيّنا السفلي نظاماً خاصا، على الرغم من الفوضى التي يسبّبها الناس بعد صحوهم من نومهم وذهابهم إلى أعمالهم. فعصافير الدوري تتناوب على حيّنا فجراً، ليس بسبب بساتينه أو أزهاره التي لا وجود لها، إنما لأنها تجد ما تقتات عليه من الديدان المذنبة القريبة من قنوات المياه العادمة في الأزقة، وتجد ما تشربه من البرك الصغيرة

المتجمعة من المواسير العامة، التي يعمد السكان الى كسرها، لأنها تمر من الحي وتغذي مناطق جبل التاج والأشرفية وغيرهما، فيما تنقطع عن بيوتهم أياماً طويلة. يكسرونها ليحققوا ثلاثة أهداف: يملأون الأواني بما يلزمهم من الماء، ويوفرون أثمانها، ويقطعونها عن الأحياء الأوفر حظاً.

القطط تحتل الحي في الصباح، بعد أن يلقي الناس أكياس نفاياتهم حول حاوية مفكوكة العجلات، فتنقض عليها لتنبشها بمخالبها، وتلتهم ما تحتويه من زفر وخبز وسواه، ثم تترك العظام المجردة لأرتال النمل، الذي يقوم بمهامه بمثابرة الشركاء أصحاب الحق في الأرض وما عليها.

الحي السفلي في جبل الجوفة هو منطقة متنازع عليها بين الناس والكائنات الأخرى.

فمملكة الليل في الحي تتنازعها كائنات عدة؛ القطط، والحشرات، خصوصاً البعوض والصراصير الحمراء التي لم تتمكن آليات أمانة عمان ومبيداتها من القضاء عليها، على الرغم من محاولات المختصين الذين أصيب رئيسهم باليأس، فأزاح الكمامة عن أنفه وفمه قائلاً أمام جمع من السكان «القضاء على الصراصير الحمراء مستحيل، لأنها موجودة على الأرض قبل الإنسان، ولها قدرة تفوق قدرتنا على البقاء والتكاثر.»

على الرغم من ذلك، فإن النفوذ الأقوى في ليل الحي يكون للجرذان المتوحشة التي تفزع القطط والأطفال والنساء، وبعض الرجال!

من المفروض أن لي ثأراً عند الجرذان لأنها قتلت أبي، لكنني تنازلت منذ زمن عن ذلك الثأر بطيب خاطر. فبحسب رواية أبي فاروق الذي كان يسكن في زقاقنا ويلازم أبي ليلاً إلى مكان لا أعرفه، أن

الرجليـن عـادا مخموريـن مترنحيـن وقت السـحر كعادتهما، وداس أبي بحذائه جرذاً سميناً بغير قصد، فانزلقت قدمه بسبب لدانة جسم الجرذ، وسقط جسده الضخم على القناة الضيقة للمياه العادمة، فصار يشتم الفقر والثديات والأمانة، التي استغنت عن خدماته في تقليم أشجار الأرصفة، وأحالته على التقاعد قبل أن يتم الثامنة والأربعين من عمره.

«هي السبب، هي السبب» كان يقول أثناء محاولاته النهوض، وظل يكررهـا الـى أن فقـد وعيـه، فانقضّـت الجـرذان عليه بطريقة تضامنية لا تتقنهـا فـرق المـوت المدربـة. هـذا ما أخبرنا بـه أبو فاروق الذي تخلى عن صاحبه تلك الليلة، وجرجر قدميه هاربا الى بيته.

حين خرجنا لرؤية أبي، كدت لا أعرفه، وأثارت جثته المشـوهة ذعرا في نفسي، وفي أذهان سكان الحي، الذين تحدثوا كثيرا عن تلك الميتة الفظيعة.

لكنه بميتته تلك، أراحنا من شروره التي بدأت بعد إفشاله زفافي الأول من صبري أبو حصة، ذي الوجه الأبيض العريض، والعينين اللتين توحيان بانعدام الثقة بالنفس أو بالناس.

لم أغفر لأبي ما فعله بي يومها، على الرغم من محاولاته إقناعي بأنه لم يقصد تخريب عرسي، ولا منعي من التمتع بشبابي مع صبري أبو حصة، ولا الاحتفاظ بي حزنا على فراقي، إنما حرصاً على هيبة العروس فيّ أنا، وصوناً لبيتنا الذي انتهكت رصاصات أبي صبري حرمته. وحين أيقن أن محاولاته لم تجد صدى في نفسي، صار يقضي أوقاته مطرقا عازفـا عـن النظـر فـي وجهـي أو وجـه أمي، واعتاد التنهد بخشـونة، ثم بحـث عـن وسـيلة تخفـف عذاباته، فاهتدى إلـى العَرَق الرخيص الذي صار يحتسيه مع صاحبه المدمن أبي فاروق.

خمس سنوات عجاف مرت على فشل زفافي من دون أن يسومَني

أحد. ما الذي جرى للرجال؟ هل انقطعوا؟ سألت نفسي مراراً، وعندما لم أجد إجابة ازددت حنقا وصرت أعاتب أبي أثناء نومي، على الرغم من موته بعد عامين من إفشاله زفافي بطريقة لم أتوقعها. فحين جاءت السيارات المرافقة للحافلة المكتظة من أجل اصطحابي الى بيت أهل صبري في منطقة طبربور، أمسكني أبي وخالي من ذراعي وخرجا بي من بوابة دارنا، وسط فيض من الزوامير والطبول والزغاريد، فتحمس أبو صبري واستل مسدسه من تحت زنار بنطاله الكحلي، وأطلق تسع رصاصات في الهواء على بعد مترين منا. حينها تشنج أبي رافضاً التقدم خطوة واحدة باتجاه السيارة التي انتظرتني عند مدخل الزقاق، وصار يهدر غضباً، ليس بسبب خطورة إطلاق الرصاص بين جموع المشاركين في العرس حسبما قال حينها، إنما لأن استخدام المسدس أمام بيتنا، يعني أن أهل العريس يريدون أخذي بقوة السلاح وصوت الرصاص، الذي فسره على أنه إرهاب له ولأقاربه وجيرانه. لا أدري من أين جاء بهذه الفكرة التي نغصت حياتي في ذلك اليوم الحار، ربما قرأها في الكتب والمجلات القديمة التي يشتريها من باعة الأرصفة بين الحين والآخر، كان يقرأ كثيرا على الرغم من أنه لم يكمل دراسته، لكنه توقف عن هذه العادة بعد أن صار يشرب مع صاحبه.

يومها تمسك برأيه رافضاً التقدم باتجاه السيارة، ولم يتوقف عند توسلات أمي وأقاربي وأبي عزمي وزوجته جليلة، وآل العريس الذين تغيرت نبراتهم تدريجياً، ثم صاروا يتهددون ويتوعدون، فيما أصر أبي على موقفه العنيد.

أبو صبري نظر إلى ابنه بحزم وخاطبه بصوت عال «طلقها، طلقها ليشبع أبوها منها». وعندما ارتبك صبري، صاح به ثانية «قلت لك طلقها يا نذل، طلقها بالثلاثة» فطلقني.. النذل.

المفاجأة التي أثارتني وفجعتني، جاءت من عم صبري ذي الوجه العريض المحمر المتعرق، فما أن سمع صبري وهو ينطق كلمة «طالق» ثلاث مرات، حتى تهلل وجهه كمن تلقى نبأ كان يتمناه، وانبرى أمام الجميع قائلاً لأبي صبري «ابنتي جاهزة، سأزوجها لابنك اليوم لتتم فرحتك بابنك، نأتي بالمأذون ونكتب الكتاب ونتمم الموضوع.»

وافق والدا صبري عناداً، فيما بُهت هو وأنزل رأسه ولم ينبس، أما أم عروس الغفلة تلك، فقد قهقهت وزغردت بصوت حاد، فانتهرتها أمي «تضحكي بلا أسنان». كانت بلا أسنان فعلاً، ومع ذلك شتمت أمي بلسانها الملوي، فقامت القيامة واشتبك الجميع مع الجميع، رجالاً ونساء وأطفالاً، وعندما أطلق أبو صبري ثلاثة عيارات نارية في الهواء، انطلق الرصاص من مسدسين لم يتمكن أحد من معرفة أصحابهما بسبب الفوضى، فتوقف العراك فجأة، وتهارب الرجال والنسوة من أهل صبري إلى حافلتهم وسياراتهم، بينما خمّن الناس أن أبا عزمي وأبا فاروق هما اللذان أطلقا الرصاص.

حقدتُ على صبري، ووجدتني غير قادرة على تذكر اسمه من دون ربطه بالنذالة. حقدت أيضا على أبي الذي عاش بعدها أياما عصيبة، فتارة يحاول استرضائي، وأخرى يوبخني بقسوة. لكنه لم يكرهني، أحسست بهذا، حتى أنه ذات ليلة، قبل أيام من موته الفظيع، أوى إلى فراشه مخموراً، وقال بصوت عال سمعته بأذني «ماذا لو فعلتها سندس مع أحد شبان أو رجال الحي الذين...»

من المؤكد أن أمي سمعته، لكنها لم تقل شيئاً ولم أسمع صوتها.

أمي امتلكت حصانة ضد توبيخات أبي وألفاظه في سنوات عمره الأخيرة، لأننا كنا نعيش على مساعدات إخوتي الثلاثة المتزوجين الذين يعملون في دول الخليج، تلك المساعدات التي يحولونها باسم أمي لا

باسم أبي الذي يبدد النقود.

حكايتي مع عزمي بدأت عندما تزوجني أبوه، عقب وفاة أمه في ظروف لا علاقة لي بها، وإن كانت نساء الحي وبعض رجاله قد حمّلوني ظلماً، مسؤولية موتها.

هو لم يقل رأيه في تلك التهمة الظالمة، على الرغم مما حملت نظراته من معان غير مفهومة تدعو الى التفكير في ما يجول خلف وجهه المستدير.

كنت في الخامسة والعشرين من عمري، وهو في حوالي العشرين عندما تزوجني أبوه، وتوقعت أن يناصبني العداء، جراء ذلك الزواج الذي لا يروق للأبناء عادة، لكنه حافظ على هدوئه وغموض أعماقه، الى حد أنني شعرت بوجود أمر مهم يستحوذ على تفكيره، وأن عقله ووجدانه يتحركان في مناطق بعيدة خارج البيت وربما الجبل بأكمله! كان يغادر الدار ساعات طويلة من دون أن يقول أين يذهب أو ماذا يفعل.

دفعني فضولي الى التحرش به بعد ثلاثة أشهر من زواج أبيه مني، لعله يظهر شيئاً مما يبطن. لكنه ظل متماسكاً مثل كتلة صامتة، فتركت أمره للزمن الذي يحل الكثير من الألغاز ويغير الناس.

كان زواج أبي عزمي مني ثمرة خطة تدريجية استغرقت أربع سنوات. هو قال لي ذلك. فحين طلقني صبري النذل الذي لم يدخل علي، ذهبتُ إلى المحكمة برفقة أمي وأبي عزمي لحضور جلسة الطلاق عند القاضي.

أمي أصرت على أن نذهب مع أبي عزمي لسببين، أولهما أن والدي الذي كان لا يزال حياً، رفض مرافقتنا الى المحكمة بسبب أزمته

واشتباكه مع نفسه ومع كل شيء، ثانيهما أن أبا عزمي يعمل كاتب استدعاءات أمام بوابة المحكمة في شارع السلط، ويعرف كثيراً من القضاة والمحامين حسب ما قال لأمي بعد أن حك وجهه النحيل.

في الطريق الى المحكمة كان يوجه كلامه لي أنا ويهمل أمي التي بدا عليها الضيق. النساء يمتلكن قدرات استشعار قد لا ينتبه الرجال لها، ربما كان هذا سبباً في تمادي أبي عزمي في نفش ريشه كالديوك أمامي، وتكرار تفقده وضع ربطة عنقه الرفيعة، وقبة بدلته البنية الغامقة. أما في قاعة المحكمة، فقد أجلس أمي على مقعد خشبي، واصطحبني الى غرفة القاضي، فوجدت فيها صبري النذل، الذي لم يستجب لمحاولات القاضي ثنيه عن إتمام الطلاق. كان والده يقف قرب الباب ويتنصت على أقوالنا، وقد انتبهت إلى أن صبري ظل ينظر اليّ بحسرة، على الرغم من إصراره على الطلاق! طريقته الغريبة في النطق أوحت لي بأنه لم يكن سوى حنجرة ولسان يتم استخدامهما من قبل والديه.

بعد انتهاء جلسة الطلاق، اقتادني أبو عزمي خارج غرفة القاضي، ثم أمسكني من ذراعي وهو يعدل وضع عقاله على حطته بيد واحدة، فأحسست بأصابعه تفركان ذراعي، بينما يحادثني بكلمات رقيقة مؤازرة وبعينين حانيتين.

لم يطاوعني لساني لأقول له: اترك ذراعي. فالرجل يساعدني، وأنا بحاجة إلى من يقف إلى جانبي بعد أن رفض والدي مرافقتي.. ثم إنه كان دافئاً حنوناً.

لم أفاجأ حين طلب أبو عزمي يدي من أمي بعد خمس سنوات من طلاقي، فقد كانت إشاراته تصلني تباعاً، كما عودنا بعد وفاة أبي على إحضار هداياه من وقت لآخر: علبة حلويات، صندوق تفاح، كيس بطاطا.. وكنت أشعر بأن ذلك الكرَم غير المعهود فيه، يخفي نواياه

المكشوفة لي، فهو يريدني، وكلما سألته أمي عن زوجته جليلة أجاب «بينها وبين الجنون شحطة». ثم تطور الأمر ليلة رآني في الزقاق بثوبي الوردي، فأمسك ذراعي برجولة أوحت لي بفحولة محشورة، ولزني إلى الحائط مُلصِقا جسـمه بجسـدي «جهزي حالك، نويت أن أخطبك من أمك!» قالها بنبرة راقت لي، فاكتفيت بسكوتي المتواطىء، واسترجعتُ تلك اللحظات مراراً بعد أن أويت الى فراشي.

كنت في الخامسة والعشرين من عمري.

***

الشيخ عبد الحميد الجنزير

الفتى بين الرجال سرعان ما يصبح رجلاً. هكذا يقولون. لكن عزمي الوجيه كان رجلاً قبل أن ينضم إلينا.

الله على كل شيء قدير.

لما ذهبت الى بيت أبيه، بغية مداواة أمه وطرد الجني الذي يمتطي كتفيها حسب قولها، كنت في حالة من السرور بسبب انهيار إمبراطورية الكفر التي كانت تسمى الاتحاد السوفياتي، وكانت توابعهُ من الجمهوريات تتفكك وتنفصل عن بعضها تباعاً، كما لو أن لواصقها جفت وتآكلت.

حينها كان عزمي يزحف نحو عامه التاسع عشر، لكنه بدا أكبر من سنّه، وأكثر نضجاً ونباهة ممن أتلفوا عشرات السنين مما قدر الله لهم من أعمارهم في هذه الحياة الفانية.

أم عزمي، جليلة بنت عبد الباقي يحيى أبو بصير، اختارها جني فاسق كي تكون طريدته ومطيته. زارها مرة واحدة بعد أشهر من زواجها، ثم غاب ما يقارب تسعة عشر عاماً وعاد ليلازمها حسب قولها والعلم عند الله.

قال لي زوجها رباح الوجيه بنبرة بطّالة خالية من الخوف أو الحرص، بأنها تركض أوقاتاً داخل الغرفة وهي محنية الظهر مرعوبة صارخة «أنزلوه عن كتفي.»

سألته عما إذا رأى أحداً فوق كتفيها، فتحلل من برودهِ ورد غاضباً «وهل أنا ديوث حتى أسمح لأحد بركوب كتفيْ زوجتي؟»

التفت ابنه عزمي إليه ثم إليّ بطريقة من يريد توزيننا، أنا ووالده.

قلت لرباح: الاحتمال أن يكون جنياً.

فازداد غضباً وصاح «حتى لو كان من الجن الأزرق.»

هؤلاء الذين تتهيج حميّتهم وتلتهب ألسنتهم بسرعة، غالبا ما يخفون أموراً لا يريدون إطلاع الآخرين عليها. عرفت الكثيرين من أمثاله وتأكدت من أن ظني هذا غالباً ما يكون في محله. رباح ليس بعيداً عن هذا النوع من الخلق، وهو على أي حال يشبه المخاتير ذوي الألسن الدهنية، الذين يتكسّبون من الناس كلما حدثت جريمة أو مشكلة عائلية أو عشائرية.

نظرت في عينيه العسليتين، فلم أجد غير الخطوط المتغالبة التي تبدأ من بؤبؤي عينيه وتنتهي عند أطراف حدقتيه. حدثتني نفسي: هاتان العينان لا تعاضدان ادعاءه ولا تؤازران لسانه.

قلت له: قد تكون جنية، أنثى.

فهدأتْ حميّته، صمت قليلاً، ارتخت ملامح وجهه، ثم نادى زوجته جليلة.

جلسنا أربعتنا على كراسي من الخشب والقش تحت دالية وارفة الظلال في فناء داره. كان الحرج والسقم باديين على وجهها وعينيها المخذولتين، قالت إنها رأت سريرها يهتز ويتحرك من مكانه عدة مرات، وأن إسوارتها الأفعوانية الوحيدة التي تبقت من زواجها سُرقت وهي في الغرفة، حيث فُتحت الخزانة من تلقاء نفسها، ثم أغلقت بعنف من دون أن ترى أحداً، ولما تفقدَتها لم تجد تلك الإسوارة.

هنا فزّ رباح صائحاً منفعلاً «والقلادة العُسمليّة». أجابته بهدوء «ليست في بيتنا». فصاح من جديد «أين خبئتِها؟ عند أخوك جبران الذي يأكل رأس النبي؟»

أستغفر الله العظيم.

هدّأتُهما وقللتُ من شأن الأساور والقلائد، قلت: الذهب غال والناس يتمنون لو تتحول أوانيهم وجدران بيوتهم إلى ذهب، لكن، بقدر ما هو غال، فإنه مُهلك للناس، الذهب يكون أحياناً أخطر من الأسلحة الفتاكة، يمكنه تدمير البيوت وتخريبها والتفريق بين الناس. لا تأسفوا على الإسوارة ولا حتى القلادة.

لكن، لمّا علمتُ من عزمي، في ما بعد، أن جليلة ورثت تلك القلادة بالتواتر عن جدتها السابعة حين كان جدها السابع، عبد الرحيم محمد أبو بصير، كاتبا أفنديا في ولاية بلاد الشام، وهي قلادة من الليرات العثمانية الذهبية من نوع فنديك المسكوكة في عهد السلطان العثماني أحمد الثالث في القرن الثاني عشر للهجرة، الذي يتوافق مع القرن الثامن عشر للميلاد. حينها أدركتُ سر غضب رباح، وخوفه على تلك القلادة الثمينة، وصياحه الذي كان أشبه بضِباح الثعالب.

جليلة قالت إنها تسمع صوت بعلها رباح يناديها فتجيبه، ثم تتذكر أنه ليس في البيت، فتشك في سمعها وعقلها. أقسمَت أن باب غرفتها يصفق أحياناً وهي في داخلها، فتحس بجسم ثقيل ينط على كتفيها اللذين ينحنيان من الثقل، عدا عن شعورها بالانقباض، ومقتها بيتها، وسماعها دبيب أقدام على سطحه بين حين وآخر.

قلت لها: العلة واضحة، إنها مخازي الجن واعتداءاتهم على الإنس، كل ما ذكرتِهِ يدل على وجود جني غير مؤمن يتقصدك ويضيّق عليك عيشك، فظهرك ما انحنى هكذا من فعل الزمان، إنما بسبب ثقل ذلك الجني المتحدر من سلالة الشيطان والعلم عند الله، أما نحول بدنك فلا يبدو أصيلاً، فأنت لم تتمي الرابعة والأربعين من عمرك كما يَظهر، ثم إن الظهر لا ينحني والبدن لا يسقم في مثل هذه السن التي

ترتبل فيها أبدان النساء.

لوى رباح وجهه كأنما لم يعجبه حديثي إلى زوجته، أما عزمي فقد أطرق ولم ينبس، لكن هالته كانت حاضرة. أستطيع إبصار هالة الرجل وإشعاعها إذا توافرت حوله أو فيه. شيء ما في نظرات عزمي ووجهه أثار اهتمامي. تمعنتُ في عينيه، فأحسست أن في حبتيهما الرمليتين غيمات تتأبى على التقشع أو الكشف عما وراءهما، لذا خصصتُ له حجرة في عقلي، وجمعت عباءتي حول نفسي، ثم شاغلت والديه بثنائي عليه.

لمّا سألت عزمي عما إذا رأى ذلك الجني أو سمع صوت خطواته، نظر في وجهي قائلاً «المهم. ما الذي ستفعله أنت يا شيخ؟»

جواب في ثوب سؤال، واختصار للسبيل والمقال، واستفسار بليغ عن المآل.

أثار سؤاله إعجاباً في نفسي التي خاطبتني: من الخير أن تحني الغصن وهو صغير، أو تصححه وهو طري صغير أيضاً.

ازداد اهتمامي به فيما بعد، خصوصا عندما تيقنتُ أنه غير قابل للتفكك السريع كرباح وسواه من الرجال.

أوصيت جليلة بالاستعاذة والبسملة، وفتح باب غرفتها فور اعتلاء الجني كتفيها، ثم الخروج السريع منها، ورفع الكتفين إلى الأعلى عند وصولها الباب كي يصطدم بعتبته العليا وينال جزاءه. وقد فعلتْ ذلك في الأيام التاليات، وتحررت منه خارج الغرفة، بل قالت لي إنها كانت تسمع صياحه كلما خرجت من الباب واصطدم بعتبته العليا، وإذا أعانتني ذاكرتي، فقد قالت لي إنها رأت دماء زرقاء تقطر على ثوبها حال ارتطام الجني بإسكِفتها العليا، غير أن تلك الدماء زالت وتبخرت بسرعة، على ذمتها.

لكنها أبلغتني بعد يومين، بأنه عاد وصار يقذف الطناجر ويكسر الصحون والأكواب وزجاجات الزيت ومناضد الخشب في المطبخ بسفاهة، ومن دون أن تراه! قلت:

الجني لا يُهزم أمام الإنس بيسر، وهذا ما جعله يعود إليك غاضباً مستشيطاً، إنه جنيّ كافر وباغ، ولا يحق له أن يقرب بيوت المؤمنين من الإنس أو يتلف شيئاً من محتوياتها، دعيه لي.

وضعتُ بعد صلاة فجر اليوم التالي ماء نقياً في الإبريق النحاسي، وقرأت عليه آيات من سورة الصافات والبقرة فصَفا، ثم رششتهُ في زوايا البيت وأنا أتلو أذكارا بصوت جهوري، وسقيت جليلة بيدي من الإبريق لتطهير روحها وبدنها، وانتهرتُ ذلك الجني الصائل المعتدي، ووبخته وهددته، وعلمت أنه لم يعد إلى بيتها ثانية.

لكن ظهرها ظل محنيّاً، لأن آفة الحميّة استيقظت مجدداً في نفس بعلها رباح، الذي فتل شاربه الأيمن الموشى ببعض الشيب، وتحدث بفخر عن رجولته التي تمنعه من الموافقة على مداواتي لها، مدعياً أنه يغار عليها!

صحيح أن بعض الظن إثم، لكنني قبضت على نواياه من كلامه، واستبطنتُ كتلة السواد في قلبه، ففهمتُ أنه راغب في أن تظل محنية الظهر لأمر خبيث يخالط نفسه، وهو الأمر الذي شعرتُ بأنه مغطى بطبقة كثيفة من قتام روحه. مع أن جليلة امرأة بالغة الحسن طويلة بيضاء، ذات وجه شفاف يشيع الطمأنينة في النفس، ولا ينقصها سوى مداواة ظهرها، كما لا يعيبها شيء، اللهم إلا إذا أردنا تحميلها وزر شقيقها، جبران أبو بصير، الذي لم يحمل في حياته إبريق وضوء، ولم تطأ قدماه عتبة مسجد، ولم يستجب لمحاولاتنا هدايته وتقريبه من جادة الصواب واليقين، حتى أنه لم يسمح لنا بولوج بيته في جبل الجوفة قبل رحيله منه، ذلك الرحيل المريب الذي تم بعيد اجتياح اليهود لمدينة بيروت،

وقبل ثماني سنوات من عودة الجني إلى بيت شقيقته.

وبدلا من أن يستجيب جبران لنداء الحق الذي أسمعناه إياه مراراً في تلك الأيام وقبلها، قام بتجنيد رهط من شبان الحي وإقناعهم بالسير في ركب الماسونيين والشيوعيين، واستطاع مد نفوذه السري الآثم إلى شبان ورجال في أحياء أخرى. ولقد أزعجني بنشاط أتباعه في الحي، فقد كانوا عنيدين منساقين وراء عنفوانهم، لا يُغيّرون رأيهم ولا تردعهم تعاليم ديننا السمح، بسبب الغشاوات التي غلفت أبصارهم، وكثيرا ما ضايقوا شباننا الذين يتقون الله ويتجنبون الشر ما أمكنهم.

لكن الله تعالى كان لهم بالمرصاد، فقد أوقع مُفسدهم جبران في شر أفعاله قبل عام واحد من اجتياح عساكر اليهود لمدينة بيروت، حيث ضبطت الحكومة في مخدعه الزوجي منشورات وبيّنات على ضلوعه وعدد ممن يسميهم «رفاقه» في مؤامرة ضدها، وتم سجنه ثلاثة شهور. لم يُسجن سوى ثلاثة شهور! مما يدل على أنه وشى بمن ضللهم ومن ضللوه ممن يفوقونه منزلة.

على الرغم من ذلك لم يدخل المسجد بعد خروجه من السجن، وآثر الانكفاء على نفسه والابتعاد عن الآخرين.

غير أن ثروة مفاجئة هبطت عليه بعد عام من مغادرته السجن، فخرج من صفوف «الكادحين» حسب لغو الماسونيين وأتباع ماركس اليهودي، وابتاع واحداً من تلك البيوت الكبيرة في جبل عمان، وتنكر لمن عاش معهم سنوات طويلة في الحي السفلي، بمن فيهم شقيقته جليلة وزوجها، وابنهما عزمي الذي كان فتى صغيراً في تلك الأيام.

على أي حال، لا ذنب لشقيقته جليلة في أفعاله، فكل شاة مربوطة بعرقوبها، والله لا ينسى من فضله أحداً، ولقد شملها برحمته وخلّصها من ذلك الجني الذي سوّد حياتها.

قبل أن أغادر بيت جليلة وزوجها، اقترب عزمي مني، كان بدنه متماسكاً طافحاً بحيوية الشباب. قال لي بصوت خفيض «هرب الجني من الدار وكانت النار تأكله». قلت: هذا بفضل الله تعالى، الذي حمى بيتكم وساكنيه من شر الجني الذي احترق بنار غيظه وهزيمته.

فأطال النظر في عيني، ثم همس في أذني «لكن الجان مخلوق من نار، فكيف يحترق؟»

لم أجبه على الرغم من أن حديثاً صامتاً دار بيننا لمّا تبادلنا النظرات. قلت لرباح: قتالي مع الجني أتعبني وخالط جوفي واستنفد طاقتي.

فأمر عزمي «اذهب مع سيدك الشيخ واحمل الإبريق والكيس والمصحف بدلاً منه.»

رافقني إلى الدار. أجلستُهُ وسقيته من الماء التي أحضرتها معي من بئر زمزم المبارك، بعد أن أديتُ مناسك الحج للمرة السابعة، عدا عن ثلاث عشرة عمرة أديتها حتى ذلك الحين، فقد تولد لدي منذ زيارتي الأولى إلى قبر رسول الله صلوات الله وسلامه عليه، حنين روحي ظل يشدني إلى تلك الأرض الطاهرة، إضافة إلى لقاءاتي مع عدد ممن عرفتهم هناك وتوطدت صلاتي بهم وجمعت منهم ما يسد رمق بعض العائلات المستورة.

قلت لعزمي وهو في داري:

سأتلو سورة لقمان بصوت جهوري وببعض التأني، قم بالطواف في أنحاء الدار كلها وعد إلي قبل انتهائي من تلاوة السورة.

ففعل ولم يسَل عن سبب ذلك الطلب.

انتهيت من التلاوة فوجدته أمامي، سألته عما رأى في طوافه فوصف كل ما في الدار، حجرة المداواة وما فيها، المصلى المربع وسجادته الخضراء المزخرفة بالأبيض، غرفة القعدة العربية وفراشها، غرفة نومي

المجللة بالأخضر، المطبخ والمرحاض، أشجار التين والزيتون المباركة، شجرتي التوت اللتين تقطران شهداً قاني اللون. وصف لي كل ما رآه، حتى إنه ذكرني بأشياء مركونة نسيت وجودها، كأعواد قصب السكر التي فسدت، وجلود وفراء الثعالب المملحة المنشورة في مواجهة شمس الصباح منذ شهرين، وقرون التيس المنقوعة في صفيحة جف ماؤها، وكتاب صحيح البخاري وتفسير الجلالين، وكتب تراكيب الأعشاب وخلطاتها ومنافعها، وثلاث مخطوطات نفيسة مصورة، تعود إلى القرن العاشر الهجري.

أثنيت عليه: دقيق الملاحظة.

فأنزل رأسه قائلاً «لم تكن متعباً في بيتنا». أجبته: أردت رؤيتك من دون أن يرتاب أبوك.

فعلّق «عرفت ذلك». قلت: إذن تستطيع حفظ السر.

بعد أيام زرت بيته لأتحقق من إقلاع الجني عن كاهل أمه، جلست معه ومع أبيه، عرضت أن نبتعثه إلى جامعة الأزهر ليتعلم فيها فقه الدين وأصوله، فادعى أبوه أنه لا يملك مالاً لتدريسه. قلت: نحن الذين سننفق عليه لا أنت. سألني «من أنتم؟» فأجبته: نحن أهل الخير وفاعلوه.

لكن عزمي قال «الشهادات لا تعنيني ولا تقلقني.»

بعدها قربته مني. وتحققت في دخيلتي من أن هذا الشاب سيكون نافعاً أكثر من سواه. غير أن شكوكاً ساورتني بأنه قابل للتغير والانقلاب! علقة في جوفي ظلت تغالبني وتقاوم قربه مني. لكن، نحن في حاجة الى شباب بهذه النجابة والنباهة. أما تلك القابلية، فالنصوص والطقوس كفيلة بتسكينها إذا تأكد وجودها في عقله وروحه.

***

رباح الوجيه

أفهمتُ عزمي أن استعجال الرجولة أمر محمود، لكن صعود السّلم يتم درجة درجة. فأجابني: «بعض الناس يصعدون ثلاث أو أربع درجات على السلم في كل مرة.»

صحتُ به: تكذّبني يا بن جليلة؟

فسكت وسرح.

أكثر مشاكلي مع أمه جليلة كانت من تحت رأسه وبسببه، فقد اهتمت به أكثر من اللزوم، وتوقعتُ أن يصير رخواً عندما يكبر، لأن الاهتمام الزائد يميّع الأولاد. لكنها لم تسمع كلامي، ظلت تعطر له وجهه ورقبته وخلف أذنيه كل يوم قبل خروجه إلى المدرسة، وتصر على أن ينظف أسنانه ست مرات في اليوم، قبل كل وجبة وبعدها، وتُعلمهُ كيف يستعمل الشوكة والسكين، حتى انها أخذتنا، لمّا صار عمره خمسة عشر عاماً، إلى مطعم جبري وتغدّينا فيه. وسألت حالي: من أين جاءت بالنقود كي تتجرأ وتدعونا إلى مطعم جبري؟

طبعاً عرفت أنها لم تأخذنا إلى المطعم إلا لكي تعلّم عزمي تلك الأشياء التافهة، مثل تثبيت المريلة البيضاء في قبة قميصه وفردها على صدره قبل الأكل، والتأكد من تطبيقه أصول استعمال الشوكة والسكين في المطاعم، ووضعهما على الطبق بعد الانتهاء من الأكل في وضع متصالب مثل إشارة الضرب، ليعرف الجرسون أن عزمي بيك انتهى من طعامه!

سألتها: مَن علّمك كل هذه الأمور؟

فتطلعَت في وجهي وذكّرَتني بتاريخ عائلتها الذي لا أحب سماعه.

أصيبت جليلة بلوثة النظافة. صارت مهووسة بتنظيف أرضيات الدار وحيطانها بالماء المخلوط بالمبيدات الحشرية، وجلي الصحون والأواني وغيرها، وغسل الفراش والثياب كل يوم أو يومين، ورش المساحيق القاتلة للنمل والصراصير والجرذان في كل سنتمتر من زوايا الدار. كل يوم ترش المبيدات المضرة بالصحة. سكان الحي والحشرات والفئران الكبيرة والصغيرة، كلهم عرفوا أن دخول الحشرات والقوارض إلى دارنا ممنوع. لم يبق على جليلة إلا غسل الهواء الذي يدخل دارنا.

عزمي توسل إليها عدة مرات أن ترحم حالها، لأن الحشرات أكثر من الناس بكثير، ومن المستحيل أن تزول حتى لو طهرت كل الأرض بمبيداتها. لكنها لم تقتنع.

ومع أننا نعيش في حي فقير مليء بالنفايات والمياه الوسخة، إلا أنها أصرت على أن لا نرمي مناديل الورق أو الفضلات في الشارع أو البيت، وخصصتْ لها أربع سلال وضعتها في أماكن متفرقة من الدار، وحاولت منعنا من أكل المكسرات خصوصاً \البزر! كانت تقول «هذه العادة بدائية وكريهة، لأن الله خلق \البزر للقرود والسعادين وليس لبني آدم، وسبب وجود الحشرات في الحي وبيوته وأزقته، خصوصاً النمل والصراصير، يعود إلى قشور \البزر التي يرميها قليلو الأدب من وراء ظهورهم أثناء مشيهم في الطرق أو جلوسهم في البيوت»

أما حفر المناخر بالأصبع وتقشير أصابع الرجلين واللعب بالأظافر ومسح القذى عن العيون بالأصابع، فهذه أمور ممنوعة تماما حسب رأيها.

فيما يتعلق بي، لم أهتم بكلامها ولا بأوامرها، لأني اعتبرت أن

هذه الأمور ليست من صلاحياتها. وتقاتلت معها عدة مرات لأني أنخع وأمخط وأفصفص البزر وأرمي القشر وغيره في أي مكان. هذا جزء من حريتي، ولا يحق لها أن تتدخل في هذه الحرية.

كنت أحاول شطب الكلام الفارغ الذي تقوله لعزمي، لأني مقتنع بألا فائدة من وضع النفايات في السلة إذا كان الإنسان يعيش في مزبلة. نحن نعيش في مزبلة. أما استعمال الشوكة والسكين فتعقيد للحياة، لأن معدة الإنسان لا تميز بين الأكل باليد أو بالملعقة أو الشوكة التي جاءتنا من بلاد الأجانب، لكن الجُهّال ظنوها من عاداتنا العربية الأصيلة.

جليلة عملت على تخريب الولد، أما أنا فحاولت تعليمه الخشونة. وقد زاد هذا من خلافاتنا أمام عزمي، فصار يغادر الدار كلما تقاتلنا. لكن جليلة ظلت مصرة على تنفيذ ما في رأسها.

زملاؤه في مدرسة الأمير حسن التي كان يديرها واحد من جماعة الإخوان المسلمين، أطلقوا عليه اسم «المدلل»، على الرغم من مشاكله الكثيرة معهم، وكان المدير يستدعيني ويوقعني على تعهدات بتأديب عزمي، لكن واحداً من المدرسين قال لي إن سبب مشاكله مع بعض التلاميذ هو غِيرتهم من ثيابه المرتبة وذكائه وشطارته في دروسه.

من الممكن أن غيرتهم منه كانت سببا في اختلافه معهم، فبعدما فتحها الله على جبران شقيق جليلة، صارت تشتري لابنها الملابس الراقية من محلات الطيان ومنكو في وسط البلد، ونعال الرياضة من محلات عصفوركو في طلوع جبل عمان، ولم تسمح لي باصطحابه إلى أي من حلاقي جبل الجوفة! كانت تسلمه بيدها إلى حلاق اسمه عبود رحال، له شعر مثل ريش الديك، ويقص شعر الأولاد والشباب بطريقة يسمونها المارينز، عرفت هذا يوم أخذته بنفسي إليه، وقعدت في صالونه الكائن في شارع سينما الحسين، ولاحظتُهُ وهو يعلك مثل البنات، ويزعم قدام الزبائن بأن مذيعي التلفزيون يحلقون عنده، ويعلق

في صالونه صورة مكبرة له وللمذيع «نقولا حنا» وهو يقص له شعره في صالونه.

لما بلغ عزمي عامه الثامن عشر صار يضايقني، عن قصد وبغير قصد، هذا ليس شُغلي، المهم أنه صار يضايقني، لأنه يجادلني بحجج قوية تقنعني، فأغيّر رأيي. صحيح أنّي وافقته على أمور كثيرة كان رأيه صائباً فيها وأقوى من رأيي، ومدحتُه على شطارته، لكن الولد زادها، وصرت أشعر بالغيظ منه، لأن قدرتي على وزن الأمور تبلبلت بسببه، فخلق لي مشاكل كثيرة مع حالي، وشوّش أفكاري ونظرتي إلى الدنيا، ولما تأكدت أنه فطين أكثر مني، تحول غيظي منه إلى عداء له، فصرت أضربه بالخشبة، وصارت جليلة تعيّرني وتقول لي كلما ضربته بها «عصا المجنون خشبة».

الظاهر أنه عرف كيف صرت أفكر، لأنه توقف عن تصحيحي ومجادلتي، وأفلح في تخفيف عدائي له، فشعرت بأنه قادر على إبطال مفعول غضبي منه.

تمسكتُ بغيظي منه لكي أشعِرهُ بأنني كشفتُه. فأكملت هجومي عليه. قلت له إن مصاريفه صارت تضايقني. كان يأخذ مني عشرين قرشا كل يوم، وكانت هذه القروش تساوي مبلغاً في ذلك الوقت، نهاية الثمانينات، هذا عدا عن تكاليف ثيابه والكتب الغريبة العجيبه التي يشتريها. ذكّرتُه: أنا أفقر مما تظن، لست ابن شومان ولا المصري ولا المعشر ولا منكو، أنا كاتب استدعاءات أمام بوابة المحكمة، وشغلي ما عاد يكفينا لنعيش مثل الأوادم، لأن الحياة صارت نار، والناس تطوروا، لعنة الله على هذا التطور، وصاروا يأتون باستدعاءاتهم وقضاياهم مطبوعة وجاهزة ويقدمونها مباشرة إلى المحكمة، لم يعودوا بحاجة إلى خطي النسخي إلا في حالات نادرة.

لم يعلق، لكن أمه أخبرتني أنه لن يقبل مني قرشاً واحداً بعدها، فقلت بلا تفكير: أحسن.

ثم سألتها: ولكن كيف سيعيش هذا اللوح من دون نقود؟

فلوت رقبتها ونطقت «عزمي يستطيع أن يعيش من دون طعام عند اللزوم.»

وما كان خيّاباً! لم يعد يطلب أو يقبل مني شيئاً بعدها، مع أني طيّبْتُ خاطره!

أما سبب ما قلته له فهو أني دائما أنظر إلى البعيد، وقررت وضع العربة قدام الحصان، لكي يفهم أن الدراسة في الجامعات والكليات ما عادت لأشكاله بسبب تكاليفها الكثيرة.

لم أشعر بالندم أو الحزن على عزمي، لأن الزمان لوى إبرة ضميري مثل كل الناس. أصلاً لا لزوم للندم عندما يصير الشاب قادراً على العمل وإعالة نفسه. أنا بالذات لم أعد أثق بالأولاد، لأني تعلمت وأنا قاعد قدام المحكمة أن الأبناء يبيعون أهلهم، ويتنكرون لآبائهم، ولا يقدّرون شقاءهم وتعبهم. تعلمت هذا من كثرة الاستدعاءات والقضايا التي يرفعها آباء مساكين على أبنائهم، لأنهم أداروا لهم ظهورهم عندما هرموا وهدَتهُم الأمراض، ورأيت كيف كانوا يتقاتلون بالأيادي مع آبائهم قدام عيني هذه التي سيأكلها الدود.

يكفيني أن أتذكر منظر علي الوعل، صاحب أول معمل للحلقوم في البلد، وثاني مصنع للسكاكر المغلفة، وهو واقف مثل الذليل بباب المحكمة، لكي يستلم المبلغ التافه الذي فرضته المحكمة له كل شهر على ابنه! طبعاً الحقّ على علي الوعل، لأنه، لمّا أصابته ذبحة صدرية وارتمى في المستشفى ولزم بيته بعدها، خاف أن يموت ويتوزع الإرث بين ابنه الوحيد وبناته الثلاث المتزوجات، فتنازل لابنه عن المصنعين.

لكنه لم يمت. مضت سنوات عديدة على تنازله ولم يمت، وشعر بالخازوق لما تخلى ابنه عنه، فرفع عليه قضية مثل قضايا النفقة التي ترفعها النسوان ضد أزواجهن.. على كل حال يستأهل.

عزمي لن يكون أفضل من ابن علي الوعل وغيره حتى لو صار مليونيراً. فالدنيا تغيرت، وأنا لا أضحي بنقودي وتعبي من أجل تعليمه في الجامعات وغيرها.

ظلت أمه تتعاطف معه وتشعرني كأني قتلت قتيلاً! قلت لها: أنا أنظر إلى البعيد، يجب أن يتعلم الاعتماد على حاله.

فأجابتني وهي تتنهد «قبل أن تنظر إلى البعيد، انظر إلى ما هو أمام عينيك.»

فاجأتني بنت أبو بصير بهذا الكلام، ولم أعرف كيف أجيبها، فقويَت عينها وذكّرتني بالشَبَه بينه وبين جدها، صاحب العقل الراجح الذي كان يتزعّم آل أبو بصير، حسب كلامها.

كانت مصرة على أنه مثله، مخلق منطق، كأنه مسحوب من ضلوع أجدادها هي، لا من صلب والده الذي هو أنا!

طبعا، توقعتُ بأنها كانت تخصه بأشياء من وراء ظهري، وعلى الأغلب أنها كانت توفر من مصروف الدار لتشتري له أغراضه، وتأخذ من شقيقها جبران مساعدات بعدما صار غنيا، مع أنني لم أر شيئا من تلك المساعدات بعيني وهي لم تقل لي شيئا عنها. لكنها قهرتني لمّا شبّهته بجدها هي.

ضجرت بكلامها عن جدها، فقلت لها: حتى لو كان جدك أميراً، ما الذي أستفيده أنا؟

فردّت بعين قوية «يكفي أن عزمي يشبهه». فناولتُها الجواب: ولكن

هذا المخلوق عزمي لا يعجبني.

مع ذلك ظلت تحكي عن أهلها، كأنها من نسل الأمراء، وتذكّرني بأخيها جبران الذي صار وتصوّر. وتفتخر بثقافته وفهمه للدنيا، فقلت:

الدليـل علـى عراقـة عائلتـك هـو جنونك واختيـار الجني لك من دون سكان الجبل.

قلت لها هذا الكلام لأنها جنّنتني بأهلها. مالي وما لهم؟ وحتى أخوها جبران، هل نسيَتْ بأنه خريج حبوس؟ وكان يسكن تحت دكان المحسيري، ويشتري أغراضه منه ومن هاني السعيدات صاحب مطعم الفلافل بالدّين؟ نسيَت أن سبب التغير الذي حصل معه هو جنونها أو خبثها؟ نسيَت أنه قبل أن يرحـل عـن حيّنـا، كان راجعـاً مـن بين صخور الأرض الخالية المنحدرة القريبـة مـن بيتنـا؟ ومـن المـكان نفسـه الذي سـبق أن حفـرتُ فيه بحثا عن الذهب، مهتدياً بخارطة عتيقة أخذتها من رجل عجوز عند المحكمة، كتبتُ له اسـتدعاء مجانياً مع طوابعه، بعدما قال لي إنه سـيموت قريبا بسـرطان الدم، ويريد رفع قضية على حُرمته التي طردته من الدار؟

لما رأيت جبران وهو راجع من بين الصخور، دارت الشَرْبةُ معي، فبهْدَلتُ جليلة، واستنتجت أنها باعتني لجبران قبلها بشهرين، ليلة أخبرت الشرطة عني وعن شريكي عدلي الطيب. لأنها - حسب كذبها - صَحَت من نومها على صوت مجارف تحفر الأرض، وفكرَت أن مجرمين يحفرون قبـراً لقتيـل، فأخبـرتْ جارنـا أبـا فاروق، وتطوع هـو بتبليغ المخفر، ولما وصلت دورية الشرطة، قبضوا على الذين يحفرون ويفتشون عن الذهب، وما كان الحفارون إلا أنا وعدلي الطيب رحمة الله عليه.

حبسونا وبهدلونا ولم يفلتونا إلا بعد طلوع الشمس.

الذي طيّر عقلي أن هنالك دوراً أقرب من دارنا إلى مكان الحفر، فكيف انتبهَت وصحَت من دون الناس؟

لما سألتها قالت «للحفر في الليل صوت وصدى» وحلفت بجدها يحيى أبو بصير وبابنها عزمي أنه ما خطر ببالها أني أنا الذي كنت أحفر..

قلت لها: لا تحشري حالك مرة ثانية في الأمور التي لا تخصك، لستِ مسؤولة عن ثروات البلد ولا عن أمنه.

لكن، لمّا لمحتُ أخاها جبران وهو راجع من المكان نفسه، بعد شهرين من حبسنا أنا وعدلي، قلت لحالي: عملَتْها جليلة بنت أبو بصير وأخبرت الشرطة عني لكي يأخذ جبران الكنز.

بعدها تبدلت أوضاعه، وتغيرت طباعه، ورحل عن الحي مثل واحد هبَش هبْرة وهرب بها. صحيح أني لم أشاهده بعيني وهو يستخرج الكنز، لكن، كيف صار غنيا وانقلبت أحواله وتكبّر على الناس، بعد أن أشبعنا بكلامه الفارغ عن الفقراء (والبروريتاريا)

أصلاً جبران لم يعجبني، لأنه كان يهتم بشكله أكثر من اللزوم، كأنه واحد من أبناء الذوات، ويلبس بدلة غامقة لا يملك غيرها. على الأغلب أنه اشتراها من محلات الثياب المستعملة في شارع الطلياني. وكان يلمّع نعاله كل يوم مثل المكلفين في التجنيد الإجباري أيام زمان، ويحلق ذقنه كل يوم. ومثل النسوان، يقلع الشعر من فوق حاجبيه، ومن فتحتي منخريه، حتى إنه ما كان يربي شاربيه مثل الرجال!

الدودة، رابعة، حُرمته لم تعجبني أيضاً، كانت تحكي من رؤوس مناخرها، وتمنع ابنها وعد، وابنتها ناتاشا، التي لا أدري من أين جاءت لها هي وزوجها بهذا الإسم،، من اللعب في الحارة منذ أن كانا صغيرين بعمر عزمي، أو أظنهما أكبر منه بعامين أو ثلاثة.

قبل أن يرحل، كان الناس مشغولين بمتابعة أخبار بيروت التي احتلها اليهود، وتوقعنا أن يحكي لنا رأيه في الذي كان يجري، غير أنه

صار يتستر على كل شيء ولا يقعد مع الناس. لكن الدودة، رابعه، أم الوجه الصغير الذي قدّ القرش، والشعر الطويل النازل حتى مؤخرتها، لم تطق فرحتها يوم اشترى لها أربع أساور مثل الحيايا، ولما أخبرت جليلة بالموضوع طار عقلها، وصارت تسألني صباح مساء «من أين لجبران كل هذه النقود بعد أن كان فقيراً؟» فأجيبها: اسأليه. فتسكت. وبعد شهور من نجاح عزمي في التوجيهي صرت أسألها: كيف يعيش ابنك ويصرف طالما أنه لا يشتغل ولا يأخذ مني قرشاً واحداً؟

فتجيبني «اسأله». فأسكت.

سألتها عن قلادة الليرات العثمانية، فردّت «مخبأة في دارنا». قلت: أين؟

فسكتت. قلت: افرضي،لا سمح الله ولا قدّر، افرضي أن مكروها أصابك، كيف سنعرف مخبأ القلادة؟

فأجابت بزعل «تفكر بالقلادة أكثر مما تفكر بي؟»

لم تخبرني عن مكانها، وهذا ما زاد من شكوكي في أنها أعطت القلادة لأخيها الطماع. الله لا يبارك له فيها.

أيام زمان، كان جبران يحكي عن الكادحين، لكن بعد أن انتفخت جيوبه، لم يعد يقعد مع رجال الحارة في قهوة أبو السردين، وعرفت أنه طلب من رابعه وذريتها أن يكذبوا على الناس، ويقولوا إنه خارج الدار حتى لو رأوه وهو يدخلها.

أبو الكادحين، لم يستشرنا عندما باع بيته مع أثاثه المخلع إلى واحد من التجار، كان كل همه هو الخلاص من حيّنا ومن أصحابه، أما رابعة فقد استكلبَتْ، ولم تقبل أن تعير جليلة إسوارتين من أساورها الجديدة، لكي تزين يديها بهما في عرس ابن عمتها.

لعنة الله على الذهب ويومه.

رحل جبران وعياله قبل طلوع الشمس في سيارة تكسي، لكي لا

ينتبه له جيرانه، عرفت هذا من جليلة التي راقبتهم من شق البوابة بعد أن صلت الفجر. والصحيح أنها زعلت لأنه لم يودّعها ولم يقل لها أنا راحل يا أختي! الله أكبر عليه.

لكن الحق أنه استعد لتدريس عزمي على حسابه بعدما نجح في التوجيهي، وأظن أنه كان يعطيها نقوداً كلما احتاجت، لكن عزمي رفض أن يدرّسه خاله في الجامعة.

عزمي وأمه وقفا ضدي، مع أنها صارت مثل المجنونة بسبب وجود الجني في غرفتنا، حسب قولها!

هذه الحكاية بدأت أول مرة بعد أن تزوجتها بتسعة أشهر. ففي ليلة من ليالي شباط، كنت أتناقش مع أصحابي في مقهى أبو السردين عن المرحوم جمال عبد الناصر، بعد أشهر من موته، وتقاتلنا لأن بعضهم حمّلوهُ مسؤولية هزيمتنا في حرب حزيران، ووصفوه بالخائن لأنه وافق على مبادرة روجرز، وكاد يضرب بعضنا بعضاً بالكراسي لولا تدخل أبو السردين القوي صاحب العضلات المنفوخة، فحملت حالي وعدت إلى بيتي مبكراً على غير عادتي. فتحت بوابة الدار ودخلت، فرأيت جليلة تركض في قاع الدار بشعرها المنفوش وهي تصيح «أنزلوه عن كتفي» ودخلتْ المطبخ فلحقتُها، ظلت تصيح «أنزلوه عن كتفي»، فظننت أن فأراً أو جرذاً تسلل إلى بيتنا وتسلق ثيابها ووقف على كتفيها، لكني لم أجد شيئاً رغم صراخها، فأمسكتها من ذراعها وهززتُها وضربتها بكف يدي على وجهها فسكتتْ، وحمدتُ الله على أنها لم تكن حاملا بعزمي في تلك الأيام، لأن صياحها ورعبها وركضها المجنون كان كفيلاً بإسقاطه من رحمها.

لكن هذه الحالة عادت إليها بعد حوالي تسعة عشر عاماً، وهذا ما حيرني!

سندس

قبـل أن يطلـب ربـاح يـدي مـن أمـي، كانت السـنوات تمر بطيئة، ويزداد معها احساسي بأن قطار الزواج قد يمضي، قبل أن يتزوجني رجل يفعل بي ما يفعل الرجال بنسائهم، فقد صرتُ في الخامسة والعشرين من عمري، مع أن غالبية فتيات الحي يتزوجن في السادسـة أوالسـابعة عشرة من أعمارهن.

كنت أسلّي نفسي بقراءة بعض الكتب والمجلات التي خلفها أبي بعد موته، فقد حصلت على شهادة التوجيهي حين كنت في الثامنة عشرة من عمري، ولم تسمح ظروف أبي بتدريسي في الجامعة أو الكلية. أمي حاولـت أن تتخلـص مـن كل تلـك الكتـب والمجـلات، وعندما منعتها قالت لي «ستصيرين مثل عدلي، ظل يقرأ بلا فائدة، وبعدها صار يشرب حتى أكلته الجرذان، هذه هي نتيجة القراءة والحكي الفارغ».

قيل عني الكثير، حتى أن زوجة أخي عبد اللطيف التي تقيم معه فـي البحريـن، قالـت لـي يـوم اتصلت بها من هاتـف مكتب البريد، بأن الرجال يحبون النوم مع المطلقات، لكن يفضلون الزواج من غيرهن! الكلبـة. قالتهـا وضحكـت متشـفية بـي، ثم ادعـت بأن أخي غير موجود في البيت.

زوجات إخوتي ماكرات متنكرات لشقيقة أزواجهن الوحيدة التي هي أنا. مؤكد أن زوجة أخي عبد اللطيف أحست بنيّتي طلب مبلغ من المـال لـي ولأمـي، بعـد أن انقطعت حوالاته وحوالات أخويّ الآخرين

زكي وعارف، التي كانوا يرسلونها إلينا كل شهر، حتى إنها اشتكت من صعوبة الحياة والغلاء في البلاد التي يعيشون فيها، فاختصرتُ مكالمتي وسكّرتُ السماعة واتخذتُ قراري.

صارحتُ أمي: أبو عزمي يشتغل كاتبا عند المحكمه، وهو لا يقصّر معنا، ويقدر على إعالتنا أنا وأنت، فنحن لم نعد نملك ثمن طعامنا بعد أن تخلى إخوتي عنا، بسبب نسائهم القطّاعات اللواتي حكمنهم وركبنهم...

فقاطعتني بمزيج من الفخر والحزن على ما آلت اليه أحوالنا «اخوتك أصيلون، أصلهم يردهم.»

فعلقتُ: لو كانوا اصيلين لما نسونا، مرت خمسة شهور ولم يرسلوا لنا قرشاً أحمر، كيف سنعيش؟

صمتت وترقرقت في عينيها دمعتان.

واصلتُ حديثي: صحيح أن رباح في الخمسينات من عمره، لكنه قوي وحنون، رأيته واقفاً بباب داره بدون الحطة والعقال، شعره كثيف مع أنه مقصوص، وتجاعيد وجهه بسيطة، صدقيني إني ظننته في الأربعين.

رمقتني بعينيها واختصرَتْ القول «يعني، هل يستطيع القيام بهَمّهِ في السرير؟» قلت: أنا لم أجرب الرجال من قبل.

فهزت رأسها «فكري. أنت التي ستتزوجين لا أنا.»

ماذا أقول في هذه الحياة الظالمة؟ ماذا أقول بنساء حيّنا اللواتي أرغمنني على الزواج من رباح، مع أنه يكبرني بسبعة وعشرين عاماً.

كانت أحاديثهن المفصلة عما يجري بينهن ورجالهن في الفراش تعذبني، كن يتحدثن بجرأة واستمتاع عن أزواج يعودون من عملهم فجأة كي يضاجعوا نساءهم، وآخرين يهلكوهن في الفراش، ويذكرن تفاصيل

تثيرني وتعذبني. أما الفتية والشباب فيعذبونني أكثر حين يغرزون عيونهم في جسدي، ويسمعونني ألفاظاً قذرة، ويحتكون بي إذا صادف أن التقاني أحدهـم فـي الزقـاق، حتـى أن واحـدا من أولئـك البالغين الجدد، ذوي الوجـوه المـلأى بالبثـور، اقتـرب مني وقبض على نهدي بوقاحة وجهل أثناء سيري في الزقاق، فاضطررت الى صفعه على وجهه.

كان لا بد لي من رجل يحميني ويرويني.

***

رباح الوجيه

قبل موت جليلة، كنت قد نسيت موضوع الجني الذي قالت إنه ركب كتفيها بعد أشهر من زواجي منها. لكن بعد أن كبر عزمي وصار شاباً، عادت تصيح وتركض في الدار وقالت إن الجني قد عاد إليها، حصل هذا أكثر من عشر مرات!

قرأ لها عزمي آيات قرآنية.. صار مثل الشيوخ!

لكن، في ليلة من الليالي سمعت صياحها في قاع الدار، ركضت فلقيتها واقفة ملتصقة بالجدار. عيناها مذعورتان، وساقها اليمنى مجروحة والدم يسيل منها.

فكرت، قلت لحالي: على الأغلب أنها هي التي جرحت ساقها، لكن، أنا لا أعلم بالغيب، من الممكن أن يكون كلامها صحيحاً، فالله سبحانه وتعالى قال في كتابه العزيز (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون). هذا يعني أن الجن موجود، كما أن الله قدّمه في الآية على الإنس.

ناديت لها الشيخ عبد الحميد الجنزير. الناس قالوا لي إنه يقارع الجن ويهزمهم.

لم أقتنع بهذا الكلام، لكن ما في اليد حيلة.

الشيخ الجنزير قال لي «نزّل الصور المعلقة على الحيطان». صور والدي وإخوتي وأهل جليلة. نزّلتها كلها. قال «أخرِج الصور من البيت واجمعها في صندوق وضعها فوق سطح الدار، لأن الصور تحمل أرواح

أصحابها الميتين». عملت مثلما طلب مني. ثبّت إبريق النحاس بجانب عـرق الداليـة، وصـار يتمتـم ويقـرأ من القرآن في الإبريق، وبعدها دخل الغرفـة ورشـرش المـاء فـي زواياهـا، بعد أن اسـتعاذ بالله وحمده على «نعمة هناء الإنس واسـتقرارهم على أرضه». لكنه تغير فجأة، تدورت عينـاه واحمـرت جفونـه، وصـار يصيـح كأنه في معركـة حامية الوطيس «أيهـا الجنـي الصائـل الجائـر، المعتدي على الإنس ومسـاكنهم، اذهب إلى خرائبك ووديانك وفلائك قبل أن ألهب النار في بدنك.»

ثم سكت وظهر عليه أنه يسمع ردّ الجني، فحضّر حاله وردّ بقسوة وهو يلهث «ما تقوله افتراء، أنت لم تسكن هذا البيت قبل جليلة بنت عبـد الباقـي يحيـى أبـو بصيـر وزوجها رباح الوجيـه وابنهما عزمي، الله سـبحانه وتعالى لا يسـمح لك ولبني جنسـك بدخول بيوت المؤمنين من الإنس والعيش فيها بغير إذنهم.»

دفعتُ له عشرة دنانير مع أني لم أصدق لعبته كلها. لكن أم عزمي شفيت من حالتها بعد أيام، وما عادت تحكي عن الجني!

سـندس بنـت فاطمـه عبـد الجبار كانت هـي الحُرمة التي خططتُ للزواج منها. لكن، النسوان كاهنات! فأم عزمي أحست بعد أن شفيَت مـن الجنـي أن المـاء تجـري مـن تحت رجليهـا، وانتبهَت إلى اهتمامي بسـندس، فصـارت تتنهـد وتتبـرم، وقالـت لـي بعـد أن لمحت سـندس فـي الزقـاق «الرجـال يحبـون المـرأة اللعـوب، سـندس تنفـع للعـزاب الشائطين.»

أدَرتُ رأسي وقلت: مالنا وما لبنات الناس.

عندي قاعدة: النسوان أربعة أنواع، الأولى تسلم نفسها للرجل حباً به، الثانية حياء منه، الثالثة غصباً عنها، والرابعة عهراً منها.

أنا متأكد من أن سـندس لم تحبني، لكنها كسـرت القاعدة، فلم

أعرف أي نوع من النسوان هي؟

شـرش الحريـم عنـد جليلـة ظـل يجوس، وصـرت ألاحظ اهتزاز بدنهـا، وأحيانـا أسـمع صـوت قلبهـا وهو يدق فـي صدرها مثل القدّوم كلما لمحَت سندس!

سندس كاسرة. وأم عزمي صارت تخاف منها، عرفت هذا من لون وجهها وكلامها المشتت المفتت، وكان هذا على قلبي مثل العسل.

ليلة تجسستْ جليلة على حُلمي، وسمعَتْ صوتي وأنا أنادي على سندس بصوت عال، وأقول لها إني نويت خطبتك وتطليق جليلة، لم تنم وظلت تتقلب في فراشها، ولمّا ذهبتُ إلى شغلي، تطلعَت في وجهي ولم تنطق. لكن، لمّا صار الجد وأخبرتها عن نيتي الزواج من سندس، قالت لي وهي ترش مبيد الحشرات عند زاوية الحائط «عرفت».

عندما طلع الصباح، غسلتُ وجهي ولبست بدلتي البنية وحملت دوسيتي وخرجت من الدار. لكنني شعرت بأن الجو في الزقاق مثل النار، ورأيت البخار يتصاعد من قناة المياه الوسـخة، ولاحظت أن الحيطان متقشره ومنحوتة، وورق العنب أصفر، والغصون متدلية على الحيطان بحزن.

واللهِ، بكسر الهاء، إني رأيت غصون الدوالي حزينة.

اختلطـت الروائـح فـي أنفـي وحلقي، وارتفعـت حرارتي، فابتلت جبهتي، وشـعرت باختلال توازني. لكنني تماسـكت حتى وصلت إلى شغلي عند باب المحكمة.

أم عزمي زارت فاطمه، أم سندس، وفاتحتها بالموضوع، فأجابتها «عادي، الإسلام أحل للرجل أن يتزوج أربع نسوان!»

عرفتُ بما دار بينهما بطريقتي، فتأكدتُ من نجاح خطتي التي لم تكتشفها بصيرة جليلة، فأنا لم أكن نائماً عندما نطقتُ كلامي الذي ظنته

خارجاً من الحلم، كنت مستيقظاً ومتظاهراً النوم، وأردت رمْيَ احتمال زواجي من سندس قدامها لكي أعرف رد فعلها.

عزمي لم يتدخل، مع أنه قال لي «من يُقدم على فِعْلة الزواج لا يكررها». استعمل كلمة «فعلة»! فقلت له بغضب: أنت سمج، هذه الأمور لا تخص الأولاد، فاهم؟

فتركني وخرج من الدار، ولم يراجعني بعدها في الموضوع.

طلبتُ سندس من أمها، فصار وجه جليله أصفر مثل الليمونة، وانقبضتْ وقصرت قامتها! وفوق هذا صارت تسعل وتشهق وهي نائمة، أما صوتها فصار هزيلاً ينفع للنواح في الجنائز.

يعلم الله أني حاولت أخذها للطبيب ثلاث مرات، لكنها لم تقبل، ورفضتْ محاولات عزمي وفضّلتْ النوم في الدار بدون علاج!

شعرت أنها تريد معاقبتي بمرضها، ولما أحضر لها عزمي طبيباً ليفحصها ويدلنا على علتها، من دون استشارتها طبعاً، لم تسمح له بالاقتراب منها.

أخوها جبران جاء من جبل عمان ليزورها، وحاول أن يأخذها إلى المستشفى، فقالت له إنها تعبانة وتحتاج إلى الراحة. فجلس بجانبها بعد أن طلب مني أن ينفرد بها.

الله وحده يعلم بما دار بينهما بعد أن أخرجاني من الغرفة. ظلا يحكيان بصوت منخفض، ولما تركها ورجع إلى داره بكت جليلة، بكت كثيراً، ثم تحمّمتْ، ورجعت إلى فراشها، وصارت دموعها تنزل من دون صوت.

آخر ما قالته قبل أن تفارق الحياة «سأترك هذه الدنيا لك ولعاهرتك سندس بنت فاطمه». قالتها وكأنها متأكدة أن عزرائيل في طريقه إليها، أو كأنها صاحبة خبرة في الموت. وظلت ساكتة حتى قبض روحها

قدامي وأنا أتفرج!

العلم عند الله أن جليلة أعطت جبران قلادة الليرات العثمانية لما زارها، مع أنه ليس بحاجة إليها، هذا إذا لم تكن مخبأة عنده أصلاً، لأني بعد موتها قلبت الدار ولم أجدها.

لاحظتُ أن المعزين في الصيوان الذي أقامه جبران قرب بيته في جبل عمان، نسوا الميتة وصاروا يتحدثون عن النواب، ويتجادلون في نتائج أول انتخابات لمجلس النواب بعد إلغاء الأحكام العرفية في البلد، مع أن تلك الانتخابات جرت قبل موت جليلة بأكثر من سنة، تجادلوا أيضاً في موضوع زوال الاتحاد السوفياتي بلغة غريبة عليّ، وكان من بين المعزين رجال ببدلات راقية ونعال نظيفة تلمع ووجوه تطفح بالعافية، وجميعهم كانوا يعزون جبران ويودعونه من دون أن يلتفتوا إلي إلا نادرا. بعضهم قام بتعزية عزمي. ولم يفوت الشيخ الجنزير تلك الفرصة، فقد جاء مع عدد من الشيوخ الملتحين مثله، وجلس بين عزمي وخاله، ولاحظت أنه وجبران صارا يتحدثان بود وتفاهم بعد أن كانا يكرهان بعضهما، أما عزمي فقد اهتم بالشيخ الجنزير، واستمع مع جبران وكل من في الصيوان إلى خطبته ومواعظه وأدعيته للمرحومة بدخول الجنة.

***

جبران

ما زلت أحتفظ ببعض ما قرأته وتعلمته في جامعة دمشق التي حصلت منها على درجة البكالوريوس في علم النفس سنة 1964. إضافة إلى ما قرأته في ميدان تخصصي، الذي لم يسعفني في إيجاد عمل لائق ينقذني من بؤس حياتي وأسرتي لسنوات في جبل الجوفة.

المحاولات المحمومة التي بذلها عدد من رفاقي السابقين، وبعض جيراني القدامى، والشيخ عبد الحميد الجنزير، لمعرفة مصدر الأموال التي نقلتني من مستنقع ذلك الحي في جبل الجوفة إلى بيتي الحالي، تؤكد أن الفضول صفة متأصلة في النفس البشرية رغم نفي الناس لوجودها عندهم.

في الليلة التي تزوج فيها رباح من سندس، جاء عزمي الى منزلي بلا موعد، كان في حوالي العشرين من عمره، رأيت في وجهه وعينيه أمراً يعذبه ويحد من إقباله على الحياة، فجفونه محمرة وهيئته توحي بالحزن والإرهاق. لم يكن عزمي الذي أعرفه.

استقبلته بحنان الخال المُحب، أجلسته إلى جانبي، هونتُ عليه موت أمه:

الحياة لا تتوقف عند موت أحد.

ثم ذكّرتُه بما يحدث في فلسطين من عمليات تقتيل لأطفال وشبان لا ذنب لهم إلا بقاؤهم في وطنهم ودفاعهم عنه، أما زواج أبيه فحق مشروع لا يملك الناس إنكاره.

ظل صامتاً كأنما يحمل هموم الدنيا كلها على ظهره.

تنبهت إلى جفاف شفتيه، فأحضرت له كوباً من العصير، وسألته ما إذا كان راغباً في تناول الطعام. شرب رشفة من العصير ثم قال إنه لا يريد إزعاج زوجتي رابعة.

أعرف أنه لم يكن يحبها، إذا لم أقل إنه كرهها منذ تلك الدعوة التي أقمتها لوالديه وهو في حوالي الثانية عشرة من عمره، بعد انتقالي الى بيتي الحالي بأشهر.

لقد أعاد الى ذاكرتي أحداث تلك الدعوة اليتيمة، وتذكرت كيف أن أبا عزمي الْتهم الطعام من دون استخدام الملعقة أو السكين أو الشوكة، وبطريقة أثارت حفيظة رابعه، فتحولت ابتساماتها الى نظرات ازدراء له، خصوصاً حين لمحَتْهُ وهو يأكل بشراهة من يعاني جوعاً مزمناً، وكانت تلك أول مرة يعرف خلالها أن هنالك وجبات تدعى «ستيك، كاستاليتا، مشروم، شيش طاووق..» عرفتُ هذا من أسئلته.

تلك الدعوة أدت إلى توتر العلاقة بين زوجتي وشقيقتي جليلة التي لم تعجبها نظرات رابعه وكلماتها القاسية، ففي أثناء لملمتها للصحون والأطباق الزجاجية الفارغة،التي فرض اصطكاكها العنيف ببعضها سكوتاً في أجواء غرفة الطعام، قالت «مع أنني أعددت طعاماً يكفي لخمسة عشر نفراً»، فتبادل أبو عزمي وزوجته نظرات حرجة من دون تعليق.

ما زاد من غضب شقيقتي التي يهمني رضاها، على الأقل في تلك الأيام الحاسمة من حياتي المادية، أن زوجتي لم تسمح لولدي وعد وابنتي ناتاشا بمشاركتنا تناول الطعام، لأن أبا عزمي يستخدم في أحاديثه ألفاظا «فلاحية» مقعرة، ورابعه أرادت تخليصهما من تلك الألفاظ وتمدينهما منذ اليوم الأول لارتحالنا إلى بيتنا الجديد.

أبو عزمي كان ينظر بانبهار إلى الأعمدة والعقود وثريات الكريستال

العتيقة الضخمة في صالة الطعام المفتوحة على الصالون الواسع. أما عزمي فقد حاول التنقل داخل البيت وغرفه، لكن رابعة ظلت ترقبه وترده إلى صالة الجلوس بطريقة من تمنع طائراً من التحليق في مساحة ممنوعة.

لم يرُق ذلك لجليلة فقالت لها «وهل نحن في فندق لتمنعيه من الحركة؟ دعيه يرى أولاد خاله.» فردت رابعة بسرعة وبنبرة مماحكة «ناموا مبكراً، على الأغلب أنهم خافوا أن يركبهم جني.» فالتقت عينا المرأتين، أطالتا النظر إلى بعضهما، ثم صمتتا، كأنما هما على اتفاق.

على الرغم من انتصاري للمرأة وقضاياها طيلة حياتي، إلا أنني أشعر بوجود مشكلة لديها، مشكلة التنافر السالب مع بنات جنسها ممن يطلق عليهن (زوجات الإخوة، السّلفات،أخوات الأزواج، الكنائن، الحموات..).

دهمني الحرج أمام جليلة ورابعة، وتحول وجودي في نهاية تلك الدعوة إلى مجرد ملطف للأجواء التي تكهربت، مع أنني لا أحب الملطفات التي يستخدمونها في البيوت وخارجها، وأشعر بأنها تنطوي على نوع من الغش والخديعة، لأنها تطغى على الروائح الكريهة أو المسمومة، وتجعل الناس يستنشقونها بمعية الملطفات ذات الروائح الزكية، فيصابون بالغثيان أو الأمراض.

توقفت عن دوري التلطيفي، وشعرت بنوع من انعدام الوزن عندما احتقنت جليلة رافضة الانتظار إلى حين تقديم الحلويات. وحين وقفَتْ وصمتَتْ ظننتُها وافقت على البقاء، لكن تبين أنها كانت تحضّر كلمات ملائمة كي ترد الصاع صاعين لزوجتي، إذ نظرتْ إلى رابعة قائلة بترفع «الغراب لا يصير أبيض حتى لو أقام في قصر أو استحم كل ساعة.»

ثم خرجت رافضة محاولتي توصيلها ومن معها بسيارتي.

حين شيعتهم إلى البوابة الخارجية، سمعت أبا عزمي يقول «ما في الدنيا أعطل من الجوعان إذا شبع» فأثنت جليلة على قوله.

تغاضيت. لكنني بعدها تذكرت أن الناس لا ينتبهون إلى أن الجوعى يرددون تلك العبارة أكثر من غيرهم!

من المؤكد أن جليلة بتثنيتها على ما قاله رباح كانت تعني زوجتي التي تنتمي إلى أسرة فقيرة، فجليلة ترى أن عائلتنا «آل أبو بصير» من العائلات الميسورة أبا عن جد، رغم عثرات الزمان التي حلت بأبي، بعد أن بدد أمواله في مشروع خاسر لاستيراد الأخشاب وشطفها وبيعها لتجار الجملة، ثم مات بالسكتة القلبية المفاجئة القاتلة.

أعرف أن رابعة ليست بسيطة، ولديها نظرة ثاقبة إلى الآخرين، ويمكنها التعرف إلى أساليب تفكيرهم وربما التنبؤ بمستقبلهم. لقد توقعَتْ قبل رحيلنا من جبل الجوفة، أن يتزوج أبو عزمي من امرأة ثانية، وقد صح هذا التوقع في ما بعد. قالت لي- قبل أيام من ذلك الرحيل - بأن سندس ابنة عدلي الطيب لا تملك مؤخرة تستقر عليها، لذا ستظل تتنقل بين الرجال.

لا أستطيع الجزم بأن توقعها هذا كان مصيباً، أم أنه ورد في سياق تنفيري من سندس التي نضج جسدها واكتمل جمالها، على الرغم من أنها لم تتجاوز السادسة عشرة من عمرها حينئذ. أما عزمي فقد هزت رأسها بأسى حين سألتها عنه، لكنها لم تفصح عن توقعاتها بشأنه. نفورها منه كان كافياً لتوقع مستقبل علاقتها به، ولكن ليس مستقبله هو.

حين تعرفتُ على رابعة في ندوة أدبية أقامتها المكتبة العامة لأمانة العاصمة قبل نكسة حزيران بعام واحد، انتبهتُ إلى امتلاكها مقدمات

ثقافية جيدة شجعتني على الزواج منها، لكن اهتماماتها الثقافية فترت بعد أعوام من زواجنا، وصارت تقلل من قدر السياسيين، وأحياناً تشاكسني بسبب انتماءاتي السياسية التي أدت الى دخولي السجن بداية السبعينات، ثم في بداية الثمانينات. كان السجن في تلك الأعوام مفخرة أمام الناس ومبعث خوف لهم في آن معاً، فهم يحترمون السجناء السياسيين، لكنهم لا يفضلون الاقتراب منهم أكثر من اللازم خشية من بطش الحكومات.

من حق رابعة أن تنعم بالمستوى المعيشي الذي حققته لها ولولديّ وعد وناتاشا بشكل سريع مفاجىء، لكن ليس من حقها ازدراء الآخرين، كما ليس من حقها نسيان تلك الأيام التي قضيناها في بيت صغير فقير في جبل الجوفة، قبل أن تنقلب أوضاعنا رأساً على عقب ونصبح من علية القوم مثلما يقولون.

تلك كانت سنوات إنهاك حقيقي عشناها بمرها ومرها،إذ ليس فيها ما يستحق كلمة حلوها، لكنها في كل الأحوال تظل جزءاً من تاريخنا الذي يقاوم النسيان، وإذا كنت قد فشلت في ردم أحداث تلك الأعوام وإقصائها من ذاكرتي، فلأن بعض الذكريات تبدو عبئا على الحاضر، بل تحاول إلقاء ظلالها عليه وتعكير صفوه، لذا لا بد لي من الإقرار بالإجهاد الذي سببه لي ذلك الصراع الخفي، بين ذكريات تستعصي على النسيان، وبين حاضر يعمل بدأب على محوها والتنصل منها.

***

رباح الوجيه

تزوجت سندس بسرعة. بعد أربعين يوماً على موت جليلة، لأن واحداً من أعمامي كان ينازع المرض، وخفت أن يقبض عزائيل روحه، فيخرّب عليّ فرحتي بعرسي الذي تم بلا زفة ولا طبل ولا زمر ولا دبكات، وبدون عزمي، لأنه طلع من البيت ولم يرجع إلا مع صياح الديك، ونام على السطح. على الأغلب أنه سمع صوت سندس وهي تضحك بصوت مثل رنّات النصال وهي تسقط وراء بعضها على بلاط الغرفة.

متّعتني سندس ليلتها، لكنها فضحتني بضحكاتها العالية. وتوقعتُ أن تخجل مني ليلة دُخلتي عليها، لكنها عملت العكس، خلعت فستانها وما تحته وظلت بشلحتها القصيرة الشفافة بدون سروال! وقفت قدام المرآه ومشطت شعرها وأنا أتفرج على بدنها وصدرها العامر، ولما دقّت النار في بدني، نطيت عن السرير وعبطتِها من الخلف وعصرت نهودها بيدي، فصارت تضحك وتقول لي «اخلع سروالك». فخلعته بسرعة وبطحتها على التخت..

يا الله يا الله ما أحلى ليلة دخلتي عليها، شعرت أنها مختلفة عن جليلة حتى وهي صبية. جليلة لم تكن حامية مثل سندس. سندس نار نار، مخلوقة للفراش، ولا تكتفي بمرة واحدة كل ليلة، كانت تريد أكثر، وتظل تلكزني وتتحرش بي وتمد يدها إلى عانتي وما تحتها وما فوقها، حتى إن بدني صار يرتخي وأتثاءب في النهار بسبب لياليها الحامية.

لكني لقيت نفسي في مصيدة أرضها العطشانة بعد مدة من زواجنا، لأن طاقتي على قدّي، ولم أقدر على مجاراة سندس التي

يلزمها رجل بقوة ألف حصان.

ظلت تتحرش بي، ولقيت أنه لا فائدة من تهربي منها، حاولت معها، لكني وجدت صعوبة مع مرور الأيام والليالي المحرجة، فعزّت عليّ نفسي، وشعرتُ بغدر الحياة، مع أني لم أتجاوز الثانية والخمسين من عمري وقتها. وكبر هذا الإحساس في رأسي، لأني تذكرت ما كنت أقوله لأصحابي قبل سنين. كنت أقول إن الرجل الذي تتوقف ماكينته عن العمل، يصير على حافة قبره.

وماكينتي صارت تشتغل بارتخاء، وأحياناً لا تشتغل، مع أن في بيتي حُرمة تثير الجن الأزرق، خصوصاً لمّا تلبس سروالها الساتان الأبيض القصير، أو شلحاتها الشفافة القصيرة القصيرة، بشباحاتها الرفيعة مثل الخيطان، تلبسها على اللحم، فأرى بدنها بقعة بقعة، خصوصاً حلمتيها اللتين تقفان فوق قرص بني غامق بحجم العشرة قروش القديمة الكبيرة.

ومع ذلك، لم أعد قادراً على القيام بواجبي الزوجي معها إلا في ما ندر. لعنة الله على الزمن وجَوْره على الرجال.

تردّت معنوياتي وصارت مثل الوحل، بسبب ظلم الحياة وقسوتها، وصرت أقضي ساعات طويلة في الشغل، في القهوة، في بيوت اصحابي، ثم صرت أذهب إلى الجامع الذي لم أدخله قبل زواجي من سندس.

تعودتُ على الذهاب إلى الجامع بعد أن كنت أطرد الشيوخ وأصحاب اللحى الطويلة والدشاديش القصيرة، كلما زاروني وحاولوا جرّي معهم إليه. كانت مشكلتهم معي، أنهم لم يفكروا أن أكثر ما ضايقني منهم، هو حاجتي إلى الراحة في بيتي بعد رجوعي من شغلي، أما كلامهم المكرر فلم يدخل دماغي أيامها.

***

سندس

قبـل وفـاة جليلـة، شـعرت بـأن زواج ربـاح منـي سيسـبب الأذى لتلك المرأة الهادئة، لكن، هكذا الحياة، وأنا أريد أن أعيش، والرجال يتزوجون أكثر من امرأة، ثم إنني اتخذت قراري، وهي ماتت بعد خطبة ربـاح لـي بيوميـن، وقبـل زواجنا بأربعين يوماً، فاختصرَت المعركة التي كان يمكن أن تنشب بيني وبينها.

كان لا بد لي من أن أفهم ما يفكر به هذا «العزمي»، الذي يشبه صندوقاً مغلقاً، فعمدتُ إلى التحرش به، وأحياناً مضايقته، عله ينضح ما في صدره، لكنه لم يستجب. كان أكثر تماسكاً مما تخيلت، وأحسست بأنه يضمر لي أمراً مؤجلاً.

لا أحب الأطفال، ولا تستهويني فكرة الأمومة، لكن رباح أخبرني أنه يتمنى لو أن الله يرزقه بولد. وحين قلت له إن لديه ولداً هو عزمي، قال «هذا اسمه ولد؟ هذا عنده جسم شاب وعقل ابن ستين سنة.»

أمي أيضاً، أصرت على أن ننجب طفلاً، وأقنعتني بأنه سيسـليني ويعوضني عمـا فاتنـي. فكـرتُ ووافقـتُ بلا حماسـة، لكنني لم أحمل على الرغم من مرور ثمانية أشهر على زواجنا، كما أن عود أبي عزمي انطوى بسـرعة، فخاب أملي به، خصوصا حين تراخى جسـمه، وصار يتمارض، وينهمك في سماع الأخبار، ويغيب عن الدار كثيراً.

اصطحبته إلى العيادات الصحية، ففوجئنا بأن نسـبة الكوليسـترول فـي دمـه عاليـة جـداً، كذلـك الدهـون التي بلغـت 710 على الرغم من

نحوله، ما يعني أنه على أبواب جلطة حسب طبيب القلب والشرايين.
أما طبيب الأمراض التناسلية، فقد انتحى بي بعيداً عن رباح، وسألني عن تفاصيل لا أظنها لازمة، كعدد مرات مضاجعة زوجي لي، ومدة كل مرة، وما إذا كنت أستمتع معه في الفراش..

أسرّ لي ذلك الطبيب «زوجك لا يستطيع الإنجاب، لكن وضعه الصحي الآن غير مناسب لإعلامه بذلك.» ثم سلمني تقريراً طبياً، بعد أن شرح لي أموراً فاجأتني. ضممتُ التقرير إلى نتائج التحاليل والفحوصات الأخرى في مغلف احتفظت به، وأحسست أن الأشياء في غير موضعها الصحيح، وأن شاربي أبي عزمي اللذين يوحيان بالفحولة، ليسا سوى فزاعتين تخفيان ضعفاً تكَشفَ لي بعد شهور من زواجنا، ذلك لأن قدراته المنهكة لم تسعفه في مواقعتي بنجاح لأكثر من مرة كل أسبوع أو أسبوعين، أيام الخميس فقط، كي يريح جسمه وينام حتى ضحى يوم الجمعة، حيث عطلته الأسبوعية.

لكن ضعفه ازداد، مما أتاح لي فرص إحراجه، وفرض سطوتي عليه، فالرجل تغير ولم يعد عنيداً مثلما كان، ونظراته صارت لينة مخذولة، خصوصاً بعد اعترافه لي ونحن في فراشنا، بأن الفضل في نجاح مهمته معي، إنما يعود لي أنا لا هو. غير أن أمراً جديداً طرأ عليه منذ أن شرح له الطبيب ما قد ينجم جراء ارتفاع الكوليسترول والدهون الثلاثية من مخاطر، فقد صار أكثر ميلاً إلى الهدوء والتبرم الصامت، وأقل عنادا للحياة، وصار يتهرب من تحرشاتي بجسمه، ورأيت في عينيه نظرات توحي بالوداع!

فكرت في أمر عزمي، قررت مد سلطاني اليه، لكن بطريقة مختلفة عن أبيه، لأنه مختلف عنه.

استخدمت ذلك الغطاء المشروع، العناية به.

رباح أوصاني بذلك عندما تزوجني، لكنه كان يقصد غير ما **فعلتُ.**

صرت أتحرك في الدار بملابس نومي الخفيفة، وحين طلب رباح مني ستر جسدي قلت له: أنت زوجي وهذا ابنك، أنت محلل لي وهو محرّم عليّ، ليس بيننا من هو غريب. فصَمَت.

ومع أن عزمي بلغ العشرين من عمره حينئذ، واكتملت ملامح رجولته، وصار يغيب عن الدار ساعات طويلة من دون أن أدري أين يذهب، إلا أنني قلت له ذات يوم: اعتبرني في مقام أمك، كل ما كنت تطلبه منها، اطلبهُ مني.

بعدها دخلتُ غرفته وفي يدي مقص الأظافر، وجدته جالساً على حافة سريره، جلست بجانبه وأمسكت يده قائلة: أظافرك طويلة.

قال «قصصتُها قبل عشرة أيام.»

وضعت يده على ركبتي وبدأت قصّ أظافره وبردها. تقبل الأمر بطريقة غامضة.

كانت ملامستي لأصابعه الشابة تمتعني وتعذبني، وقد اختلستُ النظر إلى تعابير وجهه أثناء انهماكي بأظافره، فوجدتها هادئة مسترخية. قلت في نفسي: بداية طيبة.

لكن يبدو أنه فكر بأمر أفسد عليّ استنتاجي واطمئناني إلى تلك البداية، فقد سحب أصابعه من بين يدي وخرج من الدار بسرعة، كأنه هرب مني.

تفتق ذهني عن طريقة أخرى للاقتراب منه، فقد لحقته ذات صباح إلى غرفته بعد استحمامه وارتدائه بيجامته، جلست بجسارة الأم إلى جانبه على حافة سريره، نظفت أذنيه من بقايا الماء والأوساخ بعيدان القطن فلم يعترض. عمدتُ إلى تدليكهما من الداخل بليونة، قرّبتُ وجهي من أذنه كي أرى ما فيها، فارتمى شعري على رقبته العضلية:

ملآنة بالوسخ.

قلت، ثم أدخلتُ في أذنه عوداً جديداً وأعدتُ تنظيفها وتدليكها، وجعلته يرى بعينيه ما تراكم على الطرف القطني للعود من أوساخ: لا أفهم كيف تسمع وكل هذه الأوساخ في أذنيك.

سقطت يدي على مكان حساس بين فخذيه فاصطدمت بجسم صلب. سحبتُ يدي بسرعة فالتقت عينانا. لم يقل شيئا، فبادرتُ: يجب أن تستحم كل صباح.

كل هذا تم أثناء غياب رباح في عمله.

لا أدري ما إذا كان عزمي قد أخضع عنايتي به إلى التحريم والتحليل، أم أنه اكتفى بالسكوت المتواطىء على ذلك النوع من العناية التي لم يحظ بها أبوه.

بالنسبة لي كانت الأمور واضحة ولم يختلط عليّ شيء.

لم يحاول إشعاري بفهمه ما أخفيته وراء عنايتي تلك. ربما لأنني كنت زوجة لأبيه حينئذ. غير أنه قال لي ذات يوم «أنت امرأة موهوبة إذا اعتبرنا الغواية موهبة.» فأجبت:

الله خلقني هكذا، والإنسان لا يفرّط بما وهبه الله.

أحسست أن لديه من الكوابح ما يزيد على اللازم. فقد صار يرفض بحزم كل محاولات اقترابي منه، حدث هذا فجأة، فخمنت أنه تغلب على نفسه، أو قرأ شيئاً يحرّمُ ملامستي له.

غيرتُ طريقتي.

صرت أسأله عن الكتب التي يقرؤها، وعن الأماكن التي يذهب اليها، ومن أين يأتي بمصاريفه طالما أن رباح لا يعطيه شيئاً، وطالما أنه لم يجد عملاً.. لكنه لم يكترث بي!

سؤال واحد أجابني عنه بعد أن وضع كتابه المفتوح على ركبته، فعندما قلت له: ما معنى كلمة سندس؟

تنهد وأجاب بنبرة من يريد الخلاص من مصدر تعطيل «كلمة فارسية، تعني نوعاً من الحرير» ثم عاد يقرأ، كأنما اختفيت من أمام ناظريه.

انتعشتُ قليلا، فتلك كانت المرة الأولى التي أبحث فيها عن معنى اسمي، على الرغم من أنني أكملت دراستي الثانوية، وقرأت بعضا من الكتب والمجلات التي كان أبي يحتفظ بها.

نظرت اليه، لم يعرني اهتماماً، تحرشت به: وما معنى اسم أمك المرحومة جليلة؟

فلم يلتفت إلي! من المؤكد أنه لم يعرف أن الإهمال يحيلني إلى امرأة مختلفة، ويوقد في نفسي نيراناً لا تنطفىء بسهولة.

وبّخته في اليوم التالي بحجة جلوسه تحت الدالية المعترشة في فناء الدار: هذا المكان مخصص لي ولأبيك.

قلتها بقسوة، فوضع الكتاب الذي في يده على الأرض، رمقني بنظرة توحي باستعداده لاستئصال تلك الدالية وتدمير البيت وهدمه عليّ وعلى من فيه! فصمتّ.

ضبطتُهُ ذات ظهيرة وهو واقف ببوابة الدار يفسر بعض الكلمات في كتاب مدرسي لطالبة نحيلة قصيرة من سكان الزقاق. اقتربتُ منه وطردتها، ثم أغلقتُ البوابة ووبخته. لم يقل شيئاً، ودخل غرفته فلحقته قائلة: من أي عجينة أنت؟

ثم صفعت ظهره بكف يدي! شيء ما دفعني الى صفع ظهره. كنت أرتدي قميص نوم أزرق يكشف ساقي، وعندما استدار نحوي ووقفنا أمام بعضنا وجها لوجه، استعرضني من أخمص قدمي حتى أعلى شعري، ففاجأته بكلمات ساخطة: هذي الدار ليست كرخانة لك وللساقطات.

ثم أكملت بنبرة انتبهت لاحقاً الى أنها كانت في غير محلها: يا

ثـور، إذا كان لا بـد مـن أن تفعـل هـذه الأمـور مـع البنـات، فافعلها مع امرأة عليها القيمة، لا مع بنت مفعوصة. وحياة أبوك إنها كانت قدامك مثل الدجاجة وإنت قدامها مثل الثور.

تبدلت نظراته واتخذ وجهه ملامح تدل على وجود إحساس لديه كبقيـة المخلوقـات، ولـم أدر حينهـا مـا الـذي كان ينوي فعله بي لو لم أسـمع طرقاً على البوابة، لكني شـعرت بأنه اتخذ قراراً ما.. ليت أمي لم تطرق بوابة دارنا في تلك اللحظة.

كان رباح يذهب الى عمله مبكراً، يرتدي بدلته البنية العتيقة وربطة عنقه الرفيعة، يعتمر حطته وعقاله بهدوء، يمشط شاربيه الكثيفين، يضع تحت إبطه ملفاً يحتوي أوراقاً وطوابع، ثم يخرج بعد أن يقول لي، بنبرة شخص نادم على أنه صحا من نومه وعاد إلى الحياة «بخاطرك».

لـم أدر مـا الـذي كان يجـول فـي خاطـره بعـد أن هزلـت فحولته وتكسرت رجولته أمامي. هل فكر بما يمكن أن يحدث معي بعد تركه لي وحيدة في البيت، مع عزمي الذي يفيض حيوية وعنفواناً وقوة رغم هدوئه؟

أمـور كثيـرة تبدلـت فـي ربـاح، فقد تخلى عن طريقته السـابقة في الحديـث بصـوت قـوي، وصـار ميـالاً الى الهدوء والسـلام. تخلى عن استخدام ذراعه النحيلة بقوة لتأكيد أقواله والتشديد عليها. لم يعد يرفع حاجبه الأيمن الذي يوحي بوجود نوايا ذكورية لديه. وتباعدت فترات مواقعاتنا، تباعدت كثيراً.

ماذا أفعل؟

قلت في نفسـي: عزمي صعب المراس، لكنه سـيتغير على الرغم من أنني زوجة أبيه.

فكرتُ وخططتُ، الى أن تأخر ذات يوم في نومه حتى الضحى،

ارتديت شلحة بيضاء شفافة وبدأت أكنس فناء الدار وأنا منحنية، رآني حين صحا فقال بصوت عال «لماذا لا تسترين بدنك؟»

أجبته وأنا أكمل عملي:

وهل في الدار رجال كي أخبىء جسدي عنهم؟

ثم رميت المكنسة وسرت نحو غرفته، قلت له:

تعال لترى ماذا وجدتُ في غرفتك.

لحقني الى الغرفة، شددته من أعلى كمه فور دخوله، فانفتح قميص بيجامته الخمرية ورأيت غابة من الشعر الأسود تغطي صدره، بينما تشممتُ تلك الرائحة التي لا تريد الزوال من البيت، رائحة زجاجة العطر المركب الغريب،التي أهدته إياها أمه يوم نجاحه في التوجيهي كما قال، وسقطتْ من يده قبل موتها لتظل رائحتها تُذكّرني بها، وربما لتُذكّرُه أيضاً.

أمسك يدي وأبعدها فقلت متحدية: أبوك لم يعد ينفعني.

وسمحت لشباح شلحتي بالانزلاق عن كتفي لينكشف جزء من نهدي الذي يستحق يدا رطبة حانية وقوية.

لكنه صاح بي، بنبرة رجولية خالصة «كنت أعرف أنك فاجرة، لكن ليس الى حد جرّي إلى ارتكاب المعاصي ومشاركتك في خيانة أبي.»

أطلقتُ ضحكة صاخبة وقلت:

أعد تلك الكلمة التي قلتها، ماذا قلت؟ فاجرة؟ أريد أن أسمعها من فمك مرة ثانية وعاشرة، قلها.

فاقترب مني وصفعني على مؤخرتي بيده القوية فضحكت، صفعني ثانية، وعندما استمررت في استعذاب الأمر، ظل واقفا في مكانه كالتمثال، ورأيت في عينيه عذاباً وتردداً. اقتربت منه، تحسست شعر صدره فلم يتحرك أو يعترض، تجرأت وأنزلت يدي إلى الأسفل

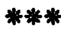
فأصابتني رعشة، ظل صامتاً وبدت على وجهه ملامح انقباض من شيء لم أفهمه، صحتُ به:

ألا تحسن تحريك يديك واستخدامهما؟ من تظن نفسك؟ لستَ سيدنا يوسف.

فأمسكني من ذراعي وألقى بي على السرير بقوة، ثم حمل قميصاً وبنطالاً، وخرج متوجهاً نحو المطبخ كي يرتدي ملابسه، وسمعته وهو يلعن حواء وكل جنسها.

تلك كانت المرة الأولى التي أذلني فيها، ليس لأنه صفعني، إنما لأنه لم يستجب لفتنتي واشتعال الرغبة في جسدي. فعلاً لقد أذلني. وصار بعدها يتحدث إلي بنبرة الأمر التي لا يجرؤ رباح على استخدامها، ووجدتُني راضخة له بنفس راضية.

كان عزمي يمتلك سره الخاص الذي يحول دون كرهه، وأحسست بأنه يريد الهرب من محاولات إغوائي له. أما أنا فقد راقت لي لعبة الرضوخ لأوامره، ووجع صفعاته الحامية، وما سيجود به جسده القوي في قادم الأيام.



جبران

الفضول شيمة لازمت الإنسان منذ نشوئه على هذه الأرض، أنا مضطر لتكرار هذا القول، فالناس الذين عرفتهم بمن فيهم رفاقي السابقون، يريدون معرفة أمرين: الوقائع، أو التحولات الحادة التي حصلت مع ابن شقيقتي عزمي الوجيه. وسبب انتقالي من بؤس جبل الجوفة، إلى جبل عمان الذي كان واحداً من الأحياء الأرستقراطية في البلاد. يريدون معرفة كل شيء، حتى أن بعضهم ربطوا بفجاجة بين رحيلي، وبين احتلال الإسرائيليين لمدينة بيروت في ذلك الحين، وقد بلغني أنهم أطلقوا شائعة مفادها، أنني كنت واحداً ممن أسهموا في تزويد المقاتلين في بيروت بالغذاء أثناء حصارها، لقاء مبالغ طائلة. وقد عزوا تلك الشائعة بغياباتي التي تكررت عن بيتي قبل رحيلي.

غالبية أولئك الناس ظلوا يعتقدون حتى وقت قريب، بأن جبل عمان مكان أرستقراطي، مع أنه هرمَ واكتهل، ولم يعد من المناطق المترفة بعد أن ظهرت في العاصمة أحياء جديدة راقية، مثل عبدون والصويفية والرابية وسواها من الأماكن التي يمارس الناس فيها انفتاحاً اجتماعياً مدعماً بالثراء الفاحش. بوسع من يتجول في تلك الأحياء أن يرى الفلل والقصور ومحلات ووكالات بيع الملابس والأطعمة والعطور والأجهزة ذات الماركات العالمية المعروفة، وغالبيتها رافقت موجة العولمة والانتشار السريع للشركات متعددة الجنسية. بوسعه أيضا رؤية رواد محلات الكوفي شوب التي تكاثرت بسرعات قياسية، كذلك

المطاعم الراقية والمقاهي الكثيفة حيث يجلس الشبان من كلا الجنسين، ويدخنون الشيشـة التي تحولت إلى ما يشـبه التقليد اليومي لهم. هذا فضلاً عن أن كثيراً من الفتيات في تلك المناطق يستطعن السير بحرية في شوارعها بتنانيرهن القصيرة وبناطيل اللوويست الساحلة، و شورتات البيكو التي لا تختلف عن المايوه البحري إلا من حيث وجود فتحتين للساقين بطول فتر أو شبر أسفل مفصل الحياة في الجسد.

أما المناطق الخاصة الخضراء، كدابوق وحي الكرسـي وغيرهما مـن الأحيـاء الواعـدة المتوعـدة التي ظهرت في السـنوات الأخيرة، فقد تسرب إليها وتملكها كثيرون من الوزراء والمسؤولين رفيعي المستوى، إضافـة إلـى الفئـة الخاصـة من الأثرياء ورجال الأعمال وأسـرهم، وهي أحيـاء تتميـز عـن غيرهـا مـن حيث الوقع الصامت الحـذر للحياة فيها، وتكَتّم سـكانها على أعمالهم وأسـرارهم، وإخفاؤهم مظاهر البذخ، إذا اسـتثنينا ما تكشـفه ضرورات المظاهر الخارجية لفللهم وقصورهم من ترف يفوق التصور.

جبل عمان أصبح الآن مكاناً هادئاً وقوراً وخاوياً في بعض بقاعه، يمكن ملاحظة السـكينة في شـارع بيتنا عند رؤية المُسـنات والمسـنين، أثناء ممارستهم تقاليدهم الصباحية اليومية المعروفة: شراء الصحف من البقالة، السير ببطء في الشارع المحاط بالأشجار العتيقة المعمرة، النظر بشيء من الغربة إلى الأسوار الحجرية وإلى المارة من غير سكان الشارع على قلتهم، الذهاب إلى البريد لتفقد صناديقهم علهم يجدون رسـائل الأصدقـاء القدامـى، أو الأبنـاء الذيـن هاجروا أو سـافروا إلى أمريكا أو أوروبا أو بلدان الخليج أو غيرها، وتركوهم وحيدين في تلك البيوت الواسعة التي كانت فيما مضى من العقود تزخر بالحياة.

شـارع البريد الذي أسـكن فيه لم يعد يوحي بالحياة هذه الأيام،

بقدر ما يوحي بالرتابة، ومما عمق هذه الرتابة في منزلنا، أن ابننا، وعد، سافر إلى أمريكا ليتم دراساته العليا ويحصل على الدكتوراة في هندسة الاتصالات وظل هناك، أما ناتاشا فقد تزوجت وسافرت مع زوجها للعيش والعمل في كندا، وبقينا وحيدين في المنزل، رابعة وأنا. والحقيقة أنني أحسست بالخلاص من عبء وجودهما في البيت معنا، فأنا لا أستطيع خداع نفسي، إذ على الرغم من تفهّمي لرغباتهما واختلافهما عن جيلي، كذلك ما قدمته لهما من رعاية تعليمية خاصة، ومستوى معيشي متقدم، ودعم مالي لم يحظ به مجايلوهما، إلا أنهما صارا يضيقان بي وبأمهما بعد أن كبرا، ويفسران كل كلمة نقولها على أنها تدخل في شؤونهما، بما في ذلك محاولاتنا للاطمئنان عليهما كلما تأخر أحدهما عن العودة الى البيت. عجبت لأمرهما، لأن الحنان لم يعد مبعث فرح أو ارتياح لديهما، خصوصاً وعد، الأسمر الطويل صاحب المزاج الظهيري. أما المسايرة والملاطفة وإعطاؤهما كل ما يطلبان بلا جدال، فقد أحسست أنهما لا يجدان فيها أكثر من أجزاء يسيرة من حقوقهما علينا، حتى إنني توصلت إلى أن وجودنا لم يعد لازماً لهما، وفي أعماق نفسي لم أستطع اقتلاع ذلك التفسير الذي ترسخ فيها، وهو الإزاحة. يريدان إزاحتنا من طريقهما! سألت عدداً من أصدقائي عن أبنائهم، فتبين لي أن علاقاتهم بهم لا تختلف كثيراً عما توصلت إليه، حتى أنهم وجدوا في كلمة الإزاحة تجسيدا لما لم يتمكنوا من التعبير عنه في غمرة انهماكهم بمشاكلهم مع أولئك الأبناء.

على كل حال، فقد سافرا وارتحت، لكنني ورابعة بقينا على اتصال معهما، وازداد شوقنا اليهما. لا أدري ما إذا كانا مثلنا، يشتاقان.

ما يعنيني هنا هو عزمي ابن شقيقتي جليلة. لكن، لأن حكايته لم تتكشف لي دفعة واحدة، إنما بالتقسيط غير المريح، فسأتسلسل بوقائعها حسب تتابع انكشافها لي، لا حسب تواريخ حدوثها، لأنني

بالكاد أستطيع لملمة خيوطها.

يحدث أن تمارس الحياة لعبتها مع البعض بطريقة لا تنم عن حكمة أو وعي، فتتنافر مساراتها أو تتشابك، ثم يأتيك من يقول، بأن لعبة الحياة صُممت على هذا النحو. مع أن الأمر ليس كذلك، فحياة الإنسان لا تصمم على نحو معين، إنما هو الذي يسهم في رسم مساربها بوعي منه أو من دون وعي.

حين زارني عزمي ليلة زواج أبيه من سندس، كان راغباً بالنوم في بيتي كي يفسح المجال لأبيه وعروسه، وقد رحبت به وقدّرتُ له تفهّمه متطلبات دخول أبيه على زوجته الجديدة، وحين توجهتُ إلى غرفة نومنا، وجدت رابعة جالسة على السرير وعلى وجهها ملامح التبرم. قالت لي بأنها لا تريد أن ينام عزمي في بيتنا. سألتها باستياء عما إذا كانت قد تنصتت على حديثنا، فأجابت «المسألة لا تحتاج إلى ذكاء أو تنصت، توقعتُ أن يأتي الليلة عندنا لأن والده سيتزوج.» كان صوتها مسموعاً، تعمدتْ أن تتحدث بصوت عال، على الرغم من أنني كنت أعض على شفتي وأطالبها بأن تخفض صوتها، ويبدو أن عزمي سمع بعض ما دار بيننا من جدل ازدادت حدته، لذا وقف- حين عدتُ إلى الصالون حيث كان يجلس - وقال لي «أنا خارج، صدقني أنني أحبك، وأعرف بأننا سنلتقي في وقت قريب، لكن لم تعد لدي رغبة في النوم هنا.» وقد شدد على عبارة «سنلتقي في وقت قريب.»

حاولت إبقاءه على الرغم مما قد يترتب على ذلك من مشكلات بيني وبين رابعة، إلا أنه غادر البيت بهدوء، ومن دون أن يبدو عليه الانفعال أو الغضب.

احتدم الجدال بيني وبين رابعة، غضبتُ ووصفت عواطفها بالمجففة، وقلت إن الإنسان الذي بداخلها قد أصيب بالعطب، لكنها لم تكترث، وأنهت حديثنا بقولها «لا أريد أن ينام في بيتنا، لدي أسبابي.»

ما قاله الرجال الذين حضروا من جبل الجوفة إلى صيوان العزاء بوفاة شقيقتي، من أن سندس ابنة عدلي الطيب أغاظت جليلة عند اقترانها بأبي عزمي، فأدت الى موتها كمداً. هذا الكلام ليس أكثر من ثرثرات غير مبنية على قطرة من المنطق، ولو أخذنا بها لجاز لنا أن نتهم الحكومات ومعها الرأسمالية الوطنية وغير الوطنية بقتل أعداد غفيرة من الكادحين الذين يموتون كمداً من حين لآخر، بسبب الجوع وموجات الغلاء والاحتقانات وغير ذلك من الأسباب التي تخلق الكمد.

عزمي أيضاً لم يأخذ بتلك الأقوال، وتجاهلها بعد اطلاعه على حيثيات موتها. فشقيقتي جليلة، ببساطة، ماتت عن عمر يناهز الخامسة والأربعين، بسبب استنشاقها كميات كبيرة من السموم التي تراكمت في رئتيها واختلطت بدمها على مدى شهور، حسب تقديرات أطباء التشريح في مستشفى الجامعة الأردنية، على الأغلب أن مصدر تلك السموم هو المبيدات التي كانت تستخدمها بكثافة لمكافحة الحشرات والقوارض في بيتها.

أما محاولات بعض المعزين من جيراني السابقين لتحريضي وعزمي ضد رباح، فلا معنى لها، إذ على الرغم من أنني لا أحب رباح الذي ظل يركض وراء المطلقات في المحاكم حتى ظفر بسندس ابنة الرجل المتسامح عدلي الطيب، إلا أن من حقه الزواج وقطف ما تطاله يداه من ثمار هذه الحياة قبل فوات الأوان، كما من حق سندس أن تتزوجه طالما لم توفق في زواجها الأول الذي لم يتم، بصرف النظر عما عرفته عنها في ما بعد، خصوصاً علاقتها غير العادية مع عزمي، وملابسات علاقتها مع الشيخ الجنزير.

***

الشيخ عبد الحميد الجنزير

انضـم عزمـي إلـى تلاميـذي وثابر على حضور دروسـي مع رهط من الشبان الخاشعين، أولئك الذين يأتونني بعد آذان العشاء مساء كل خميس. كنت أعرف أن بعضهم لا يملكون ثمن طعامهم، وقد التحقوا بدروسي بسبب معوناتي التي أقدمها لهم من وقت لآخر، لكن لا بأس، فالله كفيل ببث نور الإيمان في قلوبهم، وهو ما حدث فيما بعد.

عزمـي اختلـف عنهـم، فقربتـه منـي وصار يزورني مرة كل يومين، يجلس وإياي ويتعلم ويحفظ بسرعة. كان يمتلك ذاكرة لم أجدها عند من عرفتهم، لكنني أيقنت فيما بعد، بأن أكثر ما يريد تعلمه هو طباعي، وطرائقي في اختراق حصون الرجال، واستخراج قيح الوقار والاعتداد مـن أنفسـهم. يريـد أيضـا، معرفة طريقتي فـي قراءة الآخرين ومعرفة ما تخفيه أقنعة وجوههم. ومع يقيني بأن مثل هذه الأمور هبة من الله تعالى، لا يكتسـبها المخلوق عن طريق التعلم، إلا أنني استشـففتُ من أقواله وأسـئلته ونظراته، ما يشـير إلى امتلاكه بعضاً من هذه الموهبة التي لا ينقصها إلا بعض الدربة والصقل والزمن.

أسميته «رمح الله» بعد عام من انضمامه إلى تلاميذي.

مثل هذه التسميات تمنح صاحبها ثقة بنفسه وتصميماً على إثبات اسـتحقاقه لهـا أمـام مـن أطلقهـا عليـه وأمام الآخرين. سـبق أن جربتها وأثمـرت. والصحيـح أنـه كالرمـح قولاً وفعـلاً وقواماً وتصميماً. ثم إنه لا يهـاب شـيئاً. رأيـتُ هـذا بعينـي بعـد انتهاء أحد الدروس، فقد حاول

أحد التلاميذ، أبو محمود الخلف، نزع هالة تماسُكِهِ ومنزلته المتميزة، وقام بممازحته واصفاً إياه بابن الجنية. أهمله عزمي ولم يعلق، فعاد يسأله باستهزاء عما إذا كان الجني سيزور زوجة أبيه. نظر عزمي إليّ بينما تمكن أبو محمود من جر عدد من التلاميذ لمشاركته الضحك. لم أتدخل. أردت امتحان صبره ومعرفة قدرته على حماية منزلته. لكن أبا محمود أراد بسط هيمنته عليه والعلم عند الله، فرمى سبحته نحوه وأصابت وجهه، فمسحه بيده وهو متربع على أرض الحجرة، فخاطبه أبو محمود بسخرية «أنا إنسيّ، والإنس غلاب على سلالة الجن.»

ظل عزمي صامتاً ومتربعاً في مكانه على أرض الغرفة مثل طود متماسك. تقاطيع وجهه ونظراته إلى أبي محمود، أوحت بالبأس والقوة المنضبطة الساكنة في باطنه. لم يرف له جفن، ولم تحمل ملامحه أي إشارة ضعف أو هوان، على العكس من ذلك، كان بتماسكه وصلابة نظراته، يثير في النفس إحساساً بامتلاكه قوة هائلة لا يريد استخدامها مع ذلك السفيه الذي خالط صوته بعض الانثناء، ثم بدا عليه الارتباك والخلط بين الكلمات، فصمت التلاميذ الذين كانوا يضحكون، اعتلت وجوههم تعابير الجد، ثم انقلبوا على أبي محمود، وبدأوا بتقريعه بسبب تطاوله، ومراضاة عزمي، ربما بسبب تخوفهم من نفاد صبره، ثم إنهم أرغموا المهزوم على طلب السماح من عزمي، فتعززت هيبته منذ ذلك الحين، وإن كان ما جرى لم يرُق لبكر الطايل الذي حاول تأليبي على عزمي.

هذا الكلام غير معهود في جلساتنا، ولا أدري ما الذي جرى لأبي محمود في ذلك اليوم ليرتكب سفاهته تلك.

يحدث أن يحاول بعض التلاميذ تحقيق تميزهم عن طريق الخشوع، أو التزام آداب الجلسات، أو بز سواهم في مناقشة الدروس وغيرها، أو إبراز قدراتهم على الحفظ واستنباط المعاني. لكن لم يحدث أن لجأ أحدهم إلى الحط من قدر أخيه مستغلاً فسحة الاستراحة. أبو

محمـود يسـتحق مـا جـرى لـه، وهو علـى أي حال لم يرجع بعدها إلى دروسي إلا مرة واحدة، تجنب خلالها الاقتراب من عزمي.

كنت راغبا في إقصائه، فقام عزمي بذلك من دون أن أطلب منه، ومن دون أن يستخدم لسانه أو يده.

قلت في نفسي: يستحق لقب رمح الله.

لما اصطحبناه معنا في رحلة وفاء واستذكار لشهداء معركة مؤتة قرب مدينة الكرك، رأيته قبيل مغيب الشمس واقفاً منعزلاً أمام رجم من الحجارة وهو في حالة إصغاء ووجد. وقبل أن نعود قال لي «تكبيرات المجاهدين وصليل سيوفهم تناهت إلى مسمعي، وأزمان المجد شهقت فأرعشت روحي.»

يحدث هذا.

أمـا يـوم ذهبنـا الـى وادي اليرموك، الذي دارت على ضفاف نهره المبارك رحى معركتنا المظفرة ضد الروم، فقد أعرض عن الوقوف على الحافـة المرتفعـة للـوادي كالتلاميذ الآخريـن، واكتفى بالجلوس وحيداً تحت شجرة بلوط ضخمة مطلة على بحيرة طبريا. سألته عما به فقال إنه يصيخ السمع عله يسمع شيئا من ضجيج أيام عاشها في زمن آخر.

لا أسـتطيع الآن وصـف تلـك النظـرات التـي تبادلتهـا وإياه، لكن يمكنني القول انها نظرات رجلين فِهم كل منهما الآخر.

سألني عن السبب الذي حدا بعمر بن الخطاب رضي الله عنه، إلى عزل خالد بن الوليد عن قيادة جيش المسلمين في المعركة، وتسليمها لأبي عبيدة عامر بن الجراح؟ ولما ذكّرتُهُ بأن خليفة رسول الله كان يملك فراسة معروفة مثبتة، وأنه أدرى بمصلحة المحاربين، عاد يسأل «فلماذا قال ابن الوليد، أنا لا أقاتل من أجل عمر،إنما من أجل رب عمر؟»

قلت له: لا تأخذ بما يصدر عن الفاسقين من أقوال وأمثال، فسيف

الله المسلول هو صحابي جليل، أطاع بسرور ورضا أوامر الخليفة عمر، حتى أنه أوصى عند وفاته بجواده وسيفه له.

فأجابني بنبرة يقين «لكنه تراءى لي وسمعته بأذني. ثم رأيته وهو يركض منحدراً وراء قلنسوته التي تدحرجت نحو بطن الوادي.»

حينئذ هبطت في قلبي فكرة غريبة، فهو يبدو في حالة اتصال غامض مع ماض لم يعشه أو يراه. قلت في نفسي: أتراه يرمي غلالات خادعة على وجهه وأقواله، أم أنه يحس بأن روحه تنتشر عبر الأزمان؟

أمر آخر لم أجده مألوفاً ولا مأنوساً فيمن عرفت من الخلق، فأنا لم أسمع من قبل، أن أحداً يستطيع تذكر ما حدث معه خلال الشهور الأولى من ولادته، باستثناء عزمي الذي قال لي «الحياة خشنة. لم أشعر بنعومتها إلا في الأشهر الأولى من ولادتي، حين كنت أقتات على لبن الرضاعة الذي أبقى سقوف فمي وحلقي ولساني وحنجرتي ملساء ناعمة. خشونة الحياة بدأت عندما صارت أمي تدس الطعام في فمي.»

ولما سألته: كيف استطعت تذكر أحداث تلك الأيام المبكرة من حياتك؟

أجهَدَ عقلي بقوله «أكثر الأوقات هلعاً في حياتي كانت أيضاً في الأشهر الأولى من عمري. فكلما حملتني أمي أو أبي أو سواهما، أحسست أن المسافة بين كتف من يحملني وبين الأرض عالية جدا، فأخاف وأبكي حتى يعيدوني الى الأرض حيث الأمان والاطمئنان.»

عندها تذكرت رحلتنا الى وادي اليرموك، وفهمت سر امتناعه عن الوقوف على الحافة العالية لذلك الوادي!

قبل أن أسلمه مهمة إدارة «مركز ابن الحارث الحافي لتحفيظ

القرآن»، الذي أسستُه قبلها بسنوات في منطقة «ماركا»، على بعد ثلاثمائة متر من سياج مطار عمان القديم، حدث أمر قلل من صفاء إخلاصه لي، فقد وجد في حجرتي سندس، التي تزوجها أبوه بعد وفاة أمه. على الأغلب أنه رصدها عند مجيئها كي أداويها من آلام ظهرها. لكن ما رآه في ذلك الضحى، كان له أثر على حياته وعلاقته بي في لاحق الأيام.

مهما يكن، فالإنسان لا يستطيع التنكر لما خلقه الله فيه، وسندس تقيم أود الجسم وتزيد.

عندما رأيت بدنها في حجرة المداواة في داري، حسبتها شيطاناً تراءى لي في صورة امرأة فاتنة، استعذت بالله من الشيطان الرجيم وقرأت المعوّذتين، لكنها ظلت واقفة أمامي، بتمام حسنها وكمال بدنها الذي تحسستُه كي أتحقق من أنها إنسية لا جنية، امرأة لا شيطاناً.

لما بحثَتْ أصابعي عن مكان الوجع في ظهرها، بدت عليها أمارات الخنوع، فحسبتُها حرثاً ميسوراً، ولولا مخافة ربي واستعاذاتي به من الشيطان في قلبي طيلة وجودها عندي، لاستجبت لنداء بدنها ووطئتُها وفعلت بها ما أفعل بزوجتي، أم صهيب، التي زرتها في دارها ووطئتها قبل أسبوع من مجيء سندس.

هو نداء شيطان البدن الذي لا بد من مغالبته وإسكاته، ولكن بالحلال.

كان بيّناً أنها امرأة غير مروية، وأن رباح الذي تزوجها بعد موت زوجته الأولى جليلة، رحمها الله وأحسن إليها، لم يُشفِ وهدة بدنها من أدران رغائبها المحشورة، ولم يفِها حقها من الجماع وخلافه. قد يجازيه الله يوم القيامة بسبب تقصيره معها.

قبل سندس وبعدها، داويت - عدا الرجال - نساء كثيرات يأتين من أحياء عمان وسواها بسياراتهن وعباءاتهن ونظاراتهن السوداء

العريضة التي تكاد تخفي وجوههن. بعضهن يمتلكن حصانات تحول دون عثوري على مفاتيح أرواحهن وأبدانهن، أخريات تتفتت مقاوماتهن منذ لحظات اقترابي منهن وملامسة أنفاسي لأعناقهن عند بدء المداواة، لكنني لم أر امرأة بمثل غواية سندس التي، لو لم يغضب عزمي يوم ضبطها في داري، لأقنعتُها بالتخلي عن أبيه كي أتزوجها، وهذا حق لا غضاضة في فعله صوناً لها من ارتكاب المعاصي، وجلِيّ أن زوجها لم يفلح في مقارعة شيطان بدنها الذي قد يقتادها إلى مهالك الإثم، ولا حل إلا بتزويجها من رجل قادر على مغالبة ذلك الشيطان وقهره.

لما رآها عزمي في داري غضب كثيراً، واقتادها الى بيت أبيه، ثم عاد ليقول لي بنبرة لم تعجبني «أنا أعذرها، أما أنت..»

أقلقتني عبارته، فقررتُ إرضاءه بصرفه من عمله في استقصاء الأسر الفقيرة في عدد من أحياء عمان ومخيماتها، وتسليمه إدارة «مركز ابن الحارث الحافي لتحفيظ القرآن»، لقاء أجر شهري قدره مائتا دينار.

ومع أن هذه الوظيفة كانت موضع تنافس بين الكثيرين ممن يتمنونها، فإن عزمي تقبلها في البداية على مضض، وطلب إمهاله ثلاثة أشهر كي يُتم ما بدأه في تلك الأماكن الفقيرة!

لم أستغرب تردده، فعلى الرغم من أنه لم يتجاوز عامه الواحد والعشرين حينئذ، فإنه لم يتجرع محاولة إرضائي له بسهولة، بل أحسستُ أن ما يجول في خاطره أكبر بكثير مما عرضته عليه.

قلت له: فرصة استلام إدارة لمركز قد تذهب لغيرك إذا لم تباشر الآن.

فرد ببرود «ليس مهماً».

ثم تلفت إليّ، فرأيت في عينيه ما يشير إلى وقوفه على سبب

منحي تلك الفرصة له، واستهانته بها في الوقت ذاته. قلت: لا بأس، سننتظرك ثلاثة أشهر.

لكنني انتبهت بعدها إلى أنه انتزع مني تازلاً سريعا.

كنت قد أوكلت لعزمي مهمات خيرية، عن طريق جمعية الوفاء الخيرية التي أسستها بمساعدة عدد من المحسنين وأهل التقوى من داخل البلاد وخارجها. وهي الاستقصاء عن الأسر المحتاجة في بعض الأحياء الفقيرة والمخيمات، بموجب استمارات خاصة، من أجل تقديم العون لتلك الأسر. وقد تبين لي بعد فترة من عمله في تلك الأماكن، أنه يعرف ما الذي يفعله ومع من يتعامل، حتى إنه قال لي حين سألته عن الناس في الأحياء التي يستقصيها «كثيرون من الرجال هناك تحولوا إلى أسُود.» فقلت: هذا مؤسف ومقلق، أيمكن أن تضطرهم الحياة إلى الجلوس في بيوتهم ومقاهيهم فيما تعمل نساؤهم كاللبؤات ليُحصّلن قوت أبنائهم؟

فهز رأسه موافقاً بأسى، ثم هطلت كلماته التي نطقها بألم عن أولئك المساكين وأبناء السبيل، قال:

«الناس في تلك الأماكن بلغوا حداً من العوز تهون دونه الحياة، ومع ذلك حافظ الكثيرون منهم على عزة أنفسهم. لكن هذه نصف الحقيقة. النصف الآخر أن بعضهم يريق ماء وجهه من أجل الحصول على أية معونة من أي كان. بعض النسوة يجبن عن أسئلتي من وراء الأبواب المشقوقة بحلوق جافة مخنوقة. أخريات يفتحن لي بوابات دورهن وهن بملابس النوم المهترئة. أطلب منهن ستر أجسادهن فلا يكترثن، يجلسن معي بوجود واحد أو أكثر من أفراد أسرهن، ويزودنني بما أطلب من معلومات علهن يظفرن بالمعونات. بعض الرجال نصبوا لي فخاخاً للإيقاع بي وإرغامي على التوصية لهم بمعونات شهرية. حتى

ان فتاة حسنة المظهر، تقطن في منطقة وادي النصر، اسمها فاتن عبد الكريم الريشة، تخلصَت من والدها المسن بأن طلبت منه الذهاب إلى سوق الخضار، وحين خرج أقفلت البوابة الخارجية بالمفتاح ووضعته في جيب فستانها، ثم خيّرتني بين مساعدتها، وبين قيامها بالصراخ ولملمة جيرانها بدعوى اعتدائي عليها! لكن ملامحها الرقيقة وعينيها شديدتي الخضرة وحواجبها اللينة لم تؤكد جدية تهديدها ولا تَلَوّث سريرتها. تفهمتُ حاجتها بسرعة. طلبت منها الهدوء والجلوس كي ترى ما سأكتب فجلسَتْ. سألتُها عن قيمة المعونة التي تتوقعها فقالت «أربعون ديناراً كل شهر». كتبت في خانة التوصية سبعون ديناراً. فبدا على وجهها مزيج من الفرح والحزن، ثم حدرت دموعها، ووضعت حرف كفها على حاجبيها مشيحة بوجهها عني، ثم صاحت بوالدها الذي تبين أنه لم يذهب إلى السوق، إنما وقف وراء البوابة انتظاراً لما سيحدث، ثم فتحها بمفتاح آخر ودخل، ففوجيء بدموع ابنته فاتن ذات الثمانية عشر عاماً، وحين رأى قيمة المعونة في الاستمارة ضرب الحائط بكف يده تأثراً، فانفرط كتف بدلته الضيقة، ثم اقتادني إلى مطبخ بيتهم حيث لا شيء سوى طناجر صغيرة من التوتياء والألومنيوم المثني، وصحون فارغة على منضدة خشبية عتيقة، وثلاجة صدئة خاوية، وأرغفة خبز في كيس معلق على مسمار في الجدار. لا شيء أبداً!»

هنا لان صوت عزمي واختلط بنبرة حزن جلية. العلم عند الله أنه كان يتحدث عن روح تلك المخلوقة لا عن بدنها، وهي المرة الأولى التي يرق فيها إلى ذلك الحد، قال «لما هممت بالخروج، كانت فاتن لا تزال تبكي، بينما احمرت عينا والدها وأقسم أن نشرب الشاي معاً. نظرت ابنته إلي بعينين تفيضان ندماً واعتذاراً من دون أن تنطق. تلك الفتاة آية في الجمال، لكنه جمال مُهان. أهانته الحياة ونكلت بصاحبته التي لم تبد مهزومة أمامي إنما حزينة، وبين الحزن والهزيمة

مسافات. لكن تدقيقي في فستانها الليلكي الطويل، الذي يوحي بالذوق الرفيع،أوصلني إلى أنه ملظوم في أكثر من مكان، وخاضع لتصليحات تخفي بعض أطرافه. ما أتفه التدقيق. لقد رأيت في عينيها حنيناً متكسراً للفرح، فأحسست بفداحة الظلم الذي تمارسه الحياة على أبنائها.»

قلت له بعد أن أتم حديثه: لم لا تتزوج تلك الفتاة، فأنت رجل بالغ ناضج لا ينقصك شيء.

فردّ من دون أن ينظر إلي «أتمنى لو أنام بين كفي فاتن، تلك النقية البريئة الطاهرة، لكن الزواج ليس في واردي.»

ثم صمت هنيهة وسألني «أنت متزوج، لكن لا يبدو عليك ذلك».

قلت:

وهل يجب أن يضع المتزوج علامة على وجهه كي يعرفه الخلق؟

قال «لكنك تعيش في دارك هذه وحيداً من دون زوجتيك ولا أبنائك!؟»

قلت: أزورهم كلما لزم الأمر، فلديّ واجبي تجاه ديني وتلاميذي وعملي.

فنظر إلي بعينين مشكّكتين أعادتاني إلى تلك النظرات التي كنت أراها في عيون زوجتيّ الأخيرتين. فبعد أن طلقت زوجتي الأولى، صفية، بسبب رائحة فمها الكريهة التي لم تنفع معها كل خلاصات روح الموز والتفاح والسفرجل المجفف المغلي، بقيت بلا زوجة مدة أربع سنوات. وعندما أراد الله سبحانه وتعالى، تزوجت من الثانية، عفاف، وهي امرأة محتشمة ثُكِلتْ ببعلها الذي مات غرقاً في خليج العقبة، بعد أن غرّرت به المياه واستدرجته إلى مكان عميق، فلم يتمكن من العوم لأنه لم يتقن السباحة كما ينبغي. لكنها ظلت تعيش معه رغم زواجي

منها، وكانت تستقبل نكاحي لها بحزن لا يليق برجل مثلي تزوجها وآواها مع ولديها اللذين أنجبَتهُما من زوجها المتوفى. سخّرتُ كل ما وهبني الله من قدرات تلين الحديد، لكنها تحجرت ولم تمكنّي من بدنها مثلما ابتغيت، وصرت أشعر أنها تختلق الأعذار النسوية كي تتجنب إتياني لها. وتنظر إلي ببعض التشكيك الذي لم أفهم سببه، وظلت تعيش مع زوجها المتوفى، كأنما لا تريد الاعتراف بقضاء الله وقدره. هجرتُها، لكنني أبقيتها على ذمتي برا بها وبولديها، واستأجرت لهم بيتاً في منطقة رأس العين كي يعيشوا فيه، وظللتُ أزورهم من حين لآخر، وأنفِقُ عليهم.

بقيت على هذه الحال حتى بلغتُ الخامسة والثلاثين. كانت حرب تشرين بين مصر وسوريا من جهة وبين اليهود من جهة أخرى قد وضعت أوزارها، وخفّت حماسة الناس لأخبار تلك الحرب حال ابتداء وقف إطلاق النار. في ذلك العام جاءني الشيخ حميد الإبراهيم، الذي تتلمذتُ معه على يدي شيخنا الكبير محمد بن نافع البردق، وكنا في صبانا نتردد بانتظام على زاويته في منطقة المحطة قريباً من المبنى القديم لأمانة العاصمة.

حين جاء الشيخ حميد الإبراهيم إلى داري في جبل الجوفة، كان يشكو من الدمامل التي نبتت في ظهره وبين فخذيه، وقد أحضر معه زوجته حليمة ذات الخمسة والعشرين عاما حينئذ، كي تعينه على المشي، وقد لاحظتُ أثناء توجُع الشيخ حميد من الألم أن عينيها تخفيان تبرماً وضيقاً.

استذكرتُ بعضاً من أيامنا مع شيخنا الكبير، لكن الشيخ حميد صار يتأوه من دماملهِ، فطلبتُ منه أن يستلقي على بطنه وساعدتُه في ذلك، ثم هتفتُ بزوجته حليمة مشيراً إلى وعاء نحاسي يحتوي عجينة الحلبة: ناوليني ذلك الوعاء عن المنضدة.

فناولتني إياه. تحسستُه فوجدته بارداً. سألت الشيخ حميد: هل تحس بوخز من داخل الدمامل أم أن الوجع في سطوحها؟

أجابني بألم «الوجع يأتيني من داخل الدمامل، اللهم فك محنتي وأعنّي على الشفاء.» قلت له: ستشفى بإذن الله، ابق كما أنت ريثما نسخن العجينة.

وضعت الوعاء على الموقد وانتظرت حتى سخن بما فيه. ثم سرت نحو الشيخ حميد المستلقي على بطنه، ولحظتُ في وجه زوجته حُسنا وليونة.

طليت دماملهُ بالعجينة الساخنة وهو يصيح، ثم طلبت منه أن يظل على حاله لدقائق إلى أن تفعل العجينة فعلها، ثم أعطيت الوعاء لزوجته حليمة وقلت: ضعيه خارج الحجرة تحت شجرة التوت.

أخذته وخرجتْ. قلت له: الله سبحانه وتعالى يمتحن عباده الصالحين، لا تحرك بدنك ريثما أعود، يلزمني بضع أوراق يانعة من شجرة التوت.

ثم تبعتُ حليمة، اقتربتُ منها وقلت: أراك غير راضية.

فلم تقل شيئاً، لكنها تلكأت في شد طرفي منديلها الذي يغطي شعرها. أكملتُ:

لا حياء في الدين والمرض، أتراه يقوم بواجبه معك والدمامل تعيث بين فخذيه وفي ظهره؟

لم تجب. سألتها: هل أنجبتِ منه؟

فأجابت وهي تنظر في عيني «لم أنجب بعد.»

سبحان الله،العيون تنطق، أحياناً تنطق بما يخجل اللسان أو يعجز عن قوله، وعينا حليمة نطقتا كلاماً كثيراً حين نظرت إلي.

قطفت بضع أوراق من غصن شجرة التوت، وعدت إلى الشيخ حميد. مسحت ظهره وما بين فخذيه بتلك الأوراق، ثم طليت دماملة

بمستخلص البرسيم وأعشاب أخرى، وعاد إلى بيته برفقة تلك المرأة التي ناطقتني بعينيها لا بلسانها.

حليمة التي كانت زوجة الشيخ حميد هي أم صهيب، زوجتي الحالية التي تزوجتها بعد خمسة أشهر من رؤيتي لها مع الشيخ حميد، وبعد أربعة أشهر من زيارتي لبيته وتفقدي دمامله التي لم يشف منها. فبعد أن رأيتها في حجرة المداواة وفي بيتها، صارت تعاند الشيخ حميد وتشعره بقرفها منه، ثم طلبت الطلاق فاستجاب لها.. إخاله كان حكيماً.

بعد أن تزوجتُ حليمة، بيّنتُ لها بألفاظ لا لبس فيها، ما يلزم عملي ودروسي ومواعظي وسفري وعمرتي وحجي من غياب وانشغال عنها، وما قد يطرأ من شؤون لا يعلمها إلا الله، وتعمدتُ أن لا أسمع إجابتها أو أفسح المجال لها، كي يتخذ بياني ثِقل الإملاء الذي لا يحتمل الجدل.

شيء واحد توقفتُ عنده قليلاً، وهو تلك النظرات المشككة التي وجهتها لي من دون أن تقول شيئاً. ولقد تبين لي أن حليمة امرأة ودود ولود، فقد تمتعت في جماعي لها، وأنجبت منها ثلاثة أبناء هم صهيب ومحمد وأنس، وست بنات هن عائشة وخولة وآمنة وكلثوم وحفصة وزينب، وجميعهم يعيشون في بيت واحد بنيته لهم في حي الزغاتيت في جبل الهاشمي الشمالي، بعد أن تراجعت شهوتي لأم صهيب التي انشغلت بأولادنا، بينما انشغلتُ أنا بعملي في المداواة ومع التلاميذ وغير ذلك من الشؤون، ثم بعدها آثرتُ العيش في مزرعتي، حيث المكان الأثير. وقد كان لأم صهيب حظ في هذه المزرعة، حيث حرصتُ على إحضارها إليها وحيدة كي أقضي وطري منها، قبل إعادتها إلى الأولاد والبنات الذين يملأون البيت في حي الزغاتيت. لله الحمد والشكر.

قلت لعزمي حين رأيت الشكوك في عينيه:

تزوج من تلك الفتاة التي حدثتني عنها، فالزواج نصف الدين.

لكنه أعاد القول بأن الزواج ليس في وارده، على الأقل في ذلك الوقت.

حثثتُهُ على إتمام حديثه عن الأماكن التي يستقصي عن المعوزين فيها فقال «في تلك الأحياء والمخيمات المعدمة، تعرفت على رجال وشبان أحالتهم الحياة إلى أناس يستمطرون المشاكل، بعضهم خريجو سجون لا يخافون شيئاً، آخرون شُوهت وجوههم بآثار ضربة من موسى أو مشرط أو أداة حادة، لكنني لم أنظر إليهم على أنهم شريرون مثلما توحي أشكالهم، إنما هم أناس جوعى محتقنون، ويعيشون مع إخوانهم وأخواتهم أو أبنائهم في غرف صغيرة تثير الضيق والضجر.

تمكنت من تقريبهم مني. أوصيت للكثيرين منهم بمعونات عاجلة، وقد أيد مراقب الجمعية توصياتي، ووافق المشرف عليها، فازداد أولئك الناس التفافاً حولي حد استعدادهم لفعل ما أريد منهم، ليس فقط بسبب تلك المعونات، إنما لسبب آخر لم أفهمه. من المحتمل أنهم وجدوا أخيراً من يهتم بهم، أويعيد الاعتبار إليهم على الرغم من ماضيهم.»

خرج عزمي من عمله ذاك بعلاقات وطيدة مع أعداد كبيرة من سكان تلك المناطق، ومع عدد من الشبان المستعدين لفعل ما يطلبه منهم، هذه معلومة ذكرها في حديثه، وحين سألته: لكن ما الذي تريده منهم؟ أوقف حديثه عنهم.

صبرتُ حتى أتم شهوره الثلاثة المتبقية في ذلك العمل، وتسلم مهمته في إدارة مركز ابن الحارث، حيث انطلق في شوط جديد مع

هذه الدنيا الفانية، وبدأت أرقب ما يطرأ عليه من تغيرات.

فبعد وقت من تسلمه إدارة المركز تبدلت هيئته ومسالكه. ملط شعره، غطى رأسه بطاقية مخرمة، أطلق لحيته، وصار يرتدي دشداشة بيضاء فبدا أكبر من سنه.

التلاميذ الآخرون لم يكونوا بفطنة عزمي، حتى أنني لم أوفق في بعض اختياراتي لمشاريع الأئمة والخطباء منهم. ليس كلهم، إنما بعضهم، فعاصم كساب مثلاً، ثابر على حضور المآتم وإلقاء الخطب والمواعظ فيها، إلى أن أتقن فنون الخطابة وصار إماماً لواحد من مساجد جبل التاج. عبد المهدي ربيع وستة آخرون ساروا على خطاه، فانتشروا في مساجد المناطق القريبة من جبل الجوفة، صوّبوا أئمتها مراراً وخاضوا جولات من التنافس معهم، وساندتُهم حتى تمكنوا من الحلول محلهم. بكر الطايل وآخرون لم يُفلحوا. كانوا يرتبكون. بكر الطايل الأسمر النحيل الذي يبدو متجمعاً حول نفسه، كان حاداً منفراً. لم يتمكن من اجتياز البدايات الخمس. وظلت عيناه تنظران إلى الأعلى لا إلى الناس أثناء إلقائه خطبه التدريبية في بيوت العزاء. مع أنني أوضحت للجميع أن النظر إلى الأعلى لا يلزم إلا عند الضرورة، وفي الخطب الخمس الأولى كحد أقصى.

مع ذلك لم أفرط ببكر ولا ببقية الذين لم يفلحوا.

أما عزمي فلم أكن راغباً في تعليمه فنون الخطابة في المساجد أو تدريبه في أماكن العزاء. مكانه ليس على منابر المساجد. كما أن أموراً فيه كانت تحيرني. أنا أثق بالأصوات التي تبوح لي بها نفسي، وأتوقف عند إشارات بعينها.

بعد أن تمكن عزمي وعرف كل صغيرة وكبيرة في المركز، جمع موظفيه الثلاثة ومدرس الصبية، وأرغمهم على القيام بدورهم بهمة

ونشاط، والالتزام بساعات الدوام، وإتمام أعمالهم في مواعيدها. والصحيح أنهم كانوا يتراخون في أداء واجباتهم قبلها، لكنهم اشتكوا لي مما أسموه تسلطاً عليهم، فقلت لهم مؤازراً عزمي وطامحا في فهمه إشارتي الداعمة له: العمل عبادة، ومن يهمل عمله يفرط بعبادته وبقوت عياله.

استعانوا بأعضاء لجنة المركز التي أرأسها، فعقدنا مجلساً حضره عزمي والموظفون الثلاثة ومدرس الصبية.

لاحظتُ أن ثلاثتهم تصاغروا وألجموا أمامه، أما مدرس الصبية فظل صامتاً منكفئاً على ما في قلبه، فازدادت ثقتي بما توصلت إليه من قبل، حول قدرات عزمي واستحقاقه لقب رمح الله.

لكن تلك الشكوك التي سبق أن ساورتني حول قابليته للتغير والانقلاب لم تتبدد، على الرغم من تراجع المغالبة التي خالطت جوفي ودفعتني إلى التريث!

لقد أحسست في وقت ما، بأن له رقيباً داخل نفسي، وهي المرة الأولى والوحيدة التي أشعر خلالها بوجود ما يخص غيري داخل نفسي.

***

سندس

سايرني رباح، وتحولت مسايرته إلى رضوخ، لكني لم أستسلم لمرارة بروده وقصوره. فاتحت أمي بأمره، فسارعَت الى القول إنه قد يكون مربوطاً، ثم أكدَت «يجب فك الربط، لا بد أن تكون جليلة هي التي فعلته به قبل موتها!»

سألتها عن كيفية فك الربط، فأجابت «الشيخ عبد الحميد الجنزير. لا أحد يستطيع ربط الرجال وفكهم سواه، مؤكد أن المرحومة دفعت له قبل موتها فربطه بسحره.»

قالتها بثقة، فأطلقتُ ضحكة عالية لم تثنها عن الاستمرار في إقناعي بصحة توقعاتها، وبلزوم الذهاب الى الشيخ الجنزير كي أشرح بلساني، وأرى بعيني، وأسمع بأذني، وبعدها أقطف الثمار في سريري مع زوجي.

ربما لم يخطر ببال أمي أنها بنصيحتها تلك، فتحت بوابة جديدة في حياتي.

حين دخلت دار الشيخ الجنزير، وجدت نفسي أمام رجل متوسط الطول، غير نحيل ولا سمين، حنطي الوجه، حليق الشاربين، ذي أنف معقوف وعينين مكحلتين لماحتين، تفوح منه رائحة عطرية لم يسبق لي أن اشتممتها، ويرتدي ثوباً عربياً من دون قبة، ويعتمر عمامة خضراء تستطيل مع لحيته المحناة.

عيناه المكحلتان بثتا في روحي وجسدي أحاسيس مبهمة، فهُما

ليستا مجرد عينين بشريتين كتلك التي عهدتها في الرجال، إنما هما مجهريتان تكادان تعريانني من ملابسي، وتدعوانني إلى لملمة نفسي خشية انكشافي أمامه.

ارتبكت فعاجلني بنبرة العارف الذي لا يحتاج إلى الشرح «وجع ظهر مثل نسوة الحي؟» فأومأتُ مؤيدة، ولم أعد راغبة في ذكر السبب الحقيقي لذهابي إليه.

تلك كانت بدايتي مع الشيخ الجنزير، الذي تبين لي في ذلك الوقت،أنه يستطيع تحريك صيواني أذنيه في الاتجاه الذي يريد، واتخاذ شكل الشيخ المتسامح الهرم الرؤوف، أو هيئة الرجل القوي التي لا أدري من أين يأتي بها؟

سألني عما اذا استأذنت زوجي قبل الذهاب إليه، وحين لم يسعفني النطق، ابتلع ريقه، لملم ثوبه العربي، ثم قال بصوت عريض «استأذني بعلك وتعالي غداً صباحاً بعباءة طويلة كي أستطيع مداواتك، ولا تنسي ستر شعرك قبل أن تأتي.»

صبيحة اليوم التالي، خرج رباح الى عمله، تبعه عزمي الى مكان لا أعرفه. ارتديت عباءة سوداء اشتراها لي رباح من محل قرب المسجد الحسيني قبل زفافنا، وضعت منديلاً أزرق على رأسي ونظرت في المرآة، فوجدتني غريبة عن نفسي. تمشيت في فناء الدار، فعاد صوت الشيخ الجنزير يخرق أذني، أحسسته يمشي في مكان قريب مني، نظرت الى الخلف فلم أر أحداً، مع أنني سمعت وقع خطواته ورائي في فناء الدار.

ذهبت اليه.

استقبلني بطريقة رجل منهمك بعمل لا يستطيع تأجيله، سألني ما إذا استأذنت زوجي فكذبت: استأذنته.

كان مرتديا ثوباً طويلاً لامعاً مقلماً، كماه مشموران عن ذراعين مشعرتين مبلولتين. أومأ لي فدخلت البوابة الحديدية، أغلقها ورائي، اقتادني عبر أشجار التوت والتين والزيتون. أدخلني في غرفة يتصاعد الدخان منها.

أوقفني في وضع ملاصق لجدار كلسي في الغرفة، ظهري الى الجدار ووجهي نحوه «ابقي واقفة هكذا ولا تتحركي.» قال، وتوجه نحو موقد يحمل وعاء نحاسياً يتصاعد البخار منه، حمل مغرفة خشبية شبه منبسطة، وحرك بها ما في الوعاء وهو يتمتم.

كانت رائحة الدخان زكية، لا أدري ما إذا كانت صادرة عن العيدان المحروقة في الموقد تحت الوعاء النحاسي، أم من البخار الذي يختلط مع الدخان وينسحب معه من طاقة مشبّكة في أعلى الغرفة.

أحسست بانعدام وزني، فأنا لم أعتد الوقوف طويلاً وظهري الى الحائط، من دون أن أفعل شيئاً سوى النظر إلى جواعد من الصوف الأبيض، تغطي مقعداً خشبياً طويلاً، ملاصقاً لجدار مرشوم بأخشاب وأوراق مقواة تحتوي آيات قرآنية مكتوبة بخط اليد العريض، والى جوارها، كعوب كتب مجلدة على رفوف محشورة داخل الجدار، ثم رجل غامض يضع على أذنه قلماً أخضر، ويحرك سائلاً يغلي في وعاء.

تعبت يا شيخ. قلت له. فردّ بنبرة آمرة «اثبتي واسكتي» فسكتّ.

نقلت نظراتي في أرجاء تلك الغرفة الصغيرة، كان الدخان يلامس وسائد مبقعة على فرشة صوفية مخططة.

ازداد إحساسي بانعدام وزني: تعبت ياشيخ.

قلت من جديد، فترك المغرفة في الوعاء واقترب، طلب مني أن أستدير ففعلت، صار وجهي الى الجدار، دس يده تحت عباءتي وصار يتحسس ظهري بطريقة من يتحسس محتويات كيس، بينما سرى في

عمودي الفقاري تيار دافىء ممتع انتشر في جسدي فأظلَمَتْ ذاكرتي.

من الصعب أن أصف ما حدث لي تلك اللحظة، فقد تحولتُ إلى امرأتين في وقت واحد، لو حدثتني أية امرأة بذلك لما صدّقتُها، لكن، هذا ما حدث معي! فقد جلستُ على المقعد الطويل المغطى بجواعد الصوف، وأنا أرقب ما يفعله بي، بسندس الأخرى الملتصقة بالجدار، فرأيت عينيه تنغرزان في جسدها، ويديه تعبثان بظهرها، وعجبت لسندس الملتصقة بالجدار، كيف سمحَتْ له بكل هذا؟ لكن عجبي ذاب مع وعيي الذي كاد يغيب.

لقد أخذني!

كلمة أخذني التي سبق أن سمعتها من بعض النساء لم تكن واضحة في ذهني، ولم أتخيل بأنها تحمل معاني الاستحواذ اللذيذ، لكنني هذه المرة رددت في نفسي: أخذني.. أخذني.

بعدها صرت أنتظر موعد العلاج الأسبوعي بشوق وطيش، لكنه حافظ على طريقته مثلما هي، ولم يغيرها سوى في المرة الأخيرة حين ناولني قطعة مبلولة ساخنة من قماش خشن تفوح منه رائحة التراب، وطلب مني لفها حول ظهري وبطني تحت العباءة.

قال لي بجرأة مباغتة «زوجك رباح، هل صار نافعاً بعد الخلطة التي أخذها مني؟» ترددتُ قليلاً، لم أرغب في الإجابة عن سؤاله، فمد يده إلى القطعة المبلولة، تحسسها ثم انتزعها ببطء، وضعها على الأرض وعادت أصابعه تضغط ما بين فقرات ظهري الوسطى والسفلى، فقرة فقرة، وكلما انتقلت أصابعه من فقرة إلى أخرى يسألني عن مكان الوجع المتبقي في ظهري، بينما تنتشر في أنحاء بدني ذبذبات طاغية لا تسمح لي بالتفكير في أي شيء، خصوصاً أنه كان يقرب وجهه من رقبتي فيلفحها بأنفاسه الحارة، لتزداد تلك الذبذبات التي غمرتني من

بصيلات شعر رأسي حتى أصابع قدمي. ومع أنني لم أكن أعاني من أي ألم في ظهري، فإنني عند واحدة من الفقرات السفلى قلت له: نعم، هنا الوجع.

حينها سمعت طرقاً قوياً على الباب، فأحسست بقبضة قوية تدك جدران قلبي الذي تلاحقت خفقاته، وقد راعني أن الشيخ استعاد بسرعة عجيبة، نظرته الوقورة السمحاء، وملامح الكهل الحاني الذي توحي هيئته بالثقة والاستقامة، وحين سار نحو الباب لملمتُ عباءتي حول جسدي.

فتح الباب وخرج، سمعته يتحدث مع رجل آخر، قال له «هذا ليس موعد جلستنا، لدي مريضة أداويها، لماذا أتيت؟» فرد الرجل الذي عرفته من صوته «جئت من أجل المريضة، أخرجها، إنها زوجة أبي.»

كيف عرف؟

صمت الشيخ الجنزير، تسارعت دقات قلبي، قال «لكن يلزمها جلسات أخرى للمداواة.»

عندما خرجت، التقت عينا عزمي بعيني فأنزلتهما. اقترب مني غاضباً «يا فاجرة» نطقها من قعر حنجرته، فرددتُ خائفة: كان يعالج وجع ظهري.

فعاجلني «هذا واضح في وجهك الآثم.»

الشيخ الجنزير لم يتدخل ولم يقل شيئاً، اكتفى بتوجيه نظرة عميقة إليه، قبل أن يغلق البوابة وراءنا ويتركني الى مصيري مع عزمي، الذي فوجئت بأنه واحد من تلاميذه! تماماً مثلما فوجئت بأن زوجي رباح قد زاره واستعان بخلطاته التي لم تُجدِ نفعاً.

تلك كانت المرة الثانية التي أذلني فيها عزمي، ليس لأنه أهانني أمام الشيخ وحسب، إنما لأنه حرمني سحر تلك المتع التي يحققها الجنزير لي من دون أن يرتكب إثم الحرام الصريح.

علـى الرغـم مـن ذلك، أحسســتُ بأن ضبطـهُ لي في دار الجنزير، وما رأيت في وجهه من ملامح غيرة حاول إخفاءها، ستحفزه وتحرضه على الاستجابة لنداءات جسدي.

لـم أحقـد علـى عزمـي، وتقبلـت بخضـوع ورضـى، سـلطته التي تعـززت حـد انصياعـي التـام لأوامـره، بما فـي ذلك الكف عن الذهاب الى الجنزير.

فقد أردته، ولا بد له من أن يستجيب.

***

بكر الطايل

لست على يقين من أن الشيخ عبد الحميد الجنزير منزه عن كل سوء، فالكمال لله الواحد الأحد. لكنه محسن كبير وشيخ جليل يستحق الطاعة والاحترام.

أما إذا قلت إن عزمي الوجيه لا يستحق الرجم، فسأكون قد تنكرت للحق وجانبت الصواب كالخاسئين الخاسرين في الدنيا والآخرة.

كنت واحداً من تلاميذ الشيخ الجنزير. تعلمت الكثير من الأذكار وأصول الدين والفقه على يديه، ولم يبخل عليّ بشيء من علمه الواسع العظيم، وخلقه الكريم، وطبعه الحليم، وكرمه العميم. ولعمري إنني أيقنت في فترة من حياتي، أنه واحد من معجزات زماننا هذا، الذي تغير الناس فيه وانقلبوا على دينهم ودين آبائهم، فعاثوا فساداً في هذه الحياة الدنيا، التي لا تعدو كونها محطة في طريق الآخرة التي لا يحسبون لها حساباً.

الشيخ الجنزير كان يحرسنا بعينيه الرحيمتين ويصوبنا بذهنه المتوقد، ويصفح عن المخطئين منا. لكنه لم يكن ساذجاً أبداً، ولم يكن من السهل على أي منا إخفاء شيء عنه، فعيناه المشعتان نوراً وإيماناً تستطيعان كشف ما في قلوبنا وصدورنا.

كل ما يقوله ويفعله شيخنا الجنزير كان جزءاً من مسلماتي، باستثناء تسامحه مع عزمي الوجيه الذي أحسستُ بانحرافه عن السبيل رغم ما يُظهر من التقوى والخشوع في جلساتنا، كما لاحظتُ أنه يداريه ويراعيه على حسابنا نحن الذين قبضنا على جمر الإيمان، فيما طلع

علينا عزمي الوجيه بكلام غث عن بدعة جديدة اسمها إعمال العقل.

أعرف أن ديننا سمح، والله غفور رحيم، ولكنه شديد العقاب، والعقاب ليس شرطاً أن يكون في يوم الآخرة، إنما في الحياة الدنيا أيضاً. فمن الجور أن لا تتمكن أخواتي من تناول أكثر من وجبتين في اليوم، فيما ينفق عزمي عشرات الدنانير التي لم أعرف من أين يأتي بها، ينفقها في وجوه غير معلومة، على الأقل بالنسبة لي.

من غير المنصف حرمان أخواتي من أكل اللحوم إلا مرة كل أسبوعين. ومن المقلق أن تضطر أصغرهن إلى الاقتتال مع بعض زميلاتها من بنات الموسرين في المدرسة من أجل انتزاع طعامهن منهن، بمساعدة ثلة من الطالبات اللواتي اعتدن مثلها على تحمل ضرب المدرسات لهن؛ بسبب شكاوى التلميذات عليهن. لكن، ماذا يملكن غير الضرب كي يكبحن تلميذات لا يجدن ما يأكلنه؟ وهل يستطعن إنكار ما قالته العرب من أن الجوع كافر؟ ومن أن الفقر في الوطن غربة؟

عزمي الوجيه كان فقيراً مثلنا، فما الذي حدث له ومعه كي يتكبر علينا، نحن الذين حملناه على أكتافنا امتثالاً لتعليمات شيخنا، الذي دأب على تهدئتي وتذكيري بقوله تعالى في سورة الحجرات (يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم)، فأصمت على مضض.

عزمي هذا، تجرأ في واحدة من جلساتنا الأسبوعية وقال للشيخ «القول بأن الجوع كافر ليس حديثاً شريفاً، إنما هو قول أطلقته العرب في ظروف القحط والمحل، ويحتاج بعض التفكير والتكرير داخل العقل»! وحين سأله عما يقصد بكلامه الخارج على تقاليد جلساتنا، قال «إذا كان الجوع كافراً، فهل نفهم من هذا أن الغنى مسلم؟» توقعت أن ينتهره الشيخ، لكنه تبادل وإياه نظرات حملت معاني لم أستطع فك

مفرداتها آنئذ، وحين أفضنا في الحديث عن الفقر والجوع، فهم الشيخ مرادنا، فأكرمنا بأن نقدَ كل واحد منا عشرين ديناراً كي نسد بها رمقنا وأهلنا. لكن الوجيه لم يأخذ حصته وتبرع بها لمن يحتاجها منا، فأخذها عبد المهدي ربيع وانفرجت أساريره، فيما خرج الشيخ وعزمي معاً من دون أن يذكرا شيئاً عن مقصدهما. فتساءلتُ عن السحر الذي يمتلكه ويغوي به شيخنا، وفوق هذا يتبرع بحصته مما وزعه الشيخ علينا، هل صار موسراً إلى هذا الحد؟

***

جبران

مضت أعوام طويلة على رحيلي عن جبل الجوفة.

أذكر أنني قبل ذلك الرحيل، انتبهت إلى أمر لم أفكر به في غمرة اهتمامي بالقضايا السياسية والطبقية، إنه حريتي وحرية أسرتي الاجتماعية التي لم تكن موضع اهتمام لدي، أريد أن أفعل ما يحلو لي ولأسرتي بعيداً عن تدخلات الآخرين وتقولاتهم.

طلبت من زوجتي فك ارتباطاتها مع جيراننا، مع أن الوقت لم يكن مناسباً حينئذ، فمشاعر الناس كانت منصرفة نحو أخبار الاجتياح الإسرائيلي لبيروت، وكانوا بحاجة لمن يفسر لهم حقيقة ما يجري وما سيترتب على ذلك من نتائج، وقد حاولوا رؤيتي وسماع رأيي باعتباري سياسياً قادراً على فهم الأحداث حسب اعتقادهم، مع ذلك قلت لرابعة قبل أن نرحل: آن لنا أن نعيش حياتنا، ونبتعد عن هذا المكان الموبوء بالفضول والعيون التي تتابع المرء أينما ذهب.

وتبين لي أنها كانت تنتظر تلك الفرصة كي تتخلص من ماض محفوف بالمخاطر والبؤس، فترفعَت عن نساء الحي، أوقفت من جانبها عادة تبادل أكواب السكر والشاي الجاف والأرز المنتشرة هناك، وأوقفت مداهمات الجارات لبيتنا، وزياراتهن المفاجئة لبيتنا من دون سابق إشعار، وتصدت للراغبين في زيارتي من سكان الحي بقولها «جبران غير موجود في البيت»، وهو ما أوصت ولدينا (ناتاشا ووعد) بقوله لكل من يطرق بابنا أو يسأل عني.

لم أتنكر لأفكاري الماركسية التي حملتها منذ صباي، ولم

أتنصل من التزامي السياسي إزاء الكادحين على الرغم من ابتعادي المكاني عنهم. لكنني أشعر الآن، وبعد مرور كل هذه الأعوام، بأن الحرية التي ناضلتُ من أجلها كانت سياسية بحتة، وذات حواف حادة قاطعة وفي إتجاه واحد، إلى حد أنها لم تمنحني فرصة التفكير في حريتي الاجتماعية مثلاً، وهذا خلل فادح لم ننتبه له أثناء تغنينا بالحرية ذات البعد الواحد، بدليل أننا الآن، نشعر بوجود انفراج في الحريات السياسية، في حين أن الحريات الاجتماعية تراجعت بشكل فظيع، خصوصاً في بؤر الفقر.

أيام جبل الجوفة ذهبت إلى غير رجعة، ولست آسفاً عليها، إذ لا توجد فلسفة ولا فكرة ولا ديانة تحول دون استمتاع الإنسان بأمواله، أو تطالبه بالتمسك بالفقر إذا استطاع الإفلات من براثنه.

لكن انتقالي إلى جبل عمان حمل معه إشكالات بيني وبين رابعة التي استوردت خادمة سيريلانكية كي تعفيها من أعباء المنزل، ومن متطلبات ابنتنا ناتاشا وابننا وعد اللذين تحولا إلى كائنين فوضويين لا يأبهان بشيء، ويتعاملان مع بيتنا بعقلية نزلاء الفنادق.

عادت رابعة تقرأ، فقد امتلكت ما يكفي من الوقت كي تلتقط أنفاسها في مكان هادىء هو منزلنا الجديد. صارت تقرأ الصحف المحلية ومجلات الصياد والموعد اللبنانيتين، وحواء المصرية، وتتابع الموضات والأزياء في مجلة بوردا الألمانية، إضافة إلى قضايا المرأة والروايات المترجمة وكتب الإتيكيت. كما اعتادت تسريح شعرها مرتين كل أسبوع في صالون كارو خلف وزارة السياحة، وتضع على وجهها مساحيق البوبا الإيطالية وماكس فاكتور المقاومة للماء، وتصبغ أظافر يديها وقدميها بطلاء لؤلؤي، وترتدي بنطالات برمودا الفضفاضة القصيرة، وتنتعل أحذية ذات كعوب مسمارية طويلة أدت إلى وقوعها

مرتين في حديقة منزلنا، كما قررت تقليد بعض النسوة اللواتي تعرفت عليهن وتزاورت معهن، فأصرت على اقتناء قط شيرازي من ذلك النوع الكسول دائم التثاؤب، الذي يسمن بسرعة وينمو شعر جسمه ليصبح مثل الخروف.

ثمة علاقة إيجابية بين المال والجمال. هذه حقيقة لم أكن لأتوقف عندها فيما مضى. فرابعة صارت أكثر شباباً وتألقاً من ذي قبل، اسمرار بشرتها تحول إلى واحد من عناصر جاذبيتها، نحولها صار مدعاة إعجاب أو حسد من قبل صديقاتها، اللواتي يتبعن حميات قاسية للتقليل من أوزانهن، أما عيناها السوداوان فبدتا أكثر اتساعا واتساقا مع الصبغة الجديدة الداكنة لشعرها.

لقد حققتُ لرابعة كل ما أرادت. لكن حين استعلمتُ من محل صغير متخصص بمستلزمات القطط والكلاب قرب الدوار الأول في جبل عمان، أصبت بالذهول وتمسكت برأيي رافضاً إصرارها على اقتناء قط، فأنا لا أطيق وجود كائنات غير إنسانية في منزلي، ولا أستطيع اصطحاب قط وتطعيمه بشكل شبه دوري مثلما يفعل أزواج صديقاتها، كما لست مستعداً لاقتناء أنواع البودرة أو الشامبو المضاد للفطريات التي يحممون بها القطط، وأيضاً، لم أجد لدي أدنى قبول لفكرة شراء أطعمة الوسكس من ذلك المحل، وهي المعلبات الخاصة بالقطط المنزلية، إذ إنني علمت أن من يقتنون تلك القطط المرفهة في منازلهم، لا يطعمونها من الطعام البشري، خشية تنامي النزعات العدوانية لديها، إنما يحرصون على توفير أطعمتها الخاصة المعالجة، التي تحتوي فيتامينات تحقق لها التوازن وتثبط عدائيتها! وتلك كانت معلومة جديدة علي، إلى حد أنني تساءلت عما إذا كان الطعام الذي يتناوله الإنسان مسؤولاً عن نزعاته العدوانية؟ وإذا كان الأمر كذلك فلماذا لم يوردوا ذلك في المساقات الجامعية التي درستها وفي الكتب التي قرأتها؟ هذا فضلاً عما سيلزم

القط من اهتمامات أخرى خاصة، يقوم بها طبيب بيطري معروف اسمه ناصر عياش، كقص الأظافر، وحقن القطط بالأبر التي تثبط تهيجها الجنسي، وإجراء عمليات شل فاعلية الخصيتين أو استئصال الرحم عند الإناث منها.

فكرت: حسب ما تريد رابعه، فمن الممكن أن يكلفني القط مبلغاً شهرياً يكفي لإعالة أسرة فقيرة أو أكثر.

رفضتُ الفكرة فتوترت أجواؤنا.

من الصعب على ذوي الجذور الماركسية التنصل التام من أفكارهم وقناعاتهم التي عادة ما تكون قابلة للتعديل أو التطوير، لكن ليس إلى الاجتثاث.

رابعة عثرت على قط من النوع المطلوب، وأنا تمسكت برفضي إدخاله بيتي، فقاطعتني ثلاثة أسابيع من أجل قِط! وأنا وجدت فرصتي لوقف اندفاعاتها \البورجوازية، ليس بسبب نقص أموالي التي ظلت تتزايد وتتوالد، إنما لأن \البرجوازية سلوك وليست ثراء مجرداً.

خلال فترة المقاطعة هجَرْتها في الفراش علها تغير رأيها، فلجأَتْ إلى طريقة شيطانية كي ترغمني على مصالحتها، حيث ضاعفت عنايتها بمظهرها، وتوهجت أنوثتها، خصوصاً حين صارت تنظف بشرتها كل يومين، وترتدي ملابس مثيرة تستحضر ذكورتي التي مارسَتْ ضغوطها عليّ، وحطمت عنادي، فتصالحنا على السرير كعادتنا.

تبين لي، أن المصالحة في الفراش تجنب الزوجين شرور الثرثرات واللوم والتبرير والتذكير وغير ذلك من الأمور التي قد تنسف المصالحة. الفراش طريقة مباشرة وناجعة لإنهاء الخلافات الزوجية. مع أنني كنت أعتقد بأن هَجْرها سيعيدها إلى صوابها وينصرني عليها، ليتبين لي أن هذا الهجر قد أدى إلى هزيمتي وإعادتي أنا إلى صوابي وليس العكس.

نصحتها بالاهتمام بقضايا المرأة والانضمام إلى الجمعيات التي تناضل من أجل حقوقها. فأجابتني «لم لا تفكر أنت في تطوير وضعك؟» قلت لها: ومن قال لك إنني لا أفكر؟

لكن، بدلاً من أن تعمل بنصيحتي صارت ترسم! تشتري الإطارات الخشبية وأقمشة \الكنفس وأنابيب الألوان الهولندية الثمينة وأصابع \الكريليك وترسم، فخصصتُ لها غرفة واسعة في المنزل، وحولتُها إلى مرسم جهزتُه بما يلزم من \الستاندات\ والرفوف والطاولات، وافتتحَتْه بحضور عدد من صديقاتها وأزواجهن، وصارت ترفل بفستانها الأزرق بين الحاضرات والحاضرين وأزهارهم، وتشرح بثقة عن لوحاتها التي لم أجد فيها سوى خرابيش دجاج بالألوان، ولن أنسى بالطبع، تلك التعبيرات المستخفة التي رأيتها على وجوه عدد ممن تفرجوا على تلك اللوحات.

هكذا تمكنتُ من إشغالها والخلاص من مشاكل فراغها. لكنها بعدها فاجأتني «بقي أن نشتري قطاً!»

سأقرّ: النساء في نهاية الأمر ينتصرن.

اشترت قطاً أسمته سنزي وانشغلتْ به، فصرت أفضّل الخروج مع أصدقائي والسهر معهم، ولم تتوقف رابعة عند ضيقي وضجري، على الرغم من أنها حرصت على التقليل من إشراك قطها البليد في جلساتنا الصباحية في الحديقة.

تضاءلت قراءاتي للكتب التي تتحدث عن الأممية والعمال وجيفارا وكتب أنطونيو غرامشي وكارل ماركس ولينين وإنجلز ولوكاش وفلاسفة مدرسة فرانكفورت وسواها من الكتب التي لم يعد لدي وقت لقراءتها، لكنني أبقيت على علاقاتي مع عدد من أصدقائي السياسيين من اليساريين والقوميين وسواهم، ولم تنقطع حواراتنا في الشؤون العامة. صرنا نتحاور ولا نقرأ إلا لماماً.

ما أثار اهتمامي في حواراتي مع السياسيين، أن من يبدأ يسارياً أو قومياً يظل محسوباً على اليسار أو القومية العربية حتى لو أصبح مليونيراً أو صار من أركان الحكومة! كما أنه يجد صعوبة في نسيان خلافاته السابقة مع السياسيين الآخرين، التي كانت تنشب في المواقع النقابية وأندية خريجي الجامعات والتجمعات الثقافية والشعبية، لذا ظل فرز السياسيين والمثقفين مستنداً إلى ماضيهم أكثر من حاضرهم، بصرف النظر عما تغير في سلوكهم الطبقي أو الاجتماعي. يستثنى من ذلك، طبعا، حالات اللجوء الفكري، التي حدثت مع عدد قليل من الرفاق السابقين وسواهم ممن انضموا إلى التيار الإسلامي الذي تقوده جماعة الإخوان المسلمين.



رباح الوجيه

أيام كانت سندس على ذمتي، حرصت على أداء الصلاة في أوقاتها وفي الجامع، صرت أقول كلما اقتربَت مني «أنا على وضوء» فتلوي بوزها وتتركني، وأشعر بحماية الوضوء لي، وبفضائله الجمة.

نعم، أنا أشتهيتها قبل وبعد زواجي منها، لكن، لم أعد أقدر عليها بعد أن تعودت على تحضير نفسها كلما غيرتُ ثيابي ولبست بيجامتي. وحتى لا أظلمها، سأقول بأنها كانت تتقن الطبخ وتتفنّن فيه. شهوتي لطعامها تغلبت على شهوتي للنوم معها، الأصح أن شهوتي لجسدها ظلت موجودة، لكن قدرتي هي التي خانتني.

تمنيت لو أنها تصبر عليّ ثلاثة شهور، لأن قوتي ستعود إليّ وأصير مثل الحصان، حسبما قال لي الشيخ الجنزير عندما ذهبتُ إليه، واعترفتُ أمامه بقلة حيلتي مع سندس. يومها أعطاني زجاجة كبيرة فيها خلطة خضراء مثل زيت الزيتون، وقال لي «اشرب منها ملعقة واحدة كل صباح على الريق، لمدة ثلاثة أشهر، وبعدها تصير مثل الحصان في الفراش». قلت له: وإذا لم تنفع؟

قال «فثلاثة أشهر أخَر، لأن بدنك في هذه الحالة يكون من النوع الذي يحتاج كمية أكبر لكي يستيقظ ويصحو.» قلت: ما دام الموضوع هو موضوع كمية، فلماذا لا أشربها كلها في يوم أو يومين؟.

فضحك وقال «إذا كنت راغباً في الموت فاشربها بهذه الطريقة.»

مرت ثلاثة شهور ولم يتغير شيء، بالعكس، تدهورت حالتي مع

سندس وصارت تستتفهُني. رجعت للشيخ الجنزير فأعطاني زجاجة ثانية وقال «جسـمك من النوع الذي يقاوم الدواء، بعد ثلاثة أشـهر سـتنهار مقاومته وتحل الشهوة محلها.»

لكن سندس لم تطق الحالة، ظلت تتذمر.

حزنـتُ علـى حالـي وبصقـتُ على هـذه الحياة، لأنها تهد الرجال الذين يهدون الجبال، وشعرت أني بعيد عن نفسي، فتمنيت لو أنني لم أغامر ولم أتزوج سندس، تمنيت لو لم تمت جليلة، على الأقل لظلت الدنيا بخير، ولعشت معها بسلام، لكن، وقعت الفأس في الرأس.

الـذي جنننـي وطلّعنـي مـن ثوبـي هـو عزمـي. لأنـه لمـا شـعرتُ بالخـذلان مـع سـندس، صـار هـو يأمرهـا كأنـه زوجها! وهـي تطاوعه وتستكين قدامه مثل الأرنبة. والله على ما أقول شهيد!

سألت حالي: ما الذي يحصل في داري؟

صرت أراقبهما. أترك شغلي وأرجع إلى الدار، أفتح بوابتها فجأة، فأجد سندس تقوم بأعمال البيت وحدها، وعزمي خارج الدار، فتسخر منـي. سـندس لعينـة، ولا بـد أنهـا فهمت سـبب رجوعـي إلى الدار في غير ميعادي.

لمـا وجـدتُ أن ظنونـي فـي غيـر محلها، هدّأت حالي، وفسـرت طاعتها لعزمي على أنها نتيجة ذكائه وقدرته على كسـب الناس. لكني لم أهمل الموضوع، وظلت عيناي مفتوحتين. وصرت أنتظر على نار، مرور الشـهور الثلاثة الأخرى لكي أعود مثل الحصان حسـب ما قال الجنزير.

موضـوع عزمـي لـم يطـل، لأني رجعت إلـى بيتي في أحد الأيام، وعرفت من سندس أنه أخذ ثيابه وأغراضه وترك لنا الدار.

كانـت موجـودة عندمـا ذهـب، وأصـرت علـى إقفـال غرفته بقفل كبير.

لم أناقشها ولم أحاول فتح باب الغرفة. أبقيتها على حالها.

لكن سندس تغيرت بعد رحيل عزمي، لم تعد تهتم بي ولا بالدار، وصارت الصراصير والنمال تمشي فيها باطمئنان، بعدما كانت ممنوعة عليها. حاولت فهم سبب زعلها، فسخِرَت مني. شكوتها لأمها فاطمة، فاستغربت مثلي، لكنها قالت لي «أنت السبب.»

صبرت وتحملت وقلت لحالي: بقي شـهران على دواء الجنزير، وبعدها، ستترجاني كي أتركها بحالها.

لكن، العاهرة، فاجأتني وطلبت الطلاق!

قلت لها اصبري عليّ شهرين. فحزمت اغراضها وذهبت إلى بيت أمها. حاولت معها واشتريت لها إسوارة، لكنها لم تغير رأيها، وأسمعتني كلاماً مثل قَرْش الصوان، حتى أن أمها فاطمة لم تتدخل ولم تقل غير كلمتين «الشور شورها.»

طلقتها.

لكن، لم أعرف سبب حنيني لعزمي عندما طلّقتها! تمنيت لو أراه قبـل أن يقبـض عزرائيـل روحـي، فقـد زادت زياراتـه إلـى حينا. خمس جنازات طلعت من الحي خلال أسبوع.

***

سندس

ما كان يحيرني، أنني كلما تمنع عزمي وابتعد عني، ازددت إصراراً على الاقتراب منه والحصول عليه. أجل، الحصول عليه، ولديّ ما يكفي من الإصرار على ذلك.

قبل أن يرحل عن بيتنا، صرت أشعر بوجود توق في نفسي إليه على الرغم من وجوده في غرفته أو حتى في فناء الدار. أتخيله قبل أن أنام، أحلم به، وحين أصحو أشعر بفراغ كبير إذا لم أجده، فأصاب بالحنق الذي لا أدري ماذا أفعل لإطفائه، فأجدني منقادة إلى ترتيب غرفته وتنظيفها، ثم القيام ببقية الأعمال المنزلية التي تساعدني على التحمل، كالجلي وتنظيف الدار وغسل الثياب وغير ذلك مما يشغل وقتي إلى حين عودته. الدار لم تصبح نظيفة إلا بفضل ذلك الحنق الذي كان ينتابني كلما غاب عزمي، ولا أدري ما الذي فعله كي يجرني إليه بسلاسل من حديد الرغبة. لقد أحببته على الرغم من العثرات التي اعترضت هذا الحب. هو أيضاً أحبني وأرادني، عرفت ذلك بحدسي الذي لا يخدعني، لكنه ظل خاضعاً لكوابحه التي راهنتُ على تكسّرها، وخاطبتُ نفسي: سيستجيب لي.

رميت شباكي حوله من جديد، عن طريق الامتثال لأوامره والانصياع له. لكنه كشف حيلتي. تحرشتُ به مرات، لكنه ظل يصدني. وفي أحد الأيام، بينما كان رباح في المقهى أغلقتُ البوابة الخارجية بالمفتاح، دخلتُ غرفة نومي، ارتديت تنورة حمراء قصيرة وقميصاً خفيفاً أبيض على

اللحم، وقفت أمام المرآة، تزينت، وضعت على بعض البقاع في جسدي عطراً ذا رائحة قوية، علّه يتغلب على عطر أمه في غرفته، ذهبت إليه فوجدتُه مستلقياً على سريره يقرأ كتاباً. قلت له: ظننتك خارج البيت.

فنظر إلي وألقى كتابه جانباً، استعرض جسدي بعينيه، تنهد، ثم جلس على حافة السرير قائلاً وهو يضرب بكفه على مكان إلى جانبه «تعالي، اقعدي هنا.» جلست لصقه فأزاح جسمه قليلاً، وشرح لي استحالة تحقيق ما أريد «أنت زوجة أبي أولا، وما ترغبين به مخالف للشرع ثانياً!»

قلت وأنا أضع يدي فوق يده: وإذا طلقني أبوك؟

لم يسحب يده من تحت يدي، لكنه قال «حتى لو طلقك، ستظلين محرمة علي، هذا هو شرعنا.»

قلت: أنا واثقة من أنني أحلّ لك إذا طلقني أبوك.

وقبل أن يجيبني عمدت إلى نبش غيرته: لنسأل الشيخ الجنزير، فهو الذي يبت في هذه الأمور.

تغيرت ملامحه وبدا مستفزاً «سبق وقلت لك لا تذهبي إلى الشيخ الجنزير مهما حدث.» نظرت في عينيه فرأيت فيهما بأساً وغيرَة! تمكنتُ من رؤية غيرته التي شغلت حيزاً في عينيه! فأسدلتُ على وجهي نقاب الخنوع قائلة: حاضر، لن أرى الجنزير ثانية.

فخرج ثم صاح بي «تعالي، افتحي البوابة مثلما أغلقتِها.»

لم تمض سوى بضعة أيام حتى قرر الرحيل عن البيت «ليس هرباً منك، إنما صوناً لك ولنفسي ولأبي، وبحثاً عن مستقبلي.» هذا ما قاله لي بعد أن وضع ملابسه في حقيبة حملها وخرج، من دون الاستجابة لتوسلاتي أمامه من أجل البقاء معنا.

أمر واحد طلبه مني وأكد عليه قبل أن يخرج «أستطيع أن أعرف

ما تفعلين حتى لو كنتُ في بلد آخر، لا تسلمي نفسك للشيخ الجنزير حتى لو تسلط عليك جني.» قلت: لكنك واحد من تلاميذه.

فهز رأسه كأنما ليمنع نفسه من قول شيء على درجة من الأهمية وقال «تلميذ الجنزير، صحيح، لكن لا تذهبي إليه.»

وعدته بما أراد على أن يخبرني أين سيقيم.

حينما رفض قلت له: لا أستطيع أن أعدك بشيء، لأنك ستتركني لسيّدك، الشيخ الجنزير.

فتناول ورقة وقلماً، ورسم لي موقع شقة استأجرها في جبل اللويبدة. أخذت الورقة وقلت: الآن أعدك بألا أراه.

لا أدري ما الذي جرى لي بعدها، فقد بدا لي أن في الحياة ما هو أكبر من بؤس بيتي وزوجي الشارد وأمي ونساء الحي ولغوهن. أحسست أن الدار غدت مهجورة، وأبا عزمي ليس سوى مخلوق تتناهشه أوهام النهاية، ويجفل أثناء نومه خوفاً من الجلطات.

فكرت بالخلاص منه، زادت أمي زياراتها لي، لاحظَتْ اكتئابي بعد أن هجرَنا عزمي، قالت لي بخبث «على الأقل، كان وجوده في الدار يسليكِ.»

صرت أتأمل الأشياء من حولي، لاحظت أن جدران البيت حزينة، وإسمنت أرضه متشقق، وفناء الدار أشبه بسجن، أما غرفة عزمي فقد أقفلتُها وخبأت مفتاحها بعد أن رتبت ما فيها، وعندما سألني رباح عن سبب إقفال تلك الغرفة الصغيرة التي تفوح منها رائحة العطر العجيب، قلت: قد يعود.

لكنه لم يعد. ورباح حاول العودة إلى الحياة، ورأيته أكثر من مرة، وهو يسكب بحرص، سائلاً أخضر في ملعقة ثم يتجرعها فتتقلص ثنيات

وجهه للحظة، ويعود بعدها إلى وضعه الطبيعي. سألته عن ذلك السائل فأجاب «دواء للسعال»، مع أنني سبق أن رأيت مثل تلك الزجاجة في الغرفة الدخانية عند الجنزير! لكن أمره لم يعد يعنيني، فرباح خرج من حياتي على الرغم من أنني أعيش معه في بيت واحد.

تقرب مني، أعطاني نقوداً، اشترى لي إسوارة، غير أنه صار ثقيلاً، وبدا لي أكثر هبلاً وبروداً مما كان، حتى أنني فقدت إحساسي بوجود رجل في بيتي. ليس مهما أن يكون من جنس الذكور، المهم أن يكون رجلاً.

عندما أيقن رباح أنني لم أعد راغبة في العيش معه، طلقني، فعدت الى بيت أمي.

مرت أوقات قاسية أحسست خلالها بفراغ الحياة وتفاهتها. اشتقت لعزمي، فكرت: ما الذي يجبره على إعطائي وصف بيته الذي أقام فيه إذا كان لا يريدني؟ أهي الغيرة من الجنزير أم الحرص عليّ أم الرغبة بي؟

قررتُ زيارته حيث هو.

تبين لي أن الوصف الذي رسمه على الورقة لشقته التي استأجرها في جبل اللويبدة كان أكثر دقة مما توقعت. وقد أمدّني هذا بالقوة والإقبال حين ضغطتُ جرس الباب الخارجي.

فتح الباب فوجدني أمامه، دخلتُ قبل أن يدعوني، أقفل الباب مشيراً إلى باب الصالة «من هنا.» قال، فدخلت وتبعني، صافحته وحاولت تطويق عنقه بذراعي فأمسكهما وأجلسني على مقعد طويل وهو يقول «ما الذي أتى بك؟» قلت وأنا ألف ساقي اليمنى على اليسرى: الشوق، ألا يكفي هذا؟

قال «وأبي، ما الذي سيقوله إذا لم يجدك في البيت؟» قلت: رباح طلقني.

صمت، لكن لم تبد عليه المفاجأة. شعرت أنه على علم بطلاقنا على الرغم من أنه لم يقل ذلك، تحدثنا قليلاً، وحين أخبرته أنني أنا التي طلبت الطلاق، هز رأسه قائلاً «توقعت». لكنني لاحظت أنه يحاول تجنب النظر إلى ساقي وصدري، ويكتفي بتوجيه نظراته نحو عينيّ.

سألني عما إذا كنت راغبة في شرب الشاي أو القهوة فوقفت: دلّني على المطبخ وما فيه وسأعد أنا الشاي.

قال «أنت الآن في ضيافتي، وستشربينه من يدي.» ثم توجه نحو المطبخ، فوقفت وتمشيت مستطلعة شقته، وجدتها مكونة من غرفة نوم تحتوي سريراً مرتباً، وخزانة بنية، ومرآة متوسطة، ومشجباً للملابس، وحماماً متوسط المساحة، ومطبخاً مستطيلاً، عدا الصالة والحديقة الصغيرة حولها. نظرت إلى عزمي من الخلف وهو يغسل إبريق الشاي، كانت قامته توحي بالقوة، وحركات ذراعيه مفعمة بالحيوية، اقتربت منه، أمسكتُ الإبريق الذي ملأه بالماء بعد تنظيفه: أنا سأعد الشاي.

قلت وأنا أشد الإبريق من بين يديه، تمسك به رافضاً إلا أن يقوم هو بتلك المهمة، وبينما نتجاذبه إذ بالماء ينسكب على تنورتي الخمرية ويغرقها بالماء. نظرت إليها وإلى ساقي اللتين ابتلّتا، ثم إلى عزمي الذي ظل واقفاً وصامتاً. لم ألحظ في وجهه ملامح الذنب أو الندم، مع أنه أشار إلى غرفة النوم «تستطيعين معالجة الأمر هناك».

سرت نحو الصالة، أخذت حقيبة كتفي الجلدية، دخلت غرفة النوم، أغلقتُ بابها خلفي، خلعتُ تنورتي وقميصي فلم يبق على جسدي سوى شلحة خفيفة قصيرة، نشرتُ تنورتي على مقبض الشباك الخشبي، وقفت أمام المرآة،فتحت حقيبتي، تزينت كما لو أنني أجهز نفسي لليلة دخلة جديدة.

حين ذهبت إلى الصالة وجدته يسكب الشاي في أحد الكوبين، نظر إلي ووضع ما في يده على طاولة صغيرة أمامه، استعرض جسدي

بعينيه، تنهد، جلست لصقه على المقعد الطويل، فأزاح جسمه قليلاً وقال «أنت تغوين الإنس والجن والحجارة، لكن ما تريدينه صعب!»

قلت وأنا أمسّد ركبته بكفي: ألا ترى بأنك تحدثتَ كثيراً في موضوع الشرع والحلال والحرام منذ أن تزوجني رباح؟ لكن رباح طلقني، لم أعد زوجة لأحد.

قال «لكنك تظلين من المحارم على الرغم من أنه طلقك، ثم إن ما تريدينه مخالف للقانون.» فحركت أُصابعي فوق ركبته وقلت بجرأة: هل أفهم من هذا أن مضاجعة امرأة من غير المحارم جائزة؟

قال «أتحدث عن الزواج». فسارعتُ إلى القول: أنا لا أتحدث عن الزواج، الآن على الأقل.

وقبل أن يعلق، لمست بأصابعي تلك المنطقة اللحمية بين كتفي اليمنى ورقبتي قائلة:

أحس بتشنج في كتفيّ.

ثم وقفت. أدرتُ له ظهري وأنا أمسد بكفي ذلك المكان القريب من كتفي فانحسرت شلحتي قليلاً وتجرأتُ: لماذا أنت بخيل إلى هذا الحد؟ ألا تستطيع استخدام يديك لتدلك مكان التشنج وتريحني؟

نهض عن المقعد وقال «ضعي كفيك على الحائط.» وضعتهما حيث أشار، فوقف ورائي. أمسك ما بين كتفيّ وصار يدلكهما بيديه القويتين وأنا أتأوه متعة وألماً، وفجأة سمعت هديره الرجولي، وأحسست بعاصفته تجتاحني من الخلف، ثم حملني بين ذراعيه القويتين إلى غرفة نومه، وألقى بي على السرير، ثم خلع ملابسه بسرعة ووثب عليّ كالنمر..

لن أستطيع نسيان ما فعله بي في ذلك اليوم. فقد أنهكني على مدى خمس ساعات! خمس ساعات من المتعة المجنونة. كان كالعاصفة المحشورة التي انطلقت فجأة. ظل يقلبني ويحملني ويلقي بي على

ظهري ثم بطني ويهيمن بجسمه القوي على كل بقعة في جسدي وجوارحي وروحي وعقلي، يضغطني فيسري في جسدي مثل وتد صلب لا ينثني، وكانت آهاتي وضحكاتي تزيده توثباً، بينما يعيش جسدي أمتع لحظاته منذ أن بلغتُ وعرفت أن في الحياة ذكوراً.

قلت له بعد أن استحممت للمرة السابعة وارتديت قميصي وتنورتي التي جفت: بوسعنا أن نتزوج.

فنفى وقال «يجب أن تتزوجي من أي رجل إلا أنا، ثم ما الذي يهمك في زواجنا بعد كل ما فعلنا؟»

قلت: ألا تغار إذا تزوجت من سواك؟

فأجاب «من سيغار هو الذي سيصير زوجك، يجب أن تتزوجي يا سندس.»

عدت إلى بيت أمي فتأملت وجهي وهزت رأسها كما لو أنها فهمت ما جرى معي «أين كنتِ طوال هذا الوقت؟» فأجبتها:

ضجرت وتجولت في وسط البلد.

فهزت رأسها ثانية «ماذا أفعل؟ سأصدّقك، وسأقول لك بأن طلاقك من رباح هو بطر ورفس للنعمة.» فأجبتها بأنها لا تعرف نعَمَ الحياة التي تتحدث عنها، وأكملتُ «ما زلتُ شابة وسأتزوج.»

صوت ما في أعماقي كان يقول لي إن رجلاً سيطرق بابي عما قريب. وظلت أمي تقول لي مؤنبة «كله منك» ثم تستدرك بإشفاق «الدنيا قسمة ونصيب، نصيبك سيأتيك عندما يريد الله». وكثيراً ما سألتها: وماذا لو لم يرد الله؟

فتتنهد مستغفرة مبتئسة.

لكن ذلك الصوت ازداد إلحاحاً عليّ، إلى حد أنني كدت أسمع طرقاً على باب دارنا.

بكر الطايل

تأملت هذه الحياة الفانية، وتوصلت إلى أن الموت أكثر يسراً من العيش في سبخة حياة لا سند للمؤمن فيها ولا عضد. حَسَبتُها وفكرت: طالما أنني مشتاق للقاء وجه ربي، فلماذا أتأخر وأهدر الوقت في حياة كلها عذاب؟

تبرمتُ أمام الشيخ الجنزير وبينت له ما يدور في رأسي، فأغلق عليّ كل المنافذ منهياً حديثه بقوله «عد إلى رشدك يا بكر.»

ثم مسد لحيته بأصابعه، ورشقني بنظرة أحسست معها برمح يمرق من بين عيني ويخرج من ظهر رأسي، لكنه لم يقل شيئاً.

أمي صارت تنظر إلي بازدراء، وتكرر تلك المقولة التي أبغضها «أنت السبب في فقرنا، الشيوخ الذين تدور معهم لن ينفعونا،» فأكتفي بالسكوت ولا أجيبها برّاً بها، وتفهّما لجهلها بتعاليم ديننا الحنيف. لكن أخواتي لا يهدأن، خصوصاً كبيرتهن، عتاب، التي رددت على مسمعي غير مرة، عبارة أرغمت نفسي على تجرّعها «لو أن الله يفرجها عليّ ويبعث لي بمن يتزوجني ويعرف قيمتي ويخرجني من هذه الزريبة.» أمي أيضاً استفردت بي وقالت «أختك عتاب كبرت، زوّجها لواحد من أصحابك الشيوخ.» ثم صمتت وقالت بنبرة اختلط فيها التحريض بالتمني «هل يمنعك الشيخ الجنزير من الشغل؟ هل يقول الله أن نموت جوعاً لتدور مع أصحابك الذين لا يحسنون غير طق الحنك والتحليل والتحريم؟» ثم أمسكت طرف ثوبها المهترىء وهزته قائلة بتأثر «والله إني لم أشتر ثوباً واحداً منذ أن مات أبوك، ولا أملك غير هذا الخَلق

الذي يكاد يتمزق.»

آلمتني كلمات أمي وحفرت في قلبي، فقررت البحث عن عمل، فأنا رجل تقي مستقيم، أقيم الصلاة وأؤدي واجبي تجاه ربي على الوجه الأمثل، ودرست حتى الصف الأول الثانوي، وقرأت الكثير من كتب تفسير القرآن الكريم، والسيرة النبوية الشريفة، وغيرها من الكتب التي أمدني بها الشيخ الجنزير، كما أن لدي ما يكفي من الجَلد والصبر، ولا بد لهذه الأمور من أن تعوض ما ينقصني من الشهادات بعون الواحد الأحد.

قرأت إعلانات الجرائد الكاذبة، درت على الشركات والمؤسسات، ذهبت إلى مجمّعات المواصلات والنقليات مبدياً استعدادي للعمل سائقاً، وتبين لي أنني لست سوى قطرة في بحر العاطلين عن العمل، أولئك الذين يتكاثرون كالنمل.

اسودت الدنيا في وجهي، صرت أتنهد ببؤس كلما حثتني أمي على البحث عن عمل، ولكي أشعرها بأنني أحاول فعل شيء، صرت أغادر البيت مبكراً، أتجول في الشوارع والساحات العامة بلا هدف غير الابتعاد عن البيت وإشعار من فيه بجدّيتي، لم أعد راغباً في العودة الى البيت إلا حين لا أجد مكاناً أذهب إليه، وقد قلّت زياراتي للشيخ الجنزير، لكنني لم أخالفه أو أنقطع عنه، ومع ذلك لم يسلني عن السبب، إنما كان يكتفي بتوجيه نظرة فاحصة إليّ كلما التقينا.

***

الشيخ عبد الحميد الجنزير

مـن يَقـدر علـى بسـط سـيادته علـى نفسـه وبدنـه يَصـر سـيداً للآخرين.

سـبحان الله. عزمي اسـتطاع أن يتحكم بنفسـه ويغذيها ويسـيّرها حسبما يشاء عقله الذي نما وأثمر قبل أوانه.

فبعد عامين من تسلمه مركز تحفيظ القرآن، عرف الكثير من خفايا عملنا، وأعد قائمة بلزوميات تحسين المركز وإعانته على أداء رسالته. تضمنت القائمة بنوداً كثيرة منها: تركيب أبواب جديدة لحماية ممتلكات المركـز، ودهـان الجـدران والسـقوف، وتركيب أجهزة جديدة للصوت، وتوفير مراوح وسجاد للمصلي، وشراء معدات تدفئة وأثواب ووجبات للصبية الفقراء وتقديم المعونات لهم، وإنشـاء مكتبة وشـراء حواسـيب وخلافها مما يجذب الدارسين..

عقدنـا جلسـة للجنـة المركـز، فأذهلتنـي قدرتـه على إقنـاع غالبية الحاضرين بضرورة توفير تلك المستلزمات التي قدرت تكاليفها بحوالي أربعين ألف دينار.

قلت: المبلغ كبير ونحن لا نملكه.

فأجاب «أنا مستعد لجمعه، دلوني على المحسنين الذين يتبرعون وأنا أذهب اليهم برفقة الراغبين منكم.»

قال الشيخ سـلامة أبو سـداد، أحد أعضاء اللجنة «المتبرعون ملوا وأصبحـوا مقتريـن لأن الدنيـا تغيـرت وصرنـا في آخر وقت،» فمد يده بثقة وقال «أعطوني قائمة بأسمائهم وعناوينهم وأنا كفيل بجمع المال منهم.»

كانت قد تراكمت لديه - جراء مواظبته على زيارتي ومرافقتي إلى غير مكان - دربة سريعة مكّنته من القبض على ملكات إقناع الآخرين، ومعرفة الكثير مما في دواخلهم، كما تعلم طرائق التحكم بنظراته من حيث ثباتها ونقلها الحر من مكان إلى آخر بلا تردد أو حرج، وإضفاء الجدية عليها في الوقت الذي يريد. وفوق كل هذا، فإن حُسن وجهه وصفاء صوته يعدّان خير معين له في مهماته.

بعد جلسة الشورى التي عقدناها، أوكلنا له مهمة السعي لجمع التبرعات من المحسنين داخل البلاد وخارجها، وزودناه بأسمائهم وعناوينهم ودفاتر الإيصالات، فابتدأ مساعيه لتحقيق ما وعد به.

استغرقت جولته سبعة وعشرين يوماً، ولما عاد، دعانا إلى اجتماع نقل إلينا خلاله كلاما حُصرُما، سمعه من متبرعين ادعوا وجود فساد في المركز واختلاسات من أمواله، وأبلغَنا أنه نفى ذلك بشدة في حضرتهم، لكنني استشففتُ من نظراته وطريقته في الحديث أنه أعد عدته لمواجهة أعضاء اللجنة، وهو ما حدث بعد هنيهة، فقد أخذهم على حين غرة عندما طلب كشفاً بوجوه الإنفاق، والحساب المصرفي، وقوائم الهبات والتبرعات على مدى السنوات الست الماضية، كي يزود بها أولئك المحسنين المشككين، ويبين لهم بالوثائق أن لا فساد في المركز.

لكنهم لم يجدوا سوى أوراق العامين الأخيرين فقط، أما ما يخص الأعوام التي سبقتها فلم يعثروا عليها. امتعض وأطرق قليلاً، وقبل أن يعلق سألته عما إذا جمع المال الذي وعد به أم لا، فقال «المال بحوزتي، جمعت مئة وثلاثين ألف دولار، لكن لا أستطيع إيداعها في الحساب الا بعد التحقق من سلامة الأوضاع المالية السابقة للمركز.»

ضج أعضاء اللجنة وحملوني مسؤولية الفوضى التي وضعنا فيها، لأنني أنا الذي زكيت تعيينه مديراً للمركز، وأنا الذي أوصيت بتفويضه

جمع المال وتسليمه قوائم بأسماء المحسنين وعناوينهم.

وقفتُ ولملمت عباءتي قائلاً بنبرة لم أستخدمها منذ زمن:

مَن تجلس الآن أمامهم هم ثمانية من شيوخنا الذين لا يقطعون فرضاً ولا يرقى اليهم الشك ولا يتقاضون قرشاً واحداً لقاء خدماتهم الجليلة، بل يدفعون من جيوبهم، أنت ما زلت غراً لا تعرف عفاف الكبار ولا صولات جهادهم لأنفسهم، إذا لم يعجبك كلامنا، دعنا نبحث عن رجل مكتمل المدارك لنسلمه إدارة المركز، ولكن بعد أن تسلمنا دفاتر الإيصالات وما جمعت من أموال.

لم يظهر عليه أنه بوغت بما قلت، فقد بادرني بنظرة من ذلك النوع الذي يقلل من وزن الآخرين، واستعرضَت عيناه كل الحاضرين، ثم خرج صوته من حنجرته مستقيماً لا تشوبه انثناءة ولو بسيطة «المال محفوظ، لا خوف عليه، لكنني تعهدت للمتبرعين أن لا أسلمكم إياه إلا بعد مراجعة حسابات السنوات الست الأخيرة.» وجزم بأنه لن يضع قرشاً واحداً في حساب المركز قبل إجراء تلك المراجعة! وفوق هذا فقد نطق عبارة مبطنة «سأترك مركزكم لتعينوا شيخاً ناضجاً عفيفاً من بينكم أو من مدرستكم التي عرفت حقيقتها.»

أصيب الحاضرون بالسكات، فيما خرج هو من دون استئذان.

خالطني شعور كذاك الذي ينتاب شخصاً ركب نمراً فركض وهو على ظهره، ولم يعرف كيف يترجل عنه. لكنني مع ذلك، ابتسمت في نفسي.

بعد شهرين من ذلك الاجتماع، قام بتأسيس مركز جديد في منطقة الدوار الخامس غرب عمان، وأسماه «مركز حنظلة بن أبي عامر» بعد أن حصل على التراخيص اللازمة. كما أقنع مدرس الصبية بترك المركز والانضمام اليه، بينما انهمك الموظفون الثلاثة ومعهم اثنان من أعضاء

المجلس بالبحث عن السجلات والدفاتر القديمة.

لقد شق الأمر عليهم، وأصابتهم نوبات من الغضب التي لم ينفع معها شراب الزهور المغلية ولا اليانسون ولا حتى استنشاق أبخرة المسك من فوهات القدور. الشيء الوحيد الذي خفف من احتقانهم هو، تفكرهم بوسيلة لكبح جماحه، وإضمارهم له ما يستحق من عقاب جزاء استيلائه على أموال المركز التي قرروا استرجاعها مهما كلف الثمن.

كان بوسعي اغتراف الشر من مناهل الغيرة في نفوس تلاميذي، أولئك الذين حسدوه منذ أن تسلم إدارة المركز. لكن حين علموا أنه استولى على التبرعات بحجة تدقيق الحسابات، أصابهم الغضب والرغبة في الانتقام منه، أما هو فقال لي ذات مرة عنهم «أحبهم، لكنهم ليسوا أهلاً للإعجاب ولا للثقة، فهم مستكينون لفقرهم، راضون بفتات مساعداتك لهم، مستسلمون لما ستؤول إليه أحوالهم، ويعتقدون أن الله خلقهم كي يكونوا هكذا، بينما خلق الآخرين ليكونوا في مراتب أفضل على سلالم الفطنة والتقوى والثراء.»

لا يحتاج الأمر إلى إجهاد للعقل، فما قاله لا يحتمل غير تفسير واحد: عزمي لم يحبهم ولم يحترمهم، ويريد أن يكون شيئاً مهماً.

لكن أحد التلاميذ، عاصم كساب، قال حين علم بأمر التبرعات «لا أستبعد انحراف عزمي عن السبيل في هذه الظروف التي تعيشها أمة الإسلام، يجب أن نستعيد المال منه ولو بالقوة، فالفساد لا يحارب إلا بالسيف، لنعد الى تاريخنا وإلى قوة إيماننا وهيبته التي لم تتحقق بغير السيف.»

عبد المهدي ربيع الفارع الطول ذو العين الكريمة، وقف قائلاً

باحتقان «يا سيدي الشيخ، ألم تقل لنا إن الاسلام مستهدف؟ وان الناس أصبحوا قاب قوسين أو أدنى من الكفر؟ انظر الى ما فعله عزمي؟ ألا يعد هذا غزواً على أموال المسلمين؟ انظر الى السماء التي لم تمطر حتى الآن، مع أن آلافاً من المصلين أدوا صلاة الاستسقاء. ألا يدل هذا على غضب من الله؟ ألا يكفينا ما تفعله الحكومة والتجار الذين لا يعرفون الله؟ لقد جوعوا الناس وعروهم من ثيابهم. ثم انظر الى النساء السافرات الساقطات في البلاد، والى بعض أحياء عمان، خصوصاً وسط البلد والشميساني والصويفية، حيث الملاهي وأندية الليل الملأى بالسكارى والخالعات المستوردات من بلاد الضلال؟ انظر الى قضية فلسطين التي صار الكل يتجنبها مثلما الجمل الأجرب على الرغم من عدالتها وقداستها، ما الذي حدث لهذه الأمة؟ وكيف نسكت على من استولى على أموال المسلمين؟»

وقبل أن أرد، قال أحدهم وهو يمسد لحيته السوداء «المهم، ما العمل؟» فانبرى له بكر الطايل «العمل؟ العمل موجود في قول رسولنا صلوات الله وسلامه عليه، فحين سئل: أيكون بعد الخير الذي حصلنا عليه شر يا رسول الله؟ قال نعم، قيل فبمن نعتصم؟ قال: بالسيف».

نهضت قائلاً: هذا الحديث مشكوك في صحته.

وذهبت إلى حجرة المداواة حيث عزلت نفسي نصف ساعة، ثم عدت إليهم وقلت:

إذا وضعنا تسامحنا وراء ظهورنا، واندفعنا وراء رغباتنا في الانتقام، فسنصبح مغامرين خاسئين. يا إخوتي في الله، ليس الإسلام وحده هو المستهدف، إنما نحن أيضاً، وعلينا شحذ هممنا، فنحن لا ندري ما الذي يمكن أن يحدث معنا بعد شهر أو عام أو أكثر، أما أن نضع أنفسنا تحت عين الحكومة من أجل عزمي الوجيه وأمثاله، فهذه مغامرة لا تحمد عقباها، خصوصاً أن الشكوك بدأت تراودني

حول وجود صلة بينه وبين طرف أو أطراف في الحكومة، ونحن لا نريد مواجهة هذه الحكومة الآن.

ما إن أنهيت حديثي حتى وقف بكر الطايل وقال «وهل نتركه يستولي على الغنيمة بهذا اليسر ويستفرد بها ونحن لا نملك ثمن طعامنا؟»

حين سمعت كلمتي الغنيمة والاستفراد اللتين نطقهما، شعرت أنه يريد حصة من التبرعات لا غير، فقلت متجاهلا نواياه: هذه ليست غنيمة، إنها أموال قدمها محسنون إلى المركز، ولكن اتركوا عزمي لي، يوماً ما ستسمعون بآذانكم وترون بأعينكم.

أعرف أن مبالغة بكر الطايل في غضبه وسخطه، يرجع إلى نجاح عزمي وتفوقه، لكنني توصلتُ من دون جهد إلى أن بكر لن ينجح في حياته، إذ من المؤكد أنه في قراراته يتمنى النجاح وامتلاك ما لدى عزمي من حنكة وذكاء، فكيف يمكن للنجاح والفطنة أن يستجيبا لمن يحسد الآخرين على امتلاكهم لهما؟ كيف يمكنه عقد السلام مع النجاح إذا كان يحاربه حين يمتلكه الآخرون؟

منذ ذلك الحين أخضعت عقل ذلك الشاب النحيل، بكر الطايل، إلى رقابتي.

***

جبران

لـم أكـن مطمئنـاً لعلاقـة عزمي مع الجنزير، ولم أكن راضياً عنها. فحين تكون العصا معوجة فمن المستحيل أن يستقيم ظلها. نبهته إلى خطورة ذلك الرجل ودهائه، خصوصاً أنه يكبره كثيراً، وخبرته في الحياة كفيلة بإحالة عزمي إلى مجرد ظل له، ولو قمنا بضغط الزمن لتوصلنا من دون جهد، إلى أن عزمي كان في حفاظاته حين بلغ الجنزير الرابعة والثلاثيـن مـن عمـره. مـن الصعـب أن تكون العلاقـة متكافئة على هذا النحو، على الرغم مما يتمتع به عزمي من ذكاء.

توقعاتي صحت، فكل ما ذكرته وسـأذكره قاله لي عزمي بعد أن توطدت علاقته مع الجنزير.

أسـر لـي «عندمـا اصطحبنـي الجنزيـر معـه فـي جولـة الخيـر إلى المسـلمين في بلاد الإنجليز، جلسـنا مع مجموعات منهم. شـرحنا لهم بما امتلكنا من قدرات معززة بآيات قرآنية كريمة وأحاديث نبوية شريفة، حاجة إخوتهم من فقراء المسلمين في بلادنا إلى العون، وإلى إنشاء مبنى لرعاية الأيتام المعوزين. وتمكنا من جمع مبالغ لا بأس بها، بمساعدة اثنيـن ممـن يعرفهـم الشـيخ الجنزير، ويحظيان بثقة واحترام المسـلمين المقيمين في تلك البلاد. وفي الليلة التي سبقت مغادرتنا الفندق حيث أقمنـا، ذهبـت إلـى غرفة الشـيخ كـي أتحادث وإياه. وجدت باب غرفته مشقوقاً، ورأيته من خلال الشق بملابس نومه: سروال أبيض طويل ذو أليـة فضفاضـة متدليـة. صـدارة كالحـة على جرزة داخليـة بيضاء طويلة الكمين. أما رأسه فمكشوف بلا عمامة. بدا لي رجلاً عادياً مجرداً من

الهيبة والهالة التي تميزه. كان واقفاً يفرز رزم النقود التي جمعناها على طاولة مستديرة، وإلى جانبها حقيبة مفتوحة. رأيته يضع في كل مرة رزمة على الطاولة وأخرى في الحقيبة. بدا في عجلة من أمره، كمن يرتكب جرماً يخشى انكشافه، ثم حمل الحقيبة وما فيها ووضعها في مكان لم أره من ذلك الشق. طرقت الباب ودخلت ففوجىء وتغير لونه، لكنه سرعان ما استعاد سيطرته على نفسه. قلت له: وجدت الباب مفتوحاً فدخلت.

هز رأسه «الظاهر أنني نسيته.» وقبل أن أجلس طلب مني عد الرزم التي على الطاولة فوجدتها ستاً وأربعين رزمة. لم أسأله عن الحقيبة. وهو لم يتطرق إلى ذكر ما وضع فيها من نقود.

كانت ثقتي به قد اختلت يوم وجدت سندس في داره بحجة مداواته لها، لكن ما رأيته ذلك المساء في الفندق قوض كل ما تبقى من تلك الثقة. لم يعد الجنزير مثالي الذي رسمَته مخيلتي له في غمرة اندفاعي نحو دروسه ومواعظه، وأحسست أن كل شيء ممكن في هذه الحياة، طالما أن الشيخ الجنزير يقترف مثل تلك الأفعال.»

أخبرني أيضاً، أن الجنزير جره إلى مشاركته في تنفيذ لعبة مركز ابن الحارث لتحفيظ القرآن، بما في ذلك تبادل الأدوار أمام تلاميذ الجنزير ولجنة المركز الذي كان يديره. وبالطبع، لم يكن ما باح به عزمي غريباً علي حين قال «لم يبد على الجنزير أنه يقوم بعمل غير شرعي، على العكس من ذلك، كان مصراً على أن أعضاء اللجنة يختلفون معه حول حصة (القائمين عليها) ويعرقلون تقديم المساعدات إلى من يستحقونها، لتحال إلى من يرغبون بتنفيعهم، ولا بد من أن تبقى الأموال في أيد أمينة، وهذا لا يتحقق إلا إذا أخذ حصة كبيرة ووزعها على الفقراء بمعرفته.»

يوم أسر لي بهذه المعلومات كنت منشغلاً مع رفاقي السابقين وأصدقائي بالحوارات الحادة حول اتفاقية أوسلو، التي وقعتها منظمة التحرير الفلسطينية مع إسرائيل، على الرغم من مرور ثلاثة أعوام على توقيعها، وكنا قد انقسمنا بين مؤيد ومعارض لها منذ الإعلان عنها، وقد شاركت في أكثر من ندوة للحديث عن هذه الاتفاقية التي رأيت فيها مقدمة لتحقيق شيء ملموس على الأرض، بدلاً من الاكتفاء بالضجيج والخطب التي ملها الناس، لكنني تعرضتُ إلى انتقادات لاذعة من قبل الكثيرين الذين اتهموني بالدعوة إلى تطبيع العلاقات مع إسرائيل، على الرغم من تحفظي على بعض بنود الاتفاقية وملاحقها. وعلى فكرة التطبيع برمتها.

انشغلت أيضا بالدعوات التي صارت زوجتي رابعة تقيمها لصديقاتها وأزواجهن في بيتي، وقد أحسستُ في ذلك الوقت بأن رابعة لا تفعل كل هذا ولا تبدد النقود لوجه الله أو لسواد عيونهن، فأنا أعرفها جيداً، وأعرف أنها ليست مستعدة لأن تخسر ذبابة إلا إذا ضمنت أن تصطاد بها سمكة من السلمون. فكرت: لا بد من أن تكون وراء دعواتها غاية ما.

لكنها لم تفصح عما تخطط له، وكانت تتصرف مع الجميع بود وبراءة يصعب التشكيك فيهما من قبل صديقاتها أو أزواجهن، وقد اقترحت عليها ذات مرة، دعوة عزمي إلى تلك اللقاءات، عله يجد من تناسبه من الفتيات اللواتي يأتين مع أمهاتهن إلى بيتنا، إلا أنها رفضت بشكل قاطع، وبينت لي أن نهاية عزمي لن تكون سعيدة، وحين سألتها عن السبب الذي دعاها إلى توقع تلك النهاية قالت «من يريد كل شيء لا يحصل على شيء.»

ما زادني قلقاً على عزمي، أنه انزلق في متاهات الجنزير بوعي

منه، فقد اقتسم معه ثلثي التبرعات التي جمعها للمركز، بحجة توزيعها على المحتاجين الذين يعرف الكثيرين منهم،بسبب عمله السابق في أحيائهم وأزقتهم. أما الثلث الذي تبقى فأقام فيه مركزاً جديداً بالاتفاق مع الجنزير الذي مثل دوره بإتقان أمام تلاميذه ولجنة المركز حسب قول عزمي.

مصدر قلقي على عزمي، أن الكوابح التي كانت تصونه وتمنعه من الزلل والخطأ، انهارت بعد رؤيته ما فعل الجنزير في الفندق، ومشاركته له في مؤامرة المركز، وصار قابلاً لأن يفعل ما هو أكبر من ذلك. كما تورط في مشكلة الإيصالات التي حررها للمتبرعين بالمبالغ التي تسلمها منهم ووقعها لهم، بينما لم يوقع الجنزير على شيء. وفوق كل هذا، بدا عزمي أمام لجنة المركز والتلاميذ غازياً على أموال المسلمين حسب تعبيراتهم. أما الجنزير فمن الصعب الإمساك به أو إثبات شيء عليه!

أمر واحد أحسستُ أنه قد يعين عزمي على تحقيق بعض التوازن في حياته الصاخبة، إنه الحب. فقد ذكر أثناء حديثه عن عمله في الأحياء الفقيرة أنه رأى فتاة اسمها فاتن الريشة، ووصفها قائلاً إنها جميلة ورقيقة وتلقائية. تحدث عنها بطريقة العاشقين، فشعرت أن الحب قد تسلل إلى قلبه، لكن حين أبديتُ استعدادي للذهاب معه من أجل خطبتها له إذا كان راغباً، انتفض قائلاً «فكرة الزواج غير واردة عندي.»

بعد أن عرفت تلك التفاصيل وغيرها، أحسستُ بأن عزمي تحول إلى مُركّب عصيّ على الفهم. ذلك أنه خضع لتجاذبات قاسية منذ طفولته، ففي حين كانت أمه جليلة تحنو عليه وتعلمه الرقة والتسامح وأساليب الرقي والتصالح مع الحياة، فإن والده رباح كان على العكس منها، فظاً مقتراً ومقاوماً للتطور، ومعنياً بمحو ما تعلمه جليلة لابنها. ثم

تتلمذ في شبابه على الإيمان والخشوع والاستقامة وفعل الخير وغير ذلك مما تزخر به الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، ليكتشف أن من علّمه كل ذلك، الجنزير، يتصرف على خلاف ما يقول. يضاف إلى هذا وذاك، أن سندس غرست في نفسه صراعاً فريداً من نوعه، وهو ما أدى إلى تخليه عن بيت أبيه. هو من أخبرني بذلك.

صحيح أنه قام بالتكفير عما فعل حين تصدق على الفقراء ببعض ما أخذه من تلك التبرعات، كي يحس بشيء من الإرتياح. لكنه بعدها، خضع إلى نوع غريب من السلوك الذي وصفه بقوله «أدمنتُ تقديم المساعدات والاستمتاع برؤية الفرج حين يتجسد في تعابير الفقراء وتقاطيع وجوههم.»

لو توقف الأمر عند هذا الحد، لظل في حدود النبل والإحسان والرغبة في إنقاذ البائسين، لكنه فاجأني بقوله «صرت أفكر في كيفية الحصول على مزيد من الأموال كي أرى تلك الملامح الفرِحة على وجوه المعوزين، وحاولت إقناع الجنزير بجولة أخرى للخير، أو تسليمي تفويضاً لجمع الأموال من المتبرعين في بعض البلدان العربية والإسلامية، لكنه رفض الفكرة، فبدأت التفكير في العثور على وسائل جديدة لجمع المال بعيداً عنه.»

لم أقتنع بأن ما يريده عزمي هو مساعدة الآخرين وحسب، لا بد أن في ذهنه ما هو أبعد من ذلك. كما أحسست أن فكرة التكفير عن أفعاله، التي كان يلجأ إليها كلما أحس بارتكابه خطأ ما، لم تكن أكثر من محاولة لإعادة ترتيب علاقته مع ذاته.

***

سندس

زارتني واعظة منقبة في بيت أمي، فعرفت سبب زيارتها قبل أن تبدأ حديثها معي. حاولت تلك المرأة إقناعي بارتداء النقاب، وستر شعري عن أعين الرجال. ذكّرتني بعذاب النار وبالجنة، وبأطماع الرجال الذين يستسهلون المرأة السافرة، ويفضلون المرأة المنقبة المحجبة لأنها لا تنكشف عليهم وعلى سواهم، ثم مدت يدها إلى شعري ومسدت خصلة منه قائلة «حرام أن يرى الغرباء هذا الشعر الناعم الجميل، خبئيه لزوجك القادم.» ثم مدت أصابعها إلى فتحة فستاني العليا، لامست ما بين نهدي وقالت «هذان الثديان ما خلقا كي يحرضا الرجال فيرجموهما بسهام نظراتهم وشهواتهم، ادخريهما لزوجك القادم الذي يُحِل الله له أن يفعل بهما ما يشاء.»

بقيتُ صامتة فأكملت «إذا تنقبتِ، فأنا أتعهد بتزويجك من رجل تقي صالح خلال أقل من شهر.» قالتها بثقة.

تحدثتْ كثيراً حتى أحسستُ بتعذر سكوتها أو توقفها، فقاطعتها: أنا راضية بما أنا عليه، وإذا كان الرجال يفضلون المرأة المنقبة لأنها لا تنكشف عليهم، فما أدراهم ما إذا كانت بشعة أم جميلة حين يتزوجونها؟ أم أنهم سينتظرون حظهم كمن يشتري بطيخة؟

طال حديثنا إلى أن وصلت ذلك المنعطف الذي توقعته، فقد قالت «هل سمعتِ بالشيخ الجليل عبد الحميد الجنزير؟» تظاهرتُ التذكر: أظنني سمعت به.

فعدّدَتْ مناقبه وتقواه وصلاحه وكل ما جاد به لسانها من صفات

قربته من الأولياء، ثم قالت كمن تنقلُ خبراً على درجة كبيرة من الأهمية «الشيخ الجليل عبد الحميد الجنزير يرغب في الزواج مرة رابعة، ليس لديه غير امرأتين، أم أولاده التي لا يعيش معها، والثانية تعيش بعيداً عنه مع ولديها، أما أول امرأة تزوجها فقد طلقها بعد أشهر من زواجه منها، ويريد الآن امرأة صالحة، والله أعلم أن أناساً نصحوه بك، لكنه لا يستطيع الزواج منك إلا إذا تحشمتِ وتنقبت، هذا شرط.»

لم أتمكن من كتمان ضحكتي التي انطلقت رغماً عني، فأدت إلى ارتباك تلك المرأة. «لا أرى سبباً للضحك» قالت من دون أن أرى ملامحها، فقد ظل النقاب مسدلاً على وجهها، على الرغم من أننا كنا وحيدتين في الغرفة. قلت:

صححيني إذا كنت مخطئة، فما أعرفه هو أن الضحك ليس حراماً.

صمتت المرأة فقلت: الجنزير يريد الزواج مني بشروط؟ وبعد أن تجاوز الستين من عمره؟ ولديه زوجتان عدا التي طلقها؟

فردّت «تتحدثين وكأنك تعرفينه.» قلت: أرسلك لتقنعيني بالموافقة على زواجه مني؟

قالت «أنا امرأة مؤمنة، والزواج فعل خير أحله الله، ولا أستطيع التقاعس عن فعل الخير، فالحسنة بعشرة أمثالها، لكن لم تجيبيني، هل تعرفين الشيخ من قبل؟» فقلت: ومن لا تعرف الجنزير؟ يبدو أنك الوحيدة التي لا تعرفينه. على كل حال، الجنزير يصلح لأمور كثيرة إلا الزواج، أظنك غير متزوجة، لم لا تتزوجينه أنت طالما ترين فيه مثالاً للصلاح؟

لا أدري ما إذا كانت تلك الواعظة المنقبة على علم بأنها ثامن

امرأة تزورني للغاية ذاتها منذ أن طلقني رباح، أم أن الجنزير لم يخبرها بذلك؟

بعد أيام طرق بابنا صبري أبو حصة، طليقي الأول حسب عقد القران. كان يرتدي قميصاً ليلكياً على بنطال أسود. بدا لي سميناً بوجه سميك وشعر وخَطَهُ الشيب. أدخلته أمي دارنا وأجلسته في الفناء، صافحْتُه ببرود، فسارع إلى القول «طلقت زوجتي قبل عام وأريد ان أتزوجك من جديد.»

قلت: وهل تملكُ قرارك؟

فأجاب «أنا رب أسرة، ولدي طفلان يعيشان الآن معي، في دارنا.»

فوجئت: طفلان؟ وتريد أن تتزوجني؟

فردّ «لو لم أكن راغباً في الزواج منك لما جئت إلى بيتك برجلي.»

ثم صار يشرح لي كم كان أحمق حين أطاع والده وطلقني، لأن روحه ظلت معلقة بي. أسمعني الكثير من عبارات الإطراء والإصرار على الزواج مني.

أمي لم تعلق، مع أني لحظت في نظراتها ملامح القبول. كانت أمي مهتمة أكثر مني بزواجي، فقد سألتني كثيراً عما أفعل كلما خرجت من البيت وإلى أين أذهب، وقد رأيت في نظراتها وأسئلتها شكوكاً بي. والواقع أنها كانت على حق إذا اعتبرتُ أن الحق هو ما تعتقد به هي لا ما أراه أنا، ذلك لأنني كنت أذهب إلى بيت عزمي في جبل اللويبدة من وقت لآخر، أقضي معه أوقاتاً حميمة ملتهبة أعيش على ذكراها كلما خلدت إلى فراشي، كان في كل مرة يبتكر وسائل جديدة

لإشعالي، حتى إنني صرت أقبل يديه وكل بقعة في جسمه الصلب القوي. لكن، حين ذهبت إلى شقته في المرة الأخيرة وجدت على بابها ورقة مقواة مكتوب عليها: «شقة للإيجار».

كدتُ أصاب بالجنون، وتوترت علاقتي بأمي وبنفسي. حاولت العثور على بيته الجديد بلا جدوى، ذهبت إلى شقته وسألت صاحبها عما إذا كان يعرف أين ذهب، فرمقني بنظرة مستنكِرة، ثم هز رأسه قائلاً «لا أعرف.» طرقت باب رباح على الرغم من معرفتي أنه لم يره ولم يسأل عنه، لكن ما أصابني دفعني إلى فعل أي شيء، وحين فتح رباح البوابة فوجىء وقال «تفضلي». كان الانكسار واضحاً على قسمات وجهه التي تجعدت بسرعة لم أتوقعها، سألته عنه، فنظر في وجهي كأنما ليذكرني بأنه عارف بحدوث شيء بيني وبين عزمي أيام كنت زوجته. قال «علمه عند الله، معقول أنك لم تلتقي به منذ أن رحل؟» قلت: لا. فبرم شفتيه وأمال رأسه ورفع كتفيه.

حرت في أمري، حتى أنني فكرت بالذهاب إلى الشيخ الجنزير لأسأله عنه، لكنني تذكرت ما قاله لي عزمي، فألغيت تلك الفكرة الطائشة، وصرت أعيش على ذكرى الساعات الممتعة التي تقلبتُ فيها وصرخت وضحكت وبكيت وأنا على سريره. لكن نداء مطمئناً ظل يهدهدني ويراود نفسي: يوماً ما سأجده.

عندما جاء صبري أبو حصة إلى بيتنا، قلت في نفسي: عزمي قال لي وأنا في شقته «تزوجي يا سندس،» فلماذا لا أوافق على صبري إلى أن أبلغ مرادي؟ عزمي بعيد الآن، وحين يأتي الوقت المناسب أتخلص من هذا النذل، وأنتقم لنفسي منه بسبب تخليه عني يوم زفافنا الأول.

موافقة. قلت له وأكملت: لكن عليك أن تعيد الطفلين الى أمهما، أنا لا أحتمل الأطفال وصياحهم وفوضاهم. أما البيت فلا بد

مـن الرحيـل عـن دار أبيـك والإقامـة فـي بيت وحدنـا، أبوك بالذات لا أستطيع رؤيته.

فابتسم «لن تري أبي أبداً، لأنه مات قبل عامين.»

لم أترحم عليه، أمي هي التي فعلت.

تأمل وجهي وأكمل «مستعد للرحيل الى بيت جديد، لكن زوجتي السابقة تزوجت ورمت الطفلين في وجهي، أين أذهب بهما؟»

فقلت: عند جدتهما، أمك.

استغرق إقناع أمه شهراً كاملاً، ثم رضخت أخيراً، فسجلتُ بذلك هدفي الأول في مرماها.

تزوجنـي صبـري وأقـام حفـلاً عاديـاً في قاعة صغيـرة على طريق عمـان الزرقـاء. حضـر الحفـل أقاربه وبعض أقاربي وجيراننا وأصدقاؤه وزوجاتهم.

لستُ محظوظة في حفلات الزفاف، فحفل زفافي الأول لم يكتمل وفشل بشكل يثير الشفقة والغيظ في آن معاً، ورباح تزوجني من دون حفل بسبب موت زوجته جليلة، أما الحفل الذي أقامه صبري بمناسبة زواجنا للمرة الثانية، فقد كان بائسـاً، فالنسـاء تجمعن في القاعة، بينما جلس الرجال على كراسي خارج القاعة منعاً للاختلاط، وقد رأيت وأنا جالسة على (كرسي الصمدة) العالي إلى جانب صبري، النساء اللواتي كـن ينظـرن إلـيّ بعيـون مفتوحـة تكاد تخرج من محاجرها، ويتهامسـن بملامـح لا تخلـو مـن الكيـد كلمـا قـرب وجهه مني، متـودداً أو مغتنماً فرصة رقص بعض الفتيات والنسوة أمامنا.

امرأتان لم تكونا على ما يرام في ذلك الحفل، أمي التي بدا على وجههـا التوجـس أثنـاء جلوسـها بين قريباتنـا وجاراتنا، وأم صبري التي رفضت الاستجابة لكل محاولات النسوة جذبها من يدها كي تشاركهن الرقص في عرس ابنها.

في ليلة دُخلته علي، التي تمت في البيت الذي استأجره قرب إسكان الصحفيين في طبربور، أدركت كم هو شاسع الفرق بين عزمي وصبري. فعلى الرغم من أنه كان متزوجاً ومجرباً، إلا أنه أغلق باب غرفة نومنا بانحناءة تشير إلى خجله أو حرجه، ثم جلس عند حافة السرير ببدلته الكحلية، ووضع كفيه على خديه في مشهد غير مفهوم. ناديته وأنا واقفة أمام المرآة ليساعدني في فك سحاب فستان زفافي، فتقدم مني متعثراً بحافة السرير، وأمسك زاوية السحاب بيدين رخوتين، ثم سحبه دفعة واحدة وعاد إلى مكانه على السرير. قلت وأنا أخلع فستاني: ألا تريد تبديل ثيابك؟

فأجاب كمن تذكر أمراً منسياً «سأبدلها.» ووقف ليخلع بدلته، كأنما كان ينتظر الإذن مني.

دخل عليّ بطريقة عادية تخلو من الإثارة، مع أنه كان متعلقاً بي منذ زفافنا الأول وطلاقه لي في المحكمة. أنا أيضاً لم أكن متحمسة لدُخلته علي، أحسست بانكسار شيء في داخلي تلك الليلة، أما هو فعلى الأغلب أن شيئاً ما في نفسه كان قد تهشم.

سارت حياتنا بشكل رتيب بعد ذلك الزواج، أما في الليل فقد كان أداؤه في السرير رديئاً وصبيانياً. لم يأخذني رغم مواقعاته لي في السرير، في حين أن عزمي استولى عليّ تماماً، ما هذه الفوارق العجيبة بين الرجال؟

بعد أشهر من زواجنا، هاتفني عزمي.

عندما رن جرس الهاتف في بيتي، كنت أنفض الغبار عن زوايا غرفة نومي وصبري. أحسست بأن ذلك الرنين مختلف عن سواه، رنين يشبه النداء، يستحثني ويكاد ينطق بأن وراءه أمر مهم.

وضعت منفضة الغبار على شرشف السرير ذي الكشاكش البيضاء،

رفعت السماعة لأتلقى اتصال عزمي الذي انتظرته طويلاً.

كلماتـه الهادئـة عبـر سـماعة الهاتـف احتفظت بنفاذهـا، وذكّرتني بأوامره التي نفذتُها برضى أيام عشت معه في بيت رباح، تلك الكلمات أعادت إلى صوتي رنة الفرح الذي هجرني، حتى انني تنبهت حين رأيت عبـر زجـاج النافـذة مسـاحة الأرض الخاليـة قرب بيتي، إلى أن الأرض فـي ذلـك الربيـع كانـت أكثـر خصوبـة مما اعتقدت في غمرة انشـغالي بسـخافات بيتي، وأن الأزهار البرية أكثر تفتحاً وابتسـاماً، والأعشـاب أكثف مما رأت عيناي من قبل.

لم تستغرق تلك المكالمة أكثر من دقيقتين، لكن روحي تقافزت في أنحاء الغرفة وخارجها، ونسيت زوجي صبري الذي كان في عمله حينئذ.

اسـترخيت علـى السـرير، أنعشـني ذلـك الإحسـاس المفاجـيء بعذوبـة الأشـياء، لكننـي نهضـت بسـرعة حيـن تذكرت أنـه يريد رؤيتي بعد ساعتين.

وقفـت أمـام مرآتـي، تحققـتُ مـن نضارتي وغوايتـي، نظرت إلى صـورة صبـري علـى الكومودينـو البني، انتبهت إلى الغبار الذي حجب جـزءاً مـن رأسـه وأذنـه اليمنـى، فبـدا في صورته كأنما يهـم بالنظر إلى الوراء.

أمسـكت المنفضـة ذات الوبـر الأصفـر، أكملـت عملـي في زاوية الغرفـة، فدمـرتُ بيوتـاً متقاربـة لعناكب صغيرة اختارت الإقامة في تلك الزاويـة، ولـم أدر كيـف أننـي فـي عذوبة تلك اللحظات، أحسسـت بأن الأيام والشهور التي مضت قد تساقطت مع بيوت العناكب المثابرة.

***

بكر الطايل

لما تقطعت بي سبل العمل، صرت أعاني هموماً جديدة، منها كيفية الإجهاز على نهار آخر من أيامي التي صارت أطول من ذي قبل، ثم كيفية قضاء ليلة أخرى من تلك الليالي التي طالت واستطالت، وحرمتني نعمة النوم التي وهبها الله تعالى لكل خلقه، وحتى ساعات نومي المتقطعة القصيرة، فقد خَلتْ من الأحلام. لم أعد أحلم! وراودتني أفكار كثيرة استعذت بالله منها، وصارعت الشيطان الذي وسوس لي بأمور لا يقرها ديننا الحنيف، حتى إنني رأيته متجسداً أمامي في إحدى ليالي أرقي، وخاطبني بنشاز صوته البغيض «أنت لم تخلق لتتفرج على الحياة، بل لكي تفهمها، ولكي تفهم الحياة عليك أن تعرف أولاً من أين تؤكل الكتف.» فوجدتني أقول «أنا لا أثق بهذه الحياة الدنيا فما قيمة فهمي لها؟» ثم انتبهت إلى أن الشيطان جرّني إلى محاورته في ساحته الآثمة، فاستعذت بالله منه. لكنه زارني غير مرة في ليال عديدة، مما أطال ساعاتها، وأحسست بأني أعيش أكثر من غيري بسبب المرور البطيء للأيام والليالي المتماوتة.

أثناء تجوالي في أحياء عمان، لاحظت أن الكثيرين من أهلها ينفقون مبالغ كبيرة لقاء أمور تافهة لا لزوم لها، يبتاعونها من «المولات» التي نبتت وانتشرت في عمان بسرعة، رأيت هذا بعيني حين ذهبت إلى ثلاث منها كي أتقدم بطلبات توظيف فيها، لكنني حمدت الله على نعمة رفضهم لي، فالشبان والفتيات يعملون جنباً الى جنب، مما يخالف شرع

الله تعالى، والنساء يتسوقن ما طاب لهن بنهم وجشع، حتى إن بعضاً منهن يملأن عربتين كاملتين بما يلزم من البضائع وما لا يلزم.

شكوت أمري بعد الله إلى الشيخ الجنزير، فأمدني ببعض النقود، أعطيتها لأمي مدعياً أنني بخروجي اليومي كنت أعمل في أحد المكاتب، فهدَأتْ وعلت وجهها ابتسامة ذكرتني بابتساماتها لأبي أيام عوداته من عمله في سوق الحلال.

لكن هذا لم يغير في الأمر شيئاً، ولم يبدد قتام الحياة التي أطبقت على قلبي، فأنا لم أجد فرصة عمل واحدة على الرغم من بحثي الدؤوب، اللهم إلا ذلك العمل الذي عرضه عليّ، نائل عثمان، أحد أبناء حارتنا الذين عشت معهم طفولتنا وصبانا المجرّح.

فقد التقيته صدفة وأنا خارج من بيتي، توقفنا على الدرجات المحاذية للجدار وتحدثنا، كان يرتدي ملابس مرتبة تدل على أنه يعيش انفراجاً معيشياً بعد انتقاله وأهله من حينا إلى منطقة بيادر وادي السير. قال لي إنه جاء لزيارة عمّته التي ظلت في جبل الجوفة. سألني عن أخباري وعملي، قلت له: أنا لا أشتغل.

فاستغرب ووعدني ببذل ما بوسعه لمساعدتي.

بعد يومين زارني وعرض علي عملاً يندى له الجبين، على الرغم مما زينه لي من أوصاف للفتيات اللواتي سأعمل معهن، و«البقشيش» الذي سيغير حياتي كلها.

كان ذلك العمل هو توصيل الفتيات المستوردات الداعرات من أحد الملاهي الليلية التي يعمل بها نائل عثمان، مع توصيل من يرغبن باصطحابهم من السكارى في أواخر الليل إلى أماكن إقامتهن، كي يفعلوا بهن ما يُغضب الله تعالى، إضافة إلى حمايتهن منهم، وانتظار خروجهم، وإعادتهم إلى سياراتهم قرب الملهى الليلي.

إستهجنت أن يصدر ذلك العرض من نائل عثمان الذي عُرف

بصدقه وبراءته منذ أيام طفولتنا وصبانا، لكن يبدو أن الحياة لا تكتفي بثني قامات الناس، إنما تثني قلوبهم وعقولهم واستقامة سلوكهم.

فكرت ليلاً، ثم قررت: يجب أن أذهب، لأن تفويت هذه الفرصة يعد تقصيرا بواجبي تجاه ربي.

سلموني سيارة يابانية حديثة، وعملت ثلاث عشرة ليلة في توصيل الباغيات ومن معهن من الفاسقين، في عز الشتاء والصقيع والمطر، مع أن معظمهم يمتلكون سيارات فارهة يكفي ثمن الواحدة منها لإعالة أسرة كأسرتي ما ينوف على عشرة أعوام، لكنهم لا يذهبون بسياراتهم إلى شققهن، كي يبعدوا الشبهات عن نفوسهم البغيضة.

رأيت كثيرين من الرجال المتأنقين المترنحين أو الضاحكين أو المحمرة وجوههم، وهم يدخلون ويخرجون من باب الملهى المحروس برجلين حليقي الشعر، يرتديان معطفين قاتمين، ويتمشيان قرب باب الملهى الخارجي.

تلك كانت أقسى الأيام التي عشتها منذ ولادتي، ولقد هللت للفقر والجوع الكريم، الذي يحفظ كرامة المرء ويصونه من ذلك الامتهان المشين للبغاء. كن يرتدين تنانير قصيرة جداً، تكشف أجزاء من أفخاذهن ومؤخراتهن المشدودة بجوارب طويلة ترتفع حتى خصورهن، أما أثداؤهن فنصف عارية ومندفعة كالبالونات، وكثيراً ما تسللت أيدي أولئك الفاسقين إلى تلك الأثداء واعتصرتهن لتنطلق ضحكاتهن الفاجرة. كانت هذه الصور ترافقني إلى بيتي بعد انتهاء عملي اليومي، لكن رائحة المواد التي يضعنها على أبدانهن، لم تكن تغادر أنفي حتى أثناء نومي. هي ليست عطوراً، إنما أنواع من الكريمات والمساحيق، عرفت هذا من نائل عثمان.

خلال الأيام الثلاثة عشر تعرفت على شققهن، وأوصلت – من

بين من أوصلتهم - إلى تلك الشقق بمرافقتهن، ثلاثاً من الشخصيات التي سبق أن رأيت صورها على شاشات التلفاز وفي الجرائد، واستمر الحال على ما هو عليه إلى أن رآني نائل عثمان قبيل فجر أحد الأيام، وأنا جالس في السيارة أسفل النادي، منتظراً زبون تلك الليلة الباردة الثلجية، كنت ممسكاً بالمقود وأنا متكدر وكاظم لغيظي، اقترب من السيارة ففتحت نافذتها، مد رأسه عبر النافذة قائلاً «أراك عابساً.» قلت: وهل في هذه الحياة ما يفرح؟

كان مرتدياً بدلة سوداء على قميص أبيض وببيونة لم أتبين لونها. بدا لي أكثر سمرة بسبب وقفته التي اعترضت الضوء السفلي عند مدخل الملهى، كانت الساعة تقترب من الثانية والنصف فجراً. قلت له: لعل الله يشرح قلبي ويريح ضميري.

فارتعش قليلاً من البرد والثلج الخفيف الذي بدأ ينزل من السماء، ثم هم بالذهاب، لكنه قال لي بسرعة «سأذهب الآن، لكن صدقني أنني لستُ راضياً عما أرى، تخيل أن الشخص الذي ستوصله الليلة مع من سترافقه، يأتي إلى هنا مرة واحدة كل شهر، لكن فاتورته لا تقل عن الدنانير المئتين؟ هذا عدا ما سيدفعه لمن سيذهب معها، أظنك ستتذكره حينما تراه، إنه معروف في البلد.»

ثم ضرب على باب السيارة بكفه وذهب مسرعاً.

انتظرت، قلت في نفسي: مئتا دينار؟ الله أكبر. وقد تردد التكبير في جوفي، وسمعت نداء الواجب يتردد في مسمعي ويستحثني «آن الأوان يا بكر.»

نزل ذلك الرجل ويده على كتف إحداهن، وقد شيعهما الحارسان الخارجيان للملهى، ونقد كلا منهما مبلغاً وهو يضحك بحبور، ويحادث خليلته بصوت عريض فتشاركه الضحك بفجور. فتحتُ لهما باب السيارة الخلفي، فانسلتْ إلى داخلها وجلست على المقعد بعد أن

صفعها بخفة على إليتها، ثم تأرجح قليلاً وألقى بنفسه إلى جانبها، فأغلقتُ الباب بعد أن ساعدته على إدخال طرف معطفه وساقه التي علقت بالحافة السفلى للسيارة. في الطريق إلى شقتها تذكرت أنني رأيت ذلك الوجه من قبل، أو ربما صورته. كان واضحاً من كلماته وألفاظه وتصرفاته مع تلك الغانية، أنه أفرط في الشرب أكثر من أي سكير آخر ممن أوصلتهم خلال الأيام الثلاثة عشر التي عملت خلالها.

أقطبت السماء وصار الثلج يهطل بغزارة على الأشجار والأرصفة، لكن الطرق ظلت سالكة. أوقفت السيارة أسفل العمارة التي تقيم فيها تلك الزانية بالقرب من شارع عبد الله غوشة، فارتدت معطفها ونزلتْ، وتبِعها هو ممسكاً طرفي معطفه، مترنحاً صاعداً وراءها إلى شقتها.

انتظرْتُه في السيارة ريثما يعود. بقيت أرقب ندف الثلج وهو يتراكم على زجاج السيارة كأنه الغيث، فتحتُ بابها على الرغم من شدة البرد، نظرت إلى السماء فلم أر سوى الثلج الذي ظل يتساقط بغزارة فيحجب السماء، لم أشعر بالبرد، وحمدت الله على نعمته، ودعوْتُهُ إلى نصرتي على الجاحدين الباغين من عباده، ولا أدري لماذا أحسستُ لحظتئذ بوجود شبه كبير بين ذاك الذي صعد مع الزانية إلى شقتها، وبين عزمي الوجيه! ولولا سمرة وجهه لظننته هو، خصوصاً أنها كانت تخاطبه بغناج كلما مد يده إلى وركها أو صدرها قائلة «عزووو، لما نوصل.»

بعد ما ينوف على الساعة، عاد ذلك الرجل متأرجحاً كما لو أنه شريطة تعبث الريح بها، فتحتُ له باب السيارة فارتمى على المقعد الخلفي وبدأ يتقيأ عليه ويتلفظ بكلمات غير مترابطة.

تركْتُه وصعدت الى شقتها.

في اليوم التالي انقلبت البلد وأقامت الصحافة الدنيا ولم تقعدها، وحضر رجال الشرطة واقتادوني معهم وحققوا معي وسجنوني، كما لو

أن تلك الزانية المقتولة واحدة من السيدات المؤمنات الخاشعات.

قلت لرجال الشرطة، ومن بعدهم للقاضي الذي مثلت أمامه: أوصلتها الى بوابة العمارة حيث تقيم، وانتظرت عودة خليلها الذي أتلف بقيئه مقعد السيارة الخلفي، ثم أعدتُهُ إلى الملهى الليلي وأبلغتُ إدارته بما حدث، أما خليلته فلا علم لي بما جرى لها.

وتمسكتُ بأقوالي على الرغم مما تعرضت له من ضرب وتعذيب ووعيد من قبل رجال الشرطة.

لقد حققتُ انتصاراً في هذه الحياة، وصرت أنام قرير العين في سجن الجويدة، ولم أهتم بالقمل الذي تسلل إلى رأسي، والبثور التي طفرت على وجهي وباقي أجزاء بدني منذ الأسبوع الأول لحبسهم لي، وشعرت بارتياح كبير حين أخبرني أحد السجناء أن الشرطة أغلقت النادي، بعد أن قبضت على ذلك السكير الزاني، وأعلنت الصحف إقالته من منصبه الذي تبين أنه حساس وذو علاقة بالخدمات العامة التي تقدم للمواطنين، كما صرح أحد المسؤولين عن نية وزارة السياحة إعادة النظر في تعليمات ترخيص النوادي الليلية والملاهي وسواها من وسائل المعاصي التي تخالف شرع الله تعالى، وتبدد المال والحياء والبدن، على الرغم من إصرارهم على تسميتها وسائل ترفيه.

لاحظت أثناء وجودي في السجن أن كثيرين من السجناء يؤدون الصلاة في أوقاتها، كما أن بعض السجناء الجدد، يتحولون في غضون أيام إلى عبادة ربهم والانضمام إلى المصلين، حتى أن عدداً لا بأس به من رجال الشرطة وحراس السجن يؤدون الصلاة أيضاً، وهو ما لم أتوقعه بسبب قسوة تعاملهم معي وتعذيبهم لي قبل وضعي في السجن. لكن تلك القسوة تحولت بعد مرور عشرة أيام إلى نوع من اللطف

المبالـغ فيـه، فقـد بدلوا لي سـريري وفرشـتي وأغطيتـي، وأحضروا لي فراشـاً جديداً نظيفاً حسـدني عليه السـجناء الآخرون وصاروا يأخذون حذرهم مني، خصوصاً بعد أن أحضروا لي نوعاً من الصابون السـائل الذي يقضي على القمل، واصطحبوني إلى العيادات وأعطوني علاجات للبثـور التـي نبتـت فـي وجهي وبدني، كمـا وصلتني رزمة من الملابس الداخليـة والجـوارب، إضافـة إلـى مبلـغ مائة دينـار وضعت في أمانات السـجن، وأخبروني أنها مرسـلة من قبل أمي، ولما سـألتها في إحدى زياراتها لي نفت أن تكون قد أرسـلت لي شـيئاً، وحين أعطيتها تلك النقـود قالـت بتلقائيـة «إذا كانـوا يدفعـون لكم رواتب هنا فإن بقاءك في السـجن خير من خروجك منه» فطلبت منها أن لا تنفي إرسـالها تلك النقود والملابس لي إذا سُئلت، ذلك لأنني قدّرتُ أن شـيخنا الجنزير هو الذي أرسلها وأوصى بي، ربما عن طريق واحد أو أكثر من معارفه الذين يداويهم أو يتعامل معهم. ولقد وجدت في السجن فرصة للتبحر في معاني الآيات الكريمة كما وردت في المصحف المفسر، وكثيراً ما جلست وبعض السجناء الذين لا يقطعون فرضاً، وتذاكرنا في آيات الله البينات وتلوْنا بعضها أمام بعضنا.

بعد خمسة وعشرين يوماً أفرجوا عني، وكانت أمي بانتظاري عند مدخل السجن، وقد فوجئت بذلك الإفراج السهل والسريع عني، لكنني تذكرت بأنني لم أترك أي أثر في بيت تلك الزانية.

كان الشيخ الجنزير هو أول من زرته بعد أن رأيت أمي وأخواتي في البيت.

***

جبران

لـم يقتنـع عزمـي بأفـكاري وكان أقـرب إلى ما يتلقاه من الجنزير. هـذا صحيـح، لكننـي تمكنـت من حلحلـة بعض أفكاره. ربما كان لهذا دور فـي مـا حقـق مـن قفـزات فـي حياته، مـن دون أن يعني ذلك تنكراً لـدور الشـيخ الـذي فتـح لعزمـي أبواباً واسـعة خلال الأعـوام الأخيرة، خصوصا ما تكشف لي مؤخراً من أنه شريك له في اثنتين من شركات المقاولات التي تكاد تختص ببناء المساجد ومباني الجمعيات الخيرية ومراكز تحفيظ القرآن وسواها مما لم أعرفه.

كما قام الجنزير بتعريف عزمي على كثير من الشخصيات المعروفة والعامة في اللقاءات رفيعة المستوى، التي تقام في مزرعته الواسعة في منطقـة العدسـية المطلـة علـى الغـور، وهي المزرعة التـي تعد بجدارة، معملاً أو مطبخاً سياسياً أفادني في فهم الكثير مما يجري وسيجري في البلاد، ولقد ذكّرتني لقاءات تلك المزرعة بما ورد في كتاب سـبق أن قرأته، حيث الأدوار التي تمارسها مراكز القوى وبعض الأفراد النافذين، في تغيير مسـارات الحياة والسياسـة والشـعوب وفقاً لغايات ومصالح محددة، بصرف النظر عن الخلافات العقائدية. كما ذكّرتني بتلك الأيام التـي كنـت أتناكـف خلالهـا مع الجنزير كلما جمعتنا مناسـبة، خصوصاً حين انهار الاتحاد السـوفياتي، فقد عمد في ذلك الوقت إلى مهاتفتي ليقول لي ضاحكاً متشفياً «غلبناكم.»

فقلت له: هذا يؤكد أنكم أمريكيون.

فرد مازحاً «تقولها من حرارة الروح وحلاوتها؟» ابتسمت: أمريكا

ومن معها هم من تغلبوا على الاتحاد السوفياتي، ثم إنني لست عضواً في مجلس السوفيات الأعلى حتى تتجشم عناء الاتصال بي لتقول لي غلبناكم.

فقرقر ضاحكاً متحرراً من سطوة ماض كان يئن تحت وطأته «خلّصني، كنا نلعب يسار يمين، فمن الذي ربح المباراة؟» أجبته: أنتم ربحتم ونحن خسرنا، لكن المباراة لم تنته بعد، لننتظر ما الذي سيحدث لعالمنا بعد انتصاركم وشركائكم في أمريكا.

فضحك بشكل لافت وقال بنبرة مفعمة بالثقة «قلت لك منذ زمن، أنتم أصحاب مبادىء ونحن أصحاب عقيدة، المبادىء لا تصمد كالعقيدة، لأنها فضفاضة وعمومية، حتى أنها تكاد لا تقول شيئاً مفيداً، أما العقيدة فواضحة وتقول كل شيء بالتفصيل، وفوق هذا فهي من عند الله.»

للجنزير طريقته في تمييع الأمور والتقليل من أهميتها حسب رغبته. هذه مدرسة معروفة، لكنه يتقنها ويطورها على الدوام، بدليل أنه صار يحرص على أن لا يقطع خيوطه مع الآخرين، بمن فيهم الذين لا يتفقون وآراءه الدينية التي تبدو أحياناً متطرفة وأحياناً ملتبسة، مع أنني شبه متأكد من أن تطرفه ليس أكثر من تنفيذ لعمليات حسابية عقلية، تملي عليه لعب هذا الدور أو ذاك في ظروف معينة، لتحقيق كسب ما في موقع ما أو قضية ما.

لقد توصلت إلى أن الجنزير كان راغباً في تطوير علاقته بي، وفسرت هذا الأمر على أنه محاولة لتنويع المشاركين في اللقاءات التي تقام في مزرعته، لغرض لم يتكشف لي إلا في وقت متأخر. كان يحرص على أن تضم تلك اللقاءات شخصيات عامة، ومسؤولين ونوابا وإعلاميين ورجال أعمال وسياسيين من مختلف الأطياف،

وكثيراً ما التقيت بشخصيات سياسية قومية وليبرالية ويسارية ويمينية، فشعرت أنه مهتم بتوسيع مظلته، وبنزع فتائل الرفض والمعارضة من نفوس الكثيرين، وتحويلهم بشكل تدريجي إلى معتدلين أو إصلاحيين أو موالين، ربما كي يشعر جهات معينة بثقله السياسي والاجتماعي، وبقدرته على ترويض أفكار الآخرين وشخوصهم، وجمع المتناقضات. أسباب الجنزير كثيرة، بعضها يمكن فك ألغازه وبعضها الآخر يستعصي على التفسير، فمنذ أن ترك تلاميذه وبيته في جبل الجوفة واستقر في مزرعته، تحول إلى إنسان مختلف على الرغم من تمسكه ببعض المظاهر والضرورات، ويبدو أنه تعرف على الكثير من الأسماء المعروفة أثناء عمله في المعالجة والشعوذة، عن طريق نسائهم اللواتي كن يتعالجن في داره بجبل الجوفة. أخبرني عزمي بذلك. بالنسبة لي، لم أتردد حين دعاني أول مرة للذهاب إلى مزرعته، فقد سبق أن سمعت عما يدور فيها من حوارات بين شخصيات مهمة ونافذة في البلاد، وكنت معنياً بالاستفادة من أولئك الناس ومن الجنزير.

سلوك نفعي؟! ليكن، ولكن من يستطيع نفي وجود النفعية في حياتنا، أو في أفكار وسلوك اليسار واليمين والوسط وكل ما يمت إلى السياسة بصلة؟ الجنزير نفسه كان من أكثر الناس بحثاً عن مصالحه، بما في ذلك ما يحقق من نقاط على مستوى حضوره الذي يتعزز كثيراً بوجود ذلك الخليط من الأسماء المعروفة، على الرغم من أن وجهه الآخر المعروف للآخرين، يتنافى مع ما يحدث في مزرعته، وهو أمر مفهوم، على الأقل بالنسبة لي ولسائر السياسيين فيما أعتقد.

توصلت أيضاً إلى وجود قاسمين مشتركين بينه وبيني على الرغم من اختلافاتنا الكثيرة. أولهما التغاضي عن الآراء التي تتعارض مع أفكاره. هذا التغاضي لا يحدث إلا في مزرعته التي رأيت فيها صورة مكبرة لشخصه ولحياته المختلفة عن تلك التي كان يمارسها مع تلاميذه

أيام جبل الجوفة. وثانيهما تقبله ومسايرته للمزاح الذي قد لا يتوافق مع بعض معتقداته. أدركت هذه الحقيقة في إحدى سهراتنا، فبعد انتهاء نوبة ضحك انتابته جراء سماعه إحدى نكات ما تحت الزنار، دعَوتُهُ الى احتساء كأس معي في الوقت الذي يريد، فالتمعت عيناه اللماحتان ورد قائلاً «مستعد لشرب الخمر معك، لكن من عادتي رد الدعوات التي أتلقاها بمثلها أو بأكثر منها، وحيث إنني لا أستطيع دعوتك إلى شرب كأس إلا في الجنة، حيث دار الحق وأنهار الخمر والولدان المخلدون والحور العين، فمن المتعذر عليّ تلبية دعوتك هنا في دار الباطل، لأنني متأكد من أنك لن تدخل الجنة لأردّ لك الدعوة هناك.»

على الرغم من مرور سنوات طويلة، إلا أن الجنزير عاد يسألني عن سر الغنى الذي هبط علي. ولكي أبدد شكوكه وأحظى بثقته (صرت معنياً بثقته بي) كشفت له ذلك التطور الذي لا يعد سراً إلا من باب تخوفنا، زوجتي وأنا، ممن أرادوا الاستدانة منا وإعادتنا إلى حضيض الحياة.

فعندما علمتُ بمفاجأة الأرض أيام كنا في بيتنا القديم، أحسست بأن هذه الأرض تنصف أبناءها قبل أن تبتلعهم، وكدت أفقد ما تبقى من وقاري وصوابي. كان الإسرائيليون في تلك الأيام يقفون على مشارف بيروت تمهيداً لاحتلالها، وكان الناس في حالة غليان وهيجان، وقد هاتفني عدد من رفاقي في الحزب من أجل المشاركة في تظاهرة تضامنية، تنطلق من باب مجمع النقابات المهنية إلى وسط البلد، لكنني تظاهرتُ بالمرض، ذلك لأن وقع المفاجأة الشخصية التي حدثت معي، كان أكبر من المشاركة في تظاهرة أو اعتصام عام.

توجهت نحو بيت شقيقتي الوحيدة جليلة. كانت تكوي بنطالاً لعزمي الذي لم يتم حينئذ عامه الثاني عشر. أخبرتها بالنبأ السعيد

فواصلت عملها ولـم يبـد عليهـا الفرح مثلي، بل حافظت على هدوئها وصمتهـا، كأنمـا يتخفـى فـي أعماقهـا كائن يحبس فرحها، ويحول دون ظهوره على تقاطيع وجهها الشابة في ذلك الوقت، أو على لسانها الذي لا تستخدمه إلا قليلاً، مع أن النبأ الذي نقلتُه اليها يستحق الاحتفال والصخب، ذلـك لأنني قـرأت في إحدى الصحـف، بمحض الصدفة، إعلانا صغيراً مُوجّهاً إلى ورثة أبي، المرحوم عبد الباقي يحيى أبو بصير، مـن أجـل مراجعـة واحـد من المكاتب العقاريـة لأمر يهمّهم، فتوجهت مـن فـوري إلـى ذلـك المكتـب، لأكتشـف أن أبي الـذي توفي قبل عام مـن حـرب تشـرين، التـي سـميت بالحرب التحريريـة، كان يمتلك مائة وعشـرين دونمـاً مـن الأرض التـي تم شـق طريق المطـار بالقرب منها، بعد أن كانت مهملة لا تساوي شيئاً، لكنها في الوقت الذي قرأت فيه الإعلان كانت تساوي مبلغاً طائلاً يسبب الأرق.

سـألوني عـن بقيـة الورثـة فقلـت إن المرحـوم لـم يخلف سـواي وشـقيقتي جليلة، وحين اسـتعلمت عن أسـباب إعلانهم، قالوا إن أحد المسـتثمرين يريـد إقامـة منطقـة ترفيهيـة ملاصقة لتلـك الأرض، ويريد معرفـة مـا إذا كان الورثـة يريـدون بيعهـا كي يضمها إلى مشـروعه الذي لم ينفذه فيما بعد. وتبين لي أنه كان يسعى إلى امتلاك أكبر قدر ممكن مـن الأرض فـي تلـك المنطقة،لأسـباب لـم أعرفها ولـم أتوقف عندها حينئذ.

ومع أنني فتشت كل أوراق ومخلفات والدي رحمه الله بعد وفاته، علني أعثر على بعض التركة، إلا أنني لم أجد سـوى أوراق مؤسسـة اسـتيراد الأخشـاب التي أغلقت بعد فشـل مشـروعها، وكشـف حسـاب بنكي يعود تاريخه إلى ما قبل وفاة والدي بيومين، ولا يتضمن سـوى مبلغ زهيد لا يستحق مراجعة البنك. هذا كل ما عثرت عليه في أوراقه بعد وفاته، أما تلك الأرض فلم أعثر على ما يفيد بوجودها أو امتلاكه لها.

ما أثارني أن جليلة استقبلت النبأ بفتور، على الرغم من أنني أخبرتها أن قيمة الأرض التي ورثناها تساوي حوالي ثلاثمئة ألف دينار، في ذلك الوقت الذي كنا خلاله بحاجة إلى الدينار الواحد. مع ذلك لم يبد عليها الفرح!

راودتني شكوك في أنها كانت على علم بذلك الميراث ولم تخبرني به من قبل، إذ ليس من المعقول أن لا يهزها مثل هذا النبأ الذي يقلب حياة الإنسان ومعدته وأمعاءه ودماغه، قلت لها: توقعت أن تفرحي، حصتك تكفي لنقلك إلى حياة مرفهة.

فأجابت «جربت الرفاهية في حياة أبي وأمي، ثم ما الذي سيتغير؟ سأظل زوجة رباح.»

كان واضحا أن في قلبها وعقلها ما ينزع بهجة الحياة ويحرمها منها، ويرغمها على نوع غريب من الزهد الذي لم يكن واحداً من صفاتها في صباها. حاولت أن أفهم، فوجدتها تنطوي على أعماق حذرة يصعب كشف ما يجول فيها.

حين انتهت من كي بنطال عزمي قالت لي «سأفوضك باستلام حصتي كي تشغّلها، وحين يبلغ عزمي سن العشرين، تعطيه حصتي وما يتحقق عليها من أرباح، هذا إذا لم أكن على وجه هذه الأرض» سألتها: وأنت؟ هل تعجبك الحياة في هذا الحي الذي لم يعد مناسباً؟

قالت «أريد مبلغاً شهرياً بسيطاً من حصتي كي أنفقه على عزمي. زوجي رباح بخيل، ولا أريده أن يعلم بما ورثناه.»

تعهدت بمصاريف عزمي، لكنه كان مقلاً فيما يطلب، وقد سرني كثيراً أن حيلة عشوري على الكنز، في مكان قريب من بيت جليلة قد انطلت على أبي عزمي، وهي الحيلة التي اتفقتُ وجليلة على تنفيذها لتضليله وصرف انتباهه عما ورثناه.

حين تجاوز عزمي العشرين من عمره هجر بيت أبيه واستأجر بيتاً

صغيراً في شارع فرعي خلف مسجد كلية الشريعة بجبل اللويبده. ذهبت إليه وتبين لي أنه كان على علم بتفاصيل حصته من إرث أمه، لكنه لم يفاتحني بالأمر، ربما كان ينتظر مبادرتي، مع أنني كنت قبلها أمثل دور الخال الكريم الذي يعيل ابن اخته، ويعطيه ما يشاء من النقود، ولقد تذكرتُ ما قاله لي عندما زارني ليلة زواج أبيه من سندس، فبعد أن قرر عدم المبيت في بيتنا بسبب تبرمات زوجتي رابعة، قال «سنلتقي في وقت قريب» وشدد على كلماته من دون أن أنتبه إلى ما وراء ذلك التشديد، ربما بسبب الإرباك الذي سببته لي رابعة.

فتح حساباً بنكياً وأودعت فيه مستحقاته من إرث أمه وأرباحها، لكنه لم يقابل الأمر بما يليق به من اهتمام وفرح، إنما شكرني على حفظ الأمانة وتسليمها له مع عائداتها. كان منشغلاً مع الجنزير في قضايا الوعظ واستقصاء الأسر الفقيرة، لكنني لم أتدخل في شؤونه تلك، فقد تجاوز العشرين من عمره حينئذ، وأزحت عن كاهلي عبء حصته من الميراث بسلاسة لم تثر انتباه أحد، والأهم أنه لم يكن غراً كي يسمح لأحد بالتدخل في حياته.

***

سندس

حضّرتُ نفسي للقاء عزمي، متناسية ما قد يخطر ببال زوجي صبري، حين يعود متعباً من بؤس عمله في شركة الكهرباء فلا يجدني، ولا يجد ما يأكله.

لا أدري كيف حصل على رقم هاتفي؟ وكيف اهتدى إلى بيتي في طبربور؟ وكيف استل إرادتي بصوته المهيمن الذي أثارني وأرغمني على ارتداء ملابسي وتجهيز نفسي خلال وقت قصير.

خرجت من البوابة فوجدت بانتظاري سيارة سوداء لامعة يقودها رجل ببدلة خضراء داكنة ونظارتين سوداوين. نزل السائق من السيارة حال رؤيته لي، فتح الباب الخلفي باحترام، ومن دون أن ينطق، وجدتني أجلس على مقعد وثير داخل السيارة.

أغلق الباب ورائي وعاد الى مقعد القيادة، فاشتممت رائحة عطر رجالي قبل أن تتحرك السيارة مبتعدة عن داري.

أوصلني الى بيت عزمي في منطقة الرابية، ضغط الجرس الخارجي فانفتح الباب، دخلت فقفل السائق عائداً الى السيارة.

كنت أرتدي فستاناً أصفر مشقوقاً من جانبه الأيسر. أستطيع القول الآن إنني كنت في أبهى حالاتي حين التقيته، لكنني، كدت لا أعرفه! فقد بدا لي مختلفاً عما كان. شعره لامع مصفف، ووجهه أكثر صفاء وبياضاً مع حمرة خفيفة تعلو جبينه ووجنتيه، جسمه ممتلىء بلا تكرّش، ويرتدي بدلة سكّرية اللون تزيده بهاء. تعانقنا في قبلة طويلة. قال لي «تزدادين صبا ونضارة.»

فأجبت: لم أكن هكذا قبل أن تهاتفني.

أمسك يدي واقتادني عبر ممر مفروش بالسجاد الى صالون واسع مؤثث بالمقاعد البنية والمزهريات والكثير من اللوحات والطاولات والتحف. ثم أدخلني صالة تحتوي طاولة سفرة وأزهارا وقالبا من الجاتو يحمل شمعة واحدة. قال لي مشيراً إلى المقعد المواجه للقالب والأزهار «كل عام وأنت بخير، العقبى للمئة سنة، اجلسي.»

جلست، ففتح علبة فاخرة تناول منها عقداً ماسياً ووقف خلف مقعدي.

أصابني صمت المفاجأة والانتباه إلى أمر غير مألوف لدي، فعلى الرغم من أنني أتممت الرابعة والثلاثين من عمري في ذلك اليوم، إلا أنني لم أكن أنتظر عيد ميلادي من قبل، لم أكن ألتفت إلى تلك الأمور، وأحياناً أتذكر ميلادي بعد أيام أو شهور من تاريخه. لكن لم يخطر لي أنه يستحق تقديم الهدايا الماسية. زوجي صبري لم يقل لي شيئاً عندما خرج إلى عمله في الصباح، لماذا لم يتذكر؟ وإذا كان قد تذكر فلماذا لم يقل أو يفعل شيئاً؟

سألت عزمي: كيف عرفت تاريخ ميلادي؟

لم يجب، رفع شعري من الخلف، وطوق عنقي بذلك العقد الذي تبين لي فيما بعد، أنه أثمن مما توقعت بكثير، حتى إنني فوجئت بهيأتي الجديدة مع العقد الماسي حين وقفت ونظرت في مرآة قريبة.

في ذلك اليوم أعادني عزمي إلى الحياة من جديد، فقد فعل بي كل ما أشتهي في غرفة النوم ذات الفراش الوثير، وعلى سجاد الصالون ذي الوبر الطويل، وعلى المقاعد، ووراء الجدران الملساء في الصالة، وفي حمّامه الواسع الذي فاض بنا مراراً. كنت أهرب منه بدلال فيزداد إصراراً على الإمساك بي، وحملي، وحشري، والإطباق على كل جسدي

بنهم وقوة لم أعهدها في رباح أو صبري. فعل بي كل ما قد تشتهيه أية امرأة، وفعلت له كل ما قد يجول في مخيلة أي رجل يجتمع عارياً مع امرأة عارية وعاشقة في بيت مغلق بعيد عن العيون.

ولقد نسيت زوجي صبري، غابت صورته تماماً في غمرة تلك الساعات المحمومة. كان يحب أن نستحم بعد كل مرة، ويقول إن الإغتسال يثير الشهية، وعندما استحممت للمرة السادسة، أصر على أن يفرك كل بقعة في جسدي بنوع من الليف الناعم، والصابون ذي الرائحة التي تدغدغ الحواس، كان يفركني بينما أمسك به، وأراهن على صموده، غير أن تلك اللعبة انفضت فجأة حين حملني إلى غرفة النوم، بما علق بجسدي من رغوة وماء، وألقى بي على السرير لنتم ما بدأناه منذ أن لامست قطعة الليف جسدي.

قلت له، بعد أن استحممت للمرة السابعة وارتديت فستاني: متى ستتزوج؟

فبُهتَ «هل نسيتِ أنك متزوجة؟» قلت: سأجعله يطلقني.

«بهذه السهولة؟» فأجبته: نعم بهذه السهولة.

حك رقبته وقال «زواجنا غير ممكن ولا هو قانوني، ثم، لماذا تصرين على الزواج مني طالما أنني فتحت لك أبوابي؟ ما الفرق؟»

كان واضحاً أنه تغير كثيراً عما كان، حتى انني بحثت عن أي أثر من ماضيه المتحفظ أيام عشنا معاً في بيت رباح، فلم أجد سوى رفضه فكرة الزواج مني. كما انتبهت إلى أنه لم يعد يتحدث عن الحرام إنما عن القانون الذي يمنعه من الزواج مني!

كدت أبوح له بما لدي من أسباب ستدعوه إلى التفكير في زواجنا بطريقة مختلفة، لكنني خشيت مما قد تحدثه كلماتي في نفسه من أصداء، فصمتّ.

قال لي «الحياة التي تعيشينها مع زوجك غير لائقة. ثلاثمائة دينار في الشهر لا تكفي لحياة متوسطة في هذا الغلاء، وبيتكم مستأجر. كم يلزمك لتحسين أمورك؟» فوجئت وسألته بتلقائية: كيف عرفت كل هذا؟

فرمقني بنظرة جريئة «كم يلزمك أنت وزوجك لتخرجا من أزماتكما؟» لم أعرف كيف أجيبه، لكنني تذكرت أمراً مهماً فقلت: لماذا تريد مساعدتي وأنا متزوجة من رجل غيرك؟

أجاب ببديهة وتلقائية «لأنني أريدك ولا أستطيع الزواج بك»

تظاهرتُ بالحرد والتدلل: لا أريد منك شيئاً.

فقال بنبرة جادة «سأشتري لكما شقة جديدة، أريد أن أفعل شيئاً من أجلك.»

فعَلها بعد عشرة أيام، وجعل صبري يوقع أوراقاً لم أدر ما بها، ثم انتقلنا إلى تلك الشقة الواسعة في منطقة تلاع العلي، مقابل مستودعات شقير للأدوية. لكن صبري تحول بعدها إلى حمل وديع أمام عزمي، فأحسست أنه لا يمتلك من الرجولة سوى ذكورته الصبيانية.

صرت ألتقيه من حين لآخر في بيته، حسب وقته هو. كان يهاتفني ويرسل لي سائقه ليأخذني إلى بيته. لكنه فاجأني حين اشترى لي سيارة جديدة سلمني مفاتيحها أمام بيته، مع أنني لا أحسن قيادة السيارات.

صبري فوجىء مثلي حين رأى تلك السيارة التي أوقفها السائق أسفل البناية. سألني بعد أن تنحنح مرتين «لماذا يشتري لك سيارة؟ ما الذي يريده منك؟» فأجبته:

لم تقل هذا حين اشترى لنا هذه الشقة التي نعيش فيها.

صبري يعرف الحد الذي يمكنه بلوغه معي في أسئلته واحتجاجاته،

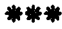
نظـرت إليـه كـي أذكّـره بذلـك الحـد: نسـيت أن عزمي هـو ابن زوجي السابق؟

صمـت، ثـم عـاد إلى وداعته السـاذجة، فبـدأت إقناعه بالعمل مع عزمـي. قلـت لـه: الدنيا تتغير بسـرعة، والنـاس يزدادون ثراء ويتملكون العقارات والشـركات، ويسـهرون ويسـافرون، بينما أنت تشـتغل موظفاً في شركة الكهرباء بأقل من ثلاثمائة دينار لا تكفي لإعالتنا أسبوعاً بعد ارتفاع الأسـعار، كما أن شـقتنا الجديدة تتطلب رفع مسـتوانا المعيشـي، فالحيـاة فرصـة وعليـك اغتنامهـا بالعمـل مع عزمي الذي سـيغير حياتنا البائسة.

في تلك الليلة منحت صبري ما لم يحلم به من متع، ولقد رأيته، بعـد عودتـي مـن الحمـام حيث اغتسـلت، ممدداً على السـرير بالأربع، وعلى وجهه ابتسامة حبور وسعادة بدت لي بيضاء بلهاء.

ترك صبري عمله، واشتغل تحت إمرة عزمي في أعماله الكثيرة. لكنه صار كتوماً باطنياً، بعد أن كان يحدثني عن كل ما يجري معه في عمله السابق، بالتفصيل المثير للسأم.

ولقد رأيت في عيني صبري، بعد أشهر من عمله الجديد، ملامح ذعـر تثيـر الشـفقة، أثنـاء مكالمـة هاتفية غامضـة أجراها مع عزمي ذات صباح.



بكر الطايل

خرجتُ من السجن وذهبت الى الشيخ الجنزير، الذي وجدت عنده ملجئي بعد الله، فتجولتْ عيناه الحادتان في عيني، ثم هز رأسه مكتفياً بتهنئتي بإفراجهم عني، وإعطائي نسخة من صحيفة صدرت أثناء حبسي، تضمنت تحقيقاً حول إقالة ذلك المسؤول السكير الذي اتهمته تلك الصحيفة (بالتغاضي عن التقارير التي قدمها له موظفوه حول مخالفة إحدى الشركات لشروط العطاء الذي أحيل اليها من أجل تزويد إحدى أكبر الوزارات بأجهزة حاسوب وبرامجها ومستلزماتها). كما علمت من الشيخ الجنزير الذي هوّن عليّ سجني وخروجي بقوله «كفارة»، أن ذلك المسؤول ظل قابعاً في السجن، بتهمة قتل تلك الزانية خنقاً بربطة خصرها الحريرية الحمراء، بعد أن قضى وطره منها في واحدة من لياليه الحمراء.

سألته باستغراب:

حسبما أعرف فإن الشرطة والحكومة لا تحبس واحداً من أصحاب المناصب المهمة، فكيف فعلوا ذلك به؟

حك ذقنه وقال «فيما مضى كانوا يعتّمون على مثل هذه الأمور، وما زالوا يفعلون ذلك في بعض الحالات. لكن، طالما أن صاحب المنصب واقف على قدميه فلا أحد يسأله عما يفعل، أما إذا وقع، فإن الجميع يتنكرون له خوفاً على مراكزهم ومسموعاتهم. الحكومات مستعدة لجزر واحد من المسؤولين إذا انكشف أمره، كي تبدو أمام الناس نزيهة حريصة على المصلحة العامة. على كل حال فإن حظ ذلك

السكير سيء، لأن الصحف بالغت في نشر أخبار قتل الغانية، وتناقل الكثيرون اسمه صبيحة اليوم التالي، فاحترق بشر أفعاله.»

صمت الشيخ قليلاً ثم نظر في عيني قائلاً «كما أنني لا أحب ذلك الرجل، فبالإضافة إلى فجوره وفسقه، فقد أعاق تنفيذ مشروع مركز إسلامي في منطقة القويسمة. أنا مسرور بفضيحته وسجنه ودماره.»

ما حيرني هو أن الشيخ نفى قيامه بتوصية إدارة السجن بالاهتمام بي، كما نفى إرساله رزمة الملابس الداخلية والجوارب والدنانير المائة! اكتفى بنفيه السريع ولم تبدُ عليه الرغبة في الاستعلام عمن أرسلها! ثم نقدني ثلاثمائة دينار قال إنني سأحتاجها، ولم يسلني عن حقيقة ما جرى تلك الليلة التي لن أنساها!

خلال بضعة أيام، تمكن الشيخ الجنزير من تثبيت معونة شهرية لأسرتي من إحدى الجمعيات الخيرية وأخرى عن طريق وزارة التنمية الاجتماعية التي تبين لي فيما بعد، أنها تدفع معونات لعدد من عباد الله، بمن فيهم أناس يتاجرون ويعيشون في أحياء نظيفة مرفهة، ونساء سافرات يذهبن إلى مكاتب الوزارة نهاية كل شهر ويستلمن معونات مثلنا وأكثر!

الشيخ الجنزير، صار يتفقدني من وقت لآخر، ويدس في جيبي بعض النقود على أنها معونات خاصة، كما حاول تزويج شقيقتي عتاب لعاصم كساب الذي يعد واحداً من أكثر المطيعين لتعليماته وأوامره، فأحضرتُها إلى بيت الشيخ كي يريا بعضهما بوجودي، لكن عاصماً تذرع بعدم الرغبة في الزواج حينئذ، وهو ما حدث مع عبد المهدي ربيع، وقد أدى هذا إلى ازدياد نقمتها على كل شيء، ففقدت شهيتها وبدأ شعرها يتشقق ويتكسر. والحقيقة أن عتاب كانت قصيرة ونحيفة وممتقعة الوجه، لكنها فتاة محتشمة متمسكة بأخلاقها وجوهرها الذي

يشع بالإيمان على الرغم من عصبيتها التي لا تلازمها دائماً.

وعدني الشيخ الجنزير بالاستمرار في المحاولة، بعد أن علم بما حل بها جراء رفض عاصم وعبد المهدي الزواج منها، ولم أدر أثناء جلوسي معه ذات صباح، ما الذي خطر بباله ليتهلل وجهه وتلمع عيناه ببعض البشر فجأة ولثوان معدودات، عاد بعدها ليتخذ هيئته الأصيلة الوقورة ويقول لي «هل توافق عتاب على الزواج من رجل متزوج؟»

فكرت قليلاً وقلت: لِمَ لا توافق؟

فقال «لا تتسرع، اسألها.» فأجبته: لعل في الزواج علاجاً لها.

سألتها فلم تجب، وحدثتني نفسي بأن عتاباً سكتت لأنها تخشى الوقوع في انتكاسة جديدة، لكن أمي قالت «الرجل الخيّر عنده ثلاث نساء وأربع، وصاحباتها اللواتي في مثل سنها تزوجن منذ عامين أو ثلاثة، حتى ان من هن أصغر منها في الحي، وجدن حظوظهن وتزوجن.»

وافقتُها وقلت: زواج البنت ستر لها، ورسول الله عليه الصلاة والسلام حض على الزواج.

عندما أخبرت الشيخ الجنزير أن الاقتران برجل متزوج لا يضير شقيقتي عتاب، حدثني عن شخص اسمه صبري أبو حصة، يقيم الصلاة ويصوم رمضان، لكنه متزوج من سندس زوجة رباح السابقة. وسندس هذه أعرفها منذ أن كانت تسكن مع أمها في حيّنا، وقد سمعت الكثير عنها وعن أفعالها المشينة، فهي التي قتلت أم عزمي بطريقة لا يعلمها إلا الله حسبما قيل لي، وهي التي أرغمت أبا عزمي على طلاقها بعد تعلقها بابنه عزمي الذي قيل لي، إنه وإياها ارتكبا من الفواحش ما تهتز له الملائكة والله أعلم، ولكي لا أرتكب آثام الافتراء، فأنا لم أر شيئا مما ذكرت على لسان سواي، لكن، لا نار بلا دخان، وكلام الناس

الكثير عنهما لم يأت من فراغ، ثم إنني رأيتها ذات مرة وهي تجلس إلى جانبه في سيارته بملابس والعياذ بالله، فكيف يقبل زوجها صبري بخروجها مع ابن زوجها السابق؟

قلت في نفسي: على الأغلب أنه يعرف ما تفعله زوجته ويكتم غيظه كي ينتقم منها.

هذا ما رجّح كلام الشيخ من أن صبري أبو حصة يريد امرأة محتشمة تقية صالحة، يعيش معها ليطلق تلك المرأة الفاجرة ويطردها من بيته.

***

الشيخ عبد الحميد الجنزير

كان عليّ أن أزيد انتباهي لعزمي، فبالإضافة الى ما استفاده من دروسي وجلساته معي، تلك التي تعلم منها الكثير من طرائق لجم النفس، وإطلاقها في الوقت المناسب، وتمشيط اللسان، وإسدال الستائر على خفايا الروح عند الحاجة، فقد كان مدججاً بقدرات وأفكار أخرى لا أدري من أين جاء بها، وكان طامحاً إلى تحقيق منافع كثيرة. عيناه كانتا تفصحان عما هو أبعد بكثير مما ورثه عن أمه وما هو عليه.

فهو لم يكن يوافق على سير أمور حياته مثلما يشاء لها القدر، قالها لي ذات مرة! يريد التدخل حتى في حصته من القدر بطريقته هو! وهذا واحد من أسباب اختلافه عن التلاميذ القدامى، أولئك الذين كانوا يحسدونه ويحرضونني عليه، مستعينين بالكثير من الآيات القرآنية الكريمة، والأحاديث النبوية الشريفة، حتى ان بكر الطايل، الذي عيّنّاهُ في لجنة مسجد أقمناه في بقعة من الأرض تبرع بها أحد المحسنين، قال لي «عطاء بناء المسجد أحيل إلى شركة الخطاب للمقاولات، وتبين أنها مملوكة لعزمي الوجيه وشريكه الذي لم أتمكن من معرفة اسمه.» قلت:

عزمي طموح، والطموح لا ينقض التقوى ولا يبطلها.

فتجمع حول نفسه قائلاً «يا سيدي، الاستقامة أساس التقوى، عزمي جمع الكثير من التبرعات من الشركات وبنوك الربا والمحسنين من الأغنياء لتمويل إقامة ذلك المسجد، فصار في مقام الممول والمنفذ،عن طريق شركته وشريكه، وعضو لجنة المسجد أيضاً، ألا ترى بعض الخلل

في هذا؟ ثم إننا لا نعرف حقيقة ما جمع من تبرعات، وهو يتصرف بها كما لو أنها ملكهُ لا ملك لجنة إقامة المسجد.»

ولما ذكّرتهُ بأن للجْنة حساباً في البنك الإسلامي، وعزمي لا يستطيع التصرف به منفرداً، إنما بمشاركة اثنين من المفوضين بالتوقيع عليه، أجابني بثقة لا تخلو من غيظ مكتوم «المخولان بالتوقيع يرتبطان بعلاقة قوية معه ولا يجرؤان على مناقشته.»

قرصتُ ورمَ البغضاء في نفسه: هل حاولت جمع التبرعات مثله؟

فادعى أنه حاول لكن الناس لم يستجيبوا له. قرصته ثانية: لكنهم يستجيبون لعزمي.

صمت وامتقع وجهه. ولكي أخفف من غلوائه، ذكرت له خبرا خلته سيفهمه ويستفيد منه: عزمي صار شريكاً في كثير من الشركات والمنشآت، ولديه أناس يعملون معه، وهو ليس في حاجة إلى السحت من الأموال.

وبدلاً من التقاط إشارتي، ازداد انفعالاً وقال «أعرف عزمي منذ أن كان في بيت والده كاتب الاستدعاءات، لكنه علا وتكبر بعد أن تسلم إدارة المركز، وغدر بك عندما استولى على ما تبرع به المحسنون، وأسس مركزاً خاصاً به، ثم عاث بعدها فساداً في ضلال المنافع والمصالح التي أنشأها من أموال المسلمين، أما نحن فبقينا حيث نحن، لا نقدر على إعالة أهلنا ولا نجد عملاً يزيح عنا كرب يومنا ويعيننا على إدخال البهجة إلى نفوس من يعيشون في بيوتنا.»

حاولت تطهير نفسه مما علق بها من قتام الحسد، قلت له:أنسيتَ أن الحسد كان أول ذنب ارتكب في الأرض يوم حسد ابن آدم أخاه فقتله؟ منذ متى كان إبليس هادياً ومرشداً لك؟ عد إلى كتاب الله يا بكر وحرر روحك من وساوس الشيطان عل الله يرزقك.

صمت واستغفر واستعاذ بالله من الشيطان ثم قام وصلى ركعتين.

لكنه، سبحان الله، ظل دائم الاشتباك مع الدنيا وأهلها، ودائم الاستعجال للآخرة.

كان مستعداً لفعل أي شيء للنيل من عزمي بما في ذلك قتله لو أتيحت له الفرصة. كان مستعداً لهذا! لم أتوقع أن يتسع صدره الضيق لكل ذلك الحنق الذي يعتم القلوب ويزيغ الأبصار، حتى أنه صار يرى في وجود عزمي الوجيه سبباً في فقره، وفي الخراب الذي حل بالمسلمين.

كان بوسعي الخلاص منه وإقصاؤه عن طريق متعهدي الجهاد في العراق أو أفغانستان أو سواها، لكنني آثرت الاحتفاظ به في قبضتي لأمر في نفسي.

رغبتُ في مساعدته، لكن بعيداً عن مصالحي الخاصة التي أمتلكها أو أشارك في رؤوس أموالها: مصنع الأسمدة الكيماوية، وشركة الخطاب للمقاولات، ومعمل مستحضرات الأعشاب الطبية، ومصنع المنتجات المستخرجة من أملاح البحر الميت، وشركة استيراد الحديد من أوكرانيا، التي صار جبران - مؤخراً - شريكاً فيها.

بكر الطايل لا ينفع لمثل هذه الأعمال، بل قد يكون ضاراً. فقد سبق لي أن وظفتُه في إحدى الجمعيات الخيرية. لكنه اشتبك مع العاملين فيها لأنهم يقدمون المساعدات لمن لا يستحقونها، حسب قوله.

تمكنت من تعيينه مراسلاً في وزارة التربية والتعليم، كي أبعده عن الأعمال الخيرية التي لم يتمكن من رؤية وجوهها المشرقة، لكنه

لم يصمد سوى يومين اثنين، ثم ترك عمله متحجّجاً باختلاط النساء مع الرجال أثناء العمل، وبوجود موظفات سافرات شرسات كاللبؤات. حاولت ثنيه عن قراره فقلت:

صحيح أن السفور والاختلاط يخالفان شرع الله تعالى، لكن بوسعك فعل شيء ترضي به وجه ربك، حتى لو كنت في دارة للفسق أوالفجور، فلو استطعت إقناع سافرة واحدة بارتداء الحجاب، لأسهمت في تصويب أوضاع الناس وتقريبهم إلى الله تعالى، عوضاً عن تركهن نهباً للطامعين بهن من الشبان والرجال.

لم يجبني، اكتفى بصمته وعبوسه المزمن ولم يعد الى عمله. مع أنه مسؤول عن إعالة أمه وشقيقاته الأربع اللواتي بلغت ثلاث منهن مبلغ النساء، من دون أن يقدم لهن شيئاً من جهد يديه أو عرق جبينه.

فكرت بأمره، وتمكنت بعون الله من تخصيص معونة شهرية لأسرته عن طريق وزارة التنمية الاجتماعية وأخرى من إحدى جمعيات العون الخيرية، لكن قيمة المعونتين لا تزيد على الثمانين ديناراً، والحياة في ارتفاع، والناس صاروا يتنكرون لبعضهم ويتلملمون حول أنفسهم كالحلزون، فتشرد الخير من نفوسهم ومساكنهم، وأمسكوا على مصالحهم، إلى درجة باتوا معها لا يفكرون إلا بتوفير كفاف يومهم، وفوق كل هذا، فقد بدت على شقيقته الكبرى، عتاب، أمارات الفتاة التي تريد رجلا يتزوجها. قالها لي بعظمة لسانه، مستشهداً بموافقتها على الزواج من سامي بن أبي فاروق، الذي، بدلاً من أن يثوب إلى رشده ويكف عن شرب الخمر، أفسد ابنه وصارا يشربان معاً في بيتهما. لكن بكر وقف ضد هذا الزواج كحد السيف، وطرد سامي ووالديه حين جاءا إلى بيته كي يطلبا يد عتاب، بينما بدأت هي بمشاكسته، على الرغم من ضربه لها وكسره ذراعها التي تحرك عظمها عن بعضه، حين لامستُها بيدي كي أهتدي إلى مكان كسرها، ثم قمت بجبرِهِ مستخدماً رقائق القطن واللزق ومساطر الخشب ولفافات القماش. ولما

أوصيتها بالامتناع عن شرب الحليب المحلى والشاي والتمر وأصناف الحلويات كي تشفى بسرعة، ابتسمَت ببؤس. لم أر في حياتي ابتسامة بذلك البؤس، فقد قالت إنها لم تشرب الحليب منذ شهور، كما لم تر الحلويات في بيتها منذ مدة طويلة، أما الشاي المحلى فلا تستطيع الاستغناء عنه. ثم صمتت فأشفقتُ عليها ونظرت في وجه شقيقها بكر الذي أنزل رأسه حينئذ.

استغرق شفاؤها ثمانية وعشرين يوماً، ولحظتُ حين فككتُ الجبيرة عن ذراعها أنها ازدادت نحولا.

ومع إيماني بمشيئة الله، سبحانه وتعالى، واختياره لأشكال خلقه وأمزجتهم، إلا أنني شعرت في وقت ما، بأن ما يعانيه بكر الطايل هو السبب في تقبّض سحنته المعتمة، وضعف جسمه ونحوله ونتوء عظامه. ولكن، لأن الله تعالى يضع سره في أضعف خلقه، فقد احتفظتُ به بين أتباعي، على الرغم من اقتناعي بأن في أعماق نفسه كائن طامع سفيه، إذ من يدري؟ فقد نضطر إلى الاستعانة بسفهائنا لقضاء بعض غاياتنا إذا اقتضى الأمر.

***

بكر الطايل

وافق صبري وعتاب على أن يتزوجا عند التقائهما في بيت الجنزير بحضوري. لكنني شعرت أن صبري لم يكن متحمساً بما يكفي، كان أشبه بمخلوق سُلبت إرادته. على الأغلب أن الجنزير لحظ ذلك والعلم عند الله، فقد اشترط على صبري الإسراع في عقد قرانه والدخول عليها خلال أيام بلا تكاليف ولا حفل عرس، اللهم إلا إحضار المأذون وشاهدين من طرفه الى بيتنا لعقد القران ثم الزواج، وقد أيدته أنا خوفاً على شقيقتي التي قد يصيبها مكروه إذا لم نوفق في محاولتنا الثالثة تلك، وخشية من حدوث ما قد يعيق ذلك الزواج الذي سيحقق لي هدفين، الأول تزويج شقيقتي من رجل قادر على إعالتها، والثاني معاقبة سندس السافرة التي خرجت عن طاعة الله ورسوله صلوات الله وسلامه عليه.

بعد أن عدت وشقيقتي إلى بيتنا مر في رأسي خاطر غريب، إذ من أين للشيخ الجنزير قدرة فرض ما يريد على صبري أبو حصة؟ فهو لم يكن واحداً من جماعتنا ولم نره من قبل.

أمر آخر أقلقني قبيل زواج صبري من عتاب، فحين زرت الشيخ في بيته، سمعته وأنا أدخل البوابة الخارجية يتحدث عبر الهاتف، فوجدتني أتوقف قرب باب غرفته متنصتا على صبري وسندس، وذكر اسم أختي عتاب مع عبارة «على سنة الله ونبيه الكريم.»

ما دخل عزمي الوجيه بزواج شقيقتي؟ ولماذا كان صوت الجنزير مسايراً يشوبه ضعف غير معلوم أثناء حديثه الهاتفي مع عزمي؟

تجاوزتُ عن كل شيء، وتم تحضير مستلزمات الزفاف، وردّدَ صبري وراء الشيخ الجنزير دعاء الدخول ليلة الزفاف (اللهم إني أسألك خيرها وخير ما جبلتها عليه وأعوذ بك من شرها وشر ما جبلتها عليه.) ثم قرأه ثانية وثالثة الى أن حفظه، وفي المساء اصطحب عروسه عتاب إلى شقة مؤقتة استأجرها ريثما يطلق زوجته سندس، ويطردها من شقته التي ابتاعها في منطقة تلاع العلي.

لكن الفجيعة التي أصابت عتاب ليلة دخوله عليها، كانت أكبر من طاقتها على الصبر والاحتمال، فقد مات صبري بين يديها في ليلتها الأولى قبيل صلاة الفجر!

سبحان الخالق! كأنما الأمور تسير على عكس ما أريد!

إستغفرتُ ربي وقرأت دعاء فك الكرب، ثم وجدت لساني يردد تلك الآية الكريمة، بإلهام إلهي لا دخل لإرادتي به (وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم)، ثم تذكرت سيدنا أيوب مردّداً في نفسي بابتهال ووجد: لعل الله تعالى يريد ابتلائي وامتحاني.

فهدَأتْ نفسي، كأنما أنزل الله عليها رذاذاً يبللها بعد أن جففَتها كروبي وكرب شقيقتي التي عادت مذعورة الى بيتنا، ولزمت فراشها أياماً، ثم كف لسانها عن النطق، وحال شعر رأسها وتساقطت خصل منه، وتقصفت شعيرات رموشها:

عتاب الآن في مستشفى الفحيص للأمراض العقلية وليست في بيتنا.

الفجيعة الأخرى التي أصابتنا، أنها لم ترث شيئاً عن بعلها المتوفى صبري، فقد تبين أن البيت الذي يسكنه مسجل باسم سندس ابنة عدلي، وهذا ما لم يقله لي الجنزير قبل الزواج، وحين سألته أجاب بنبرة

أحسستُها صادقة «لا علم لي بهذا» ثم سقطتْ منه عبارة قالها كأنما يخاطب نفسه «أيمكن أن يدرّ العمل مع عزمي ثمن شقة في عمان الغربية بهذه السرعة؟» سألته مستطلعاً عبارته تلك، فنهض متمتماً مكملاً سورة الناس (من شر الوسواس الخناس، الذي يوسوس في صدور الناس، من الجنة والناس). ثم لملم عباءته «نلتقي غداً بعد صلاة العشاء.»

حرت في أمري، ما الذي يفعله عزمي الوجيه؟ ما علاقته بصبري أبو حصة؟ لماذا تعتم كلمات الجنزير عندما نصل في حديثنا إلى عزمي؟

***

الجنزير

عزمي لعب دوراً في تزويج صبري أبو حصه من عتاب شقيقة بكر الطايل. أنا سلّكت هذا الأمر الذي شق على صبري أبو حصة، ولعمري إنه لعلى حق. فهو زوج سندس التي تؤلب الحيطان، فكيف يمكنه مواقعة فتاة قصيرة ناقصة الحُسن كعتاب؟ وهي التي وافق على الاقتران بها، بحكم إملاءات عزمي، لا بحكم رغبته بها أو شهوته لها. لقد خشيت أن لا يسعفه بدنه حين يختلي بعتاب بسبب دمامتها، حتى انني أعددت له خليطاً محرضاً محفزاً لشهوات البدن، كي يتمكن من أداء مهمته العسيرة ليلة زفافه، رغم أنني توقفت منذ سنوات عن أعمال المداواة والأعشاب التي انتهى وقتها ومبررها ولم تعد لائقة بي. مع ذلك، ذهبت إلى داري في جبل الجوفة، ومزجت مسحوق قرون الجراد والزنجبيل واللبان الذكر مع منقوع الخولنجان والعسل وبعض الماء، ووضعتها كلها في زجاجة صغيرة أوصيت صبري بشربها دفعة واحدة قبل ساعتين من دخوله على عروسه.

كنت معنياً بتمام هذا الزواج، لكن الله تعالى استدعى صبري أبو حصة ليلة زفافه، فما الذي يمكنني فعله لبكر الطايل وأهله بعد كل هذا؟

يظهر أن عزمي قد فكر بطريقتي، فقد أسر لي المرحوم صبري قبل دخوله على عروسه، بأنه أخبر عزمي عن بؤس مظهرها، فأعطاه حبة زرقاء من هذا الذي يسمونه «فياغرا» كي يفلح في مهمته، واستحلفني أن لا أخبره بما قاله لي. كان مذعوراً من عزمي، لكنه خشي أن يتعارض

الخليط الذي أعددتُه له مع تلك الحبة، وربما أراد الاطمئنان على روحه تلك الليلة. كان خوفه من عزمي يعادل حياته ذاتها، ولقد عجبت لأمره وأحسست بأنه يقامر بما تبقى من عمره، فأوصيته بأن لا يبتلع تلك الحبة، لأنها ستؤذيه، كما أن عزمي لن يكون موجوداً معه ليلة زفافه. لكن، يبدو أنه كان مقيماً في قلبه ونفسه، والدليل أن تقرير التشريح أفاد أن سبب موته هو تشنج عضلة القلب وتوقفه المفاجيء عن العمل، وهذا ما يرجح تناوله تلك الحبة التي قد تؤدي إلى مثل هذه النتائج إذا لم يكن الجسم مهيأ لها وقادراً على احتمالها، هذا ما أخبرني به طبيب التشريح.

حينما قلت لعزمي: قتلتَ صبري بعقارك.

سدد بؤبؤي عينيه نحوي قائلاً «لا مصلحة لي بذلك، ونحن لم نتفق على موته، إنما على تطليق سندس منه بعد زواجه من تلك الدميمة، بناء على رغبتك ولأمر في نفسك، فلماذا قتلتَه بخلطاتك وأعشابك؟»

مع ذلك، تقبلتُ عزمي رغم حذري منه، فعلاقات الرجال بالرجال ليست وليدة العواطف، إنما هي حصاد الثقة بتحقق رجولتهم وفصاحتهم وفهمهم للدنيا والآخرة، فكيف لي أن أبغض من هو في فطنة عزمي وسعيه الدائب في هذه الحياة، وفوق كل هذا، احتفاظه بمكانة خاصة في حجرات قلبي؟ وحتى لو كرهته، فليس من اليسير أن أقطع علاقتي معه، بعد أن توطدت وتشابكت إلى حد يجعل التراجع عنها أمراً عسيراً في ذلك الوقت على الأقل، فهو شريكي في شركة الخطاب للمقاولات وفي مصنع الأسمدة وفي أمور أخرى تتعلق بالتبرعات للمساجد والمراكز والمعونات وسواها، وهو الأقرب إلى سندس التي انتظرتها طويلاً.

لقد عرفت أنه كان يحاول بلبلة أفكاري وتشويش رؤيتي لجوهره حين قال لي «لا مصلحة لي بقتل صبري أبو حصة.» ولكن، ما كان له أن يجرؤ على مخاطبتي بتلك الألفاظ لولا إدراكه حاجتي لسندس المحتجزة في إناء غاياته التي كبرت وتفرعت. صحيح أنه ورث مبلغاً لا بأس به بعد وفاة أمه جليلة رحمها الله، لكن ما كان له أن يجمع ثروته التي يمتلكها الآن، إلا بعد أن فتحتُ له بوابات العمل والتشارك معي ومع سواي ممن أعرفهم، فقام بتوطيد علاقاته مع الكثيرين من رجال الأعمال والمتنفذين القادرين على دعمه وربما حماية أعماله إذا لزم الأمر، كما صار ينظر إلى الحياة بطريقة أوسع، إلى حد أن أحد المشاركين في اللقاءات التي أقيمها في مزرعتي، قال لي، وهو يمسح نظارتيه الطبيتين بمنديل صغير «حين يقف القزم على كتف المارد، فإنه يرى أبعد مما يرى المارد.»

مع ذلك قلت له: عزمي ليس قزماً.

لقد حرصت على إبقاء صورته مقبولة أمام من يأتون إلى مزرعتي، لكنني لاحظت أنه تعرف بسرعة على ما تخفيه أحاديثهم، وما يدور في دخائلهم من أفكار وآراء. وعلى كل حال فقد لاحظت أن عقله شهد تغيرات كثيرة، كما لم أعد واثقاً من تمسكه بإيمانه رغم صلواته التي صادف أن أداها في مزرعتي غير مرة. كلا ثم كلا، عزمي لم يعد مثلما كان، حتى إنه أخفى عني أموراً لم أتمكن من معرفتها إلا بعد حين، كما صار يغيب عني فترات طويلة من دون أن أعرف أين يذهب، أو مع من يكون؟

لكنه على الرغم من ذلك لم يتخلف عن دعواتي له إلى لقاءات المزرعة إلا فيما ندر، وكانت مشاركاته فيها فعالة، مع أن من يأتون إلى مزرعتي هم أناس منتقون، ولكل منهم حكايته معي، بعضهم يذللون

العقبات التي تعترض أعمالي، ليس ضروريا أن يتقاضوا مني أجراً نقدياً، ففي معظم الأحيان تقابل الخدمة بخدمة تساويها أوتزيد عليها أو تنقص، لكنها تتوازن مع تكرار الاحتياج المتبادل. بعضهم الآخر أحتاجهم لتعيين من أريدهم في وظائف أو مراكز عامة أو خاصة، وفي كثير من الأحيان أقوم بمقايضات فيما بينهم، فحين يحتاج أحدهم خدمة أوفرها له عن طريق آخر، كما أقوم بتزكية بعضهم لمناصب أومراكز أو أعمال، حين يستشيرني بعض المسؤولين الذين يأتون أيضاً إلى مزرعتي.

لقد تبين لي أن الحياة سهلة ميسورة في ظاهرها، لكنها معقدة في باطنها، وبين الظاهر والباطن توجد منازل الناجحين من الناس، لأنهم يرون الظاهر ويعرفون الباطن. يكفي أن يُدخِل المرء في روع الآخرين أنه مقتدر وممتد ومتنفذ حتى يلتفوا حوله، ويصير نافذاً من خلالهم هم وسواهم. لكن هذا لا يتسنى لكل الناس، فهو نتاج نفيس لعصارة العقل المتوقد، ثم إن اشتغالي السابق في أعمال البر وجمع التبرعات والمداواة وما شابهها من أمور أفادني كثيراً، وعرفني على بعض الأسماء المهمة التي صرت ألتقي أصحابها في المزرعة فيما بعد.

بين وقت وآخر أدعو أولئك الرجال إلى مزرعتي، نتحدث في كثير من الشؤون، فأستشف الكثير من أسرار وأسباب ما يجري في البلاد، وأعرف كيف أدير تلك المعلومات وأستفيد منها وأربطها بما لدي كي أخرج بنتائج صائبة.

أستقبلهم ببشاشة وحميمية أرى أصداءها في عيونهم ووجوههم، لكنني لم أسمح لأحد بإحضار خليلته أو أية امرأة إلى مزرعتي، التي يعرفون أنها طاهرة مطهرة من كل رجس، فحين ابتعتها، بعد عام من زيارة الرئيس المصري الأسبق أنور السادات إلى القدس، وإلقائه خطابه

المعروف في الكنيست الإسرائيلي، طهرتها مما احتوت من نبات الغرقد المكروه عند المسلمين، ونبات السنعبق الخبيث والعوسج والشوك، ثم زرعتها بالزيتون والعنب والتفاح وخلافها. لكن أمراً واحداً لم أتمكن من إزالته إلى الآن، إنه مخلفات العصور القديمة، أو كما قال لي الجيولوجي، سامي ابراهيم، المعروف بسعة علمه في مجاله، من أن مزرعتي كانت في العهود القديمة قاع بحر، فأيده اثنان ممن كانوا جالسين معنا. ذلك لأنها ملأى بمتحجرات، أو ما يسمونها مستحاثات من الأصداف ونجوم البحر والأسماك وسواها من المخلوقات البحرية التي يبست بعد انحسار المياه، حتى أن عددا منهم صاروا يتجولون في غير مكان منها، كي يلتقطوا بعضا من تلك المتحجرات ليضعوها في بيوتهم.

كانوا يأتون ليلاً كي يسهروا، مرة كل أسبوع أو أسبوعين، أدعوهم بطريقتي فيستجيبون ويحضرون معهم بعض الهدايا التي يأتون بها من بلدان عديدة يزورونها في مهام ومشاركات في مؤتمرات سياسية أو إعلامية أو صفقات أعمال وأموال.

نتحدث في شؤون البلاد والعباد، ونتبادل بعض الطرائف حول ما تنشر الصحف من أخبار، وما يصدر عن بعض المسؤولين من تصريحات ووعود غير قابلة للتحقق في غالب الحالات. وفي لحظات قفر الأحاديث، وهي نادرة الحدوث، أفسر لهم أحلامهم بطريقة سياسية تروق لهم، فالذي يحلم بعقرب أقول له: انتبه لمنصبك. ومن ير ربيعاً حل قبل أوانه أجبْهُ: ستتسلم منصباً مهماً من دون أن يعيقك ماضيك. ومن يحلم بأمه الميتة أقلْ له: الحكومة غير راضية عنك فانتبه إلى ما تفعل... وكانوا يضحكون ولا يصدقون. لكن بعض تلك التفسيرات تصدق، وهذا ما كان يحيرهم.

كانوا يجتهدون في تفسيرهم لأسباب إقالة هذا المسؤول أو ذاك، وتوقعاتهم بمن سيتسلم هذا المنصب أو ذاك، وما إذا كانت الحكومة

ستتغير أم أنها ستعمر بضعة شهور كي تتم دورها في تحسين الأوضاع الاقتصادية، أو حل مشكلة داخلية تتعلق بالنقابات أو الأحزاب، أو إجراء الانتخابات النيابية، أو رفع الدعم عن بعض السلع والمستلزمات، أو تحسين العلاقات مع بعض دول الجوار، أو غير ذلك مما تقتضيه المصالح العامة، ولكي يؤكدوا سلامة اجتهاداتهم وتوقعاتهم، كان بعضهم يبوح بمعلومات تعد من أسرار الدولة. على أن أمراً في أولئك القوم شد انتباهي، وهو أن عدداً منهم يؤدون الصلاة، بمن فيهم بعض من يتعاطون المنكر! وكثيراً ما مازحتهم قائلاً إنهم أسوأ أنواع الانتهازيين، فهم يريدون ارتكاب المعاصي واغتراف لذائذ الدنيا، ثم تأدية الفروض تحسباً من أن يكون كلامي الذي أؤمن به حول يوم الحشر صحيحاً. كنت أصفهم بانتهازيي الدنيا والآخرة، فيردون «إذا كان هذا يضمن دخولنا الجنة فالانتهازية خير وصفة لكسب الدنيا والآخرة!»

شياطين في أثواب رجال! لكنهم ظرفاء.

كثيرون منهم كانوا يمتلكون مزارع أكبر أو أصغر مما لدي، لكنهم ظلوا منجذبين إلى مزرعتي، ذلك لأن ما يدور فيها من أحاديث، ينتقل في اليوم التالي إلى سواهم من المسؤولين والمعنيين بضبط أوضاع البلاد، وأحياناً إلى الصحف التي تتناقل الهمسات والتكهنات في الكواليس والزوايا والأعمدة الخبيثة، كما أنهم يرسلون خلال لقاءاتهم تلك، رسائل وإشارات إلى بعضهم، وإلى شخصيات وجهات بعينها، وكثيراً ما طلب مني بعضهم إقامة عشاء في المزرعة على نفقته، ودعوة فلان من المسؤولين أو علان من الشخصيات العامة، وكنت أفهم غاياتهم وموجبات دعواتهم تلك من دون أن يفصحوا عنها، فأرد: لن تستفيد من دعوة فلان. أو، ستستفيد من حضور علان، وأحياناً أنصح بدعوة أشخاص آخرين كي تكتمل المنفعة.

***

سندس

يوم مات صبري، لم يخبرني أحد عن السبب، قالوا إنه مات بالسكتة القلبية.

كانت أم صبري قد استقبلت منذ الصبيحة الأولى لوفاة ابنها، واعظة منقبة أدخلتها الى غرفة نومي وأغلقت الباب علينا.

نظرت تلك المرأة في عيني فاشتممتُ في ملابسها رائحة نوع من العطر الذي يشوش الأفكار. طلبت مني بصوتها الرفيع الناعم ارتداء منديل أستر به شعري، ففعلت وجلست قبالتها معتقدة أن هذا جزء من تقاليد موت الزوج. استعاذت بالله من الشيطان الرجيم وقرأت بخشوع آية من سورة البقرة (والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا). ثم قرأت علي بنبرة التلقين أحكام عدّة الأرملة التي لم أكن أعرف عنها شيئاً، وأفهمتني بلغة الأمر الشرعي بألا أغادر بيت زوجي المتوفى طيلة مدة عدتي البالغة مائة وثلاثين يوماً بلياليها، إلا إذا لم أجد من يشتري لي الخبز أو الطعام، أو إذا حدث طوفان أو زلزال أو حريق، أو دخل لص أو معتد الى بيتي.

وأن أتجنب ارتداء الثياب الجميلة والذهب والفضة وكل أنواع الحلي والزينة، سواء في الأذنين أم في اليدين أم حول الرقبة أم على الصدر.

وأن أمتنع عن استخدام أي من مواد التجميل، سواء على الخدين أم الشفتين أم اليدين أم الرجلين. أما تكحيل العينين وتلوين الجفون والرموش وتنميص الحاجبين فممنوع باستثناء قطرة العين إذا أصابها

مكروه. لكنها في نهاية حديثها أجازت لي الاغتسال، وكدّ شعر الرأس، وتقليم أظافر اليدين والقدمين. ثم مدت يدها إلى ساعة يدي وانتزعتها باعتبارها نوعاً من الزينة.

حانت مني التفاتة إلى زاوية في الغرفة، فهالني أن العناكب المثابرة قد أقامت بيوتها فيها كما لو أنها تطاردني أنى ذهبت.

سألتها عما إذا كانت أم صبري هي التي أحضرتها كي تقرأ عليّ تلك الأحكام فقالت «لا أعرفها ولم أرها من قبل.» نظرتُ في عينيها اللتين بدتا لوزيتين وراء خمارها وقلت:

من الذي دلك عليّ؟

فأجابت وهي تهم بالخروج «شيخنا الجليل، عبد الحميد الجنزير.»

في اليوم التالي لوفاة صبري، علمت أنه مات أثناء دخوله على فتاة عقد قرانه عليها! هذا ما أسر لي به السائق الذي سلمني مغلفاً من عزمي يحتوي ثلاثة آلاف دينار لغايات إتمام مستلزمات العزاء. ولقد تساءلت بسخط عن سر تلك الجرأة التي لم يكن صبري يمتلكها من قبل، إذ كيف تجرأ على الاقتران بتلك المرأة وأنا موجودة؟ ومن دون علمي؟

استفزتني فكرة خيانته لي. لكن ما قهرني وأحرق قلبي أنه بفعلته أشعرني بأنني لم أعد أتمتع بما يكفي من الجاذبية والأنوثة، وأن تلك المرأة التي عقد قرانه عليها أجمل وأفضل مني! النذل.

كنت قد بكيته لحظة معرفتي خبر وفاته، لكن دموع الغيظ انهمرت من عيني حين عرفت ما خفي عني ليلة موته، فأصابتني نوبة من الغضب، وكسرت زجاجات العطور وعلب الماكياج ومرآة التواليت وسواها مما طالته يدي، وكان من نتيجة تلك النوبة أن سقطت قطعة من زجاج

المرآة على ذراعي اليسرى فجرحتها وسال الدم منها.

شعرت ببعض الارتياح. جلست على حافة السرير وأنا أرقب الدم النازف من ذراعي بلا اكتراث، لكن النزف توقف من تلقاء نفسه!

فكرت بحنق فيما سأفعل، ثم اتخذت قراري الذي أشعر الآن أنه لم يكن في محله، فقد أوقفتُ عزاءه في يومه الثاني، طردت أمه وقريباته من بيتي، هاتفتُ من أقاموا صيوان العزاء المزخرف قرب الدار، وطلبت منهم إزالته فوراً، وفي صبيحة اليوم الثالث لوفاته،ارتديت منديلاً وعباءة سوداء فوق ملابسي، ووضعت كل ملابس صبري وأحذيته في صندوق سيارتي، وذهبت الى ساحة الجامع الحسيني وسط البلد حيث يتجمع العمال والعاطلون، أوقفت سيارتي فالتفّ حولها عدد كبير منهم، تطلعتُ في وجوههم، بحثت عما أريده في ملامح اثنين منهم، أشرت إليهما فصعدا الى السيارة وتوجهتُ نحو طريق المقبرة. كان واضحاً أنهما أكثر بؤساً مما تحتمل الحياة، وربما لم يسبق لهما أن استقلا سيارة تقودها امرأة من قبل.

أخبرتهما بما هو مطلوب منهما صراحة، فترددا وقال أحدهما «لكن هذا حرام يا ستي.» قلت متجاهلة اعتراضه: كم أجر الواحد منكما في اليوم؟

أجاب «ثمانية دنانير». قلت: سأعطي كل واحد خمسين ديناراً مقابل عمل لا يستغرق ساعة أو ساعتين.

فدهشا «خمسون ديناراً؟» وأكمل أحدهما «هذا يكفي أسرتي أسبوعين» وأضاف الثاني «نعرف أن ما سنفعله حرام، لكن، إطعام أطفالنا حلال، والحلال غلاب على الحرام.»

عند بوابة مقبرة سحاب قلت للبواب ومن معه أننا سنحرق ملابس الميت عند قبره تنفيذاً لوصيته، ووضعتُ في يده خمسين ديناراً كي يتقاسموها فيما بينهم، فانفرجت أساريرهم ودعوا لي بطول العمر

مترحمين على الميت.

حين وصلنا قبر صبري، قام العاملان بنبش ذلك القبر الذي لم يكن قد بني بعد، وسكبا الكاز في حفرته حيث الجثة التي أشعلا النيران فيها، ثم صارا يلقيان بملابسه قطعة قطعة في الحفرة حتى احترقت كلها وخمدت النيران. فأعادا تراب القبر إلى ما كان عليه.

هكذا ضمنتُ دخول صبري النار وهو في باطن الأرض، إذ من يدري، فربما لا يدخل النار يوم الآخرة.

***

الجنزير

صدّت سندس كل النساء والواعظات اللواتي أرسلتهن إليها لإقناعها بزواجي منها، ولقد أخبرتُ زوجتي أم صهيب برغبتي في الزواج من امرأة رابعة كي لا تفاجأ، فعلقت قائلة ببعض اللؤم «لا أنصحك بذلك، ليس من المناسب أن تفضح نفسك مع امرأة جديدة بعد أن انثنى عودك وأصابك الهرم.»

قلت لعزمي «ترملت سندس. أريدها هنا بالقرب مني. أريدها زوجة لي قبل أن يأخذ الله وديعته من بدني.»

نظر إلي، فأحسست أن غصة ما قد انحبست في زوايا نفسه، على الرغم من قدرته على إخفاء ما يجول فيها. قال «ولكنك تتحدث عن سندس.» قلت بلا تفكير:

ومن ستكون غير سندس؟

قال ممازحاً «ألم تشبع من النساء؟» فقلت له: وأنت، ألم تشته النساء بعد أن اقتربت من الثالثة والثلاثين من عمرك؟

أشاح بوجهه إلى أشجار التفاح الخضراء، فأتاح لي فرصة التمعن في ملامحه الجانبية وهيئته العامة. قدّرتُ بأنه وقع في شرَك. قلت له ببأس: ما لك يا عزمي؟ لم تجبني.

تظاهر البراءة وأرخى ابتسامة لم تخرج من قلبه، ثم قال «إذا لم يكن لديها ما يمنع، فستأتيك إلى هنا بعد انتهاء عدتها، لكنها صعبة المراس.»

سألته: كيف عرفت؟

فقال «هكذا كانت مع أبي ومع زوجها المرحوم صبري.»

قلت: دعها لي، أنت من سيقنعها، وأنا من سيفكك ما تراكم في قلبها وصدرها من عناد، متى ستحضرها إلى هنا؟

قال «بعد انتهاء عدتها، إذا وافقت.»

استبشرتُ خيراً رغم ما قاله عن مِراسها وموافقتها من عدمها، ذلك لأن سندس هي واحدة من درر الخالق عز وجل، تلك التي أقامت في حجرات روحي، من غير أن تطالها أذرعة الزمان التي تمحو الصور والأصوات. قلت في نفسي: مفاتيح روحها وبدنها ما زالت بحوزتي، وبوسعي إقناعها هذه المرة بارتداء النقاب كي تستقيم حياتها معي.

على الأغلب أنه فهم ما يدور في خلدي، فقد قال لي «الزمان قد يغير الناس، وسندس مخلوقة قد يحول دون الزواج منها خرطُ القتاد.»

كان لقوله هذا وقع الصاعقة في نفسي، أيمكن أن يكون الصدأ قد أصاب مفاتيحي؟ أيمكن أن يغير الزمان مفاتيحها هي؟

«ستأتيك الى هنا.» هكذا قال، وكلمة هنا تعني مزرعتي التي لم تطأها قدم امرأة غير زوجتي أم صهيب.

قلت في نفسي: ربما لم يهجر الوفاء نفس عزمي الذي اعترفَ لي بأفضالي وأفضال هذه المزرعة عليه، ذلك لأن أشجارها وأزهارها ومقاعدها وجدران دارتها المبنية من الحجارة العتيقة، كلها شهدت بدايات تعرفه على الكثيرين من الأعلام والشخصيات والوزراء والنواب والمسؤولين الكبار والمستثمرين وسواهم ممن يديرون الكثير من شؤون البلاد والعباد. كما أن اتفاقاتنا على الكثير من المشاريع والأعمال تمت هنا.

خاله جبران أبو بصير صار واحداً ممن يترددون على مزرعتي ويشاركون في تلك اللقاءات، على الرغم من قتام ماضيه ورواسيه.

مع أنه تغير كثيراً بعد أن أصاب الثراء، ووظف مبلغاً لا بأس به عندما اشترك معنا في تجارة الحديد، وصارت له طموحات وأطماع عرفتها قبل أن يبدأ التردد على مزرعتي، كما أنه ازداد مرونة وتقبلاً لأفكار الغير، بما في ذلك بعض ما تبشر الحكومات به.

***

رباح الوجيه

لعنة الله على الجنزير.

غشني بخلطاته لمّا كانت سندس على ذمتي. مع أني وثقت به، وسلمته روحي عندما بدأت شرب خلطته التي قال لي إنها ستجعلني مثل الحصان وقت الجماع.

طاوعتُهُ، مع أني كنت أعرف أنه دجال. جليلة، رحمها الله وأحسن إليها، هي السبب، لأنه نجح في طرد الجني الذي تسلّط عليها قدام عيني، فقلت لحالي: من يقدر على الجن، يقدر على تصليب عودي مع النسوان.

لكن العكس هو الذي صار معي، فخلطته الكذابة جعلتني أتجنب سندس وأبتعد عنها! ألا يمكن أن يكون قد اخترع لي شراباً يلجمني، بدلاً من أن يحثني على الهجوم على سندس والتمتع بشبابها وجسمها الرطب؟

الله ما أحلى نهديها وفخذيها و... وضحكتها الرنانة. بدني كله كان يهتز كلما سمعت ضحكتها، وشعر راسي يصير مثل المسامير، فأهجم عليها مثل الوحش. لكن، لمّا أصل إلى حزّها ولزّها، ينثني ويعاكسني. فأتذكر كلام والدي رحمه الله لمّا صار عمره سبعين سنة، كان يقول بحسرة «اللي مش بيدك بيكيدك».

على كل حال، تخلصنا من الجنزير ومن دجله بعد أن ترك الحي وصار يعيش في مزرعة، قالوا لي إنه اشتراها من تبرعات المحسنين ومن أموال الناس الذين كانوا يزورونه ويداويهم في داره العتيقه بجبل

الجوفه. لم يعد يزور تلك الدار إلا نادراً، مرة في الشهر وأحياناً كل شهرين أو أكثر، عندما يجمع الشيوخ ويصير يخطب فيهم. وحسب ما عرفت فإنه لا يذهب إلى بيت زوجته الثانية ولا الثالثة وأولاده منها، مع أنه أشبع الناس كلاماً عن الإحسان للزوجات وذوي القربى وغير ذلك مما كان يقول.

الجنزير صار مثل جبران، تكبّر على الناس وما عاد جبل الجوفة يناسب مستواه.

من هذه الناحيه لا دخل لي به هو حر.

لكن عندما أخبرتني فاطمة، أم سندس، أنه حاول عدة مرات أن يتزوج سندس عن طريق نسوان مخمرات أرسلهن إلى دارها ليقنعنها بالزواج منه، لعب الفأر في عُبي وقلت: عملها الجنزير وأعطاني خلطة تهدّني بدلاً من أن تنفضَ بدني. هذا يعني أنه هو المسؤول عن خراب بيتي. فبعد أن طلقتُ سندس وأوقفت شرب خلطته، صرت أتشهّى النسوان من جديد، ولولا خوفي من أن يخونني بدني مرة أخرى، لتزوجت امرأة ثالثة.

طبعاً، للجنزير عيون كثيرة، شباب ورجال ونسوان مخمرات. ومن المؤكد أنهم أخبروه عن سندس، أو أنه رآها في الطريق. وإلا كيف استدل عليها؟

لكن، الحمد لله على أنها كسفته ورفضته، وتزوجها صبري أبو حصة. مهما كان، فهذا أهون مما لو تزوجها الجنزير، ولو وافقت على الزواج منه لحصلت لي مصيبة، أو لأصابتني جلطة.

لما عرفتُ أن عزمي صار من جماعة الجنزير قلت هو حر، لأنه منذ أن كان في بيتي، وهو يصلي ويصوم ويذهب إلى دار الجنزير

ويأخذ دروساً عنده مثل كثيرين من شباب الجبل.

لكن جبران طيّر عقلي لمّا زرته بعد عودتي من المقبرة.

الصحيح أني يومها حنّيت لجليلة الله يرحمها، وزُرتها في مقبرة سحاب قبل أن أذهب إلى دار جبران، يشهد الله أني عيّطتُ كثيراً، وسالتْ دموعي، وسمعَتني طيور القنبر والسحالي والأموات وأنا قاعد عند قبرها. تذكرت أيامها الحلوة وطلبت منها السماح. لكن، سبحان الله، القبر قبر. حجارة وتراب وشوك. حتى شجرة الزيتون التي زرعها عزمي عند رأس القبر، لقيتها ناشفة وأوراقها ساقطة عنها.

ودّعت جليلة في قبرها فشعرت بحنين لجبران وقررت زيارته، قلت لحالي:

على الأقل، جبران هو شقيق جليلة، وشكل وجهه قريب من وجهها، خصوصاً عيناه.

حملت حالي وذهبت إلى دار جبران. طبعاً، الدودة رابعة لم تسلم عليّ ولم أرها. لأنها لم تحبني ولم تستلطفني لمّا كانت تسكن قرب بيتنا في جبل الجوفة.

جبران رجع إلى خبثه القديم، وقال لي إنه لا يعرف دار عزمي الجديدة ولم يزره فيها.

لم أصدقه، لكني سمعت منه كلاماً هز بدني. فقد قال إنه صار يخاف على عزمي من سندس، لأنها تدور وراءه وتزوره في بيته، مع أنها متزوجة من صبري أبو حصه.

تذكرت أنها دخلت بيتي بعد ما طلقتها بحوالي ثلاث سنوات وسألتني عن عزمي، كانت مثل المحمومة. وقبلها، أيام كانت على ذمتي، أحسست أن عينها عليه، لكني راهنت على رجاحة عقل عزمي. والظاهر أن رهاني لم يكن في محله.

بعد أن ترجّيت جبران وصف لي شقتها في منطقة تلاع العلي.

ذهبت إلى هناك وتتبعت وصف العمارة التي تسكن فيها إلى أن اهتديت إليها.

فوجئت بأنها تسكن في عمارة نظيفة مرتبة فقلت لحالي: الله الله يا بنت فاطمة. أين كنتِ وأين صرتِ.

صعدت الدرجات الرخامية حتى الطابق الثاني وضغطت كبسة الجرس قائلا لنفسي:

سوف أقول لها كلاماً قاسياً قدام زوجها الديوث الساقط.

لكن باب شقتها لم يفتح، رننتُ الجرس عدة مرات فلم يفتح. قلت: بسيطة، سأرجع إليها مرة ثانية وثالثة وعاشرة حتى أجدها وأسمعها ما يلزم من الكلام.

نزلت الدرجات وأنا أتذكر صورة سندس، وقلت في نفسي: يا ترى، ألا زالت ضحكاتها ترنّ مثلما كانت في غرفة نومنا؟

***

جبران

في مقاييس الزمن، فإن عدم التقدم يُعَدّ تراجعاً، لأن الزمن ليس ساكناً إنما يسير إلى الأمام، فكيف يكون الأمر حين لا يكتفي الناس بعدم التقدم ويبدأون بالتراجع؟

في ستينيات وسبعينيات القرن العشرين كانت الحياة أيسر من أيامنا هذه، الناس كانوا أكثر انفتاحاً رغم التضييق السياسي. المفاهيم كانت أكثر تطوراً، وتطبيقاتها تدعو إلى الطمأنينة: السياسيون أكثر نضوجاً وترفعاً عن الدسائس والصغائر، الآباء أكثر حرصاً على أبنائهم، سهرات الناس في البيوت أكثر بساطة وابتهاجاً. الأعراس مختلطة. النساء يرتدين ما يحلو لهن من الملابس ويتحدثن مع الرجال بثقة وحرية واطمئنان.

الوضع الآن اختلف كثيراً، فقد انهالت النسوة على ارتداء الجلابيب والمناديل والخُمر، وانتشر الشباب الملتحون الذين يخطبون في بيوت العزاء والتجمعات، وانتشرت الواعظات في المنازل والوعاظ في المساجد والجمعيات والمراكز وخارجها. فسادَ الذهول في أوساط اليساريين والقوميين والليبراليين، ومعهم الحكومات التي تعاقبت على مبنى مجلس الوزراء في الدوار الرابع.

«سحقناكم.» هذا ما قاله لي الجنزير مازحاً متهكماً أثناء حوار دار في مزرعته حول موجة التوجهات الدينية التي شهدت تزايداً كبيراً في الآونة الأخيرة. مع أنه تغير كثيرا عما كان، كما أن زمناً طويلاً مضى

علـى المناكفـات الليـنـة بينـي وبينه، وتحولت العداوة العقائدية بيننا إلى خلافـات فـي الـرأي، بعـد أن قبـل كل منـا الآخـر بلونـه المعتمد، وبما يحمل من أفكار خبَتْ حِدّتها تحت وقع تقدمنا في السن وفهمنا الأكثر عمقاً للحياة وللعبة السياسة، إضافة إلى بعض المصالح المشتركة التي استجدت في السنوات الأخيرة.

حسب معرفتي فإن علاقة عزمي مع الجنزير تعززت كثيراً في الفترة الأخيرة، وصار حليفه الذي يعتد بوجوده إلى جانبه بصرف النظر عن التفاصيل التي أجهل بعضها. لكن أمين عام إحدى الوزارات السـيادية أسـر لي بأن عزمي، تعرض إلى محاولة اغتيال فاشـلة أثناء وجوده في منزله بمنطقة الرابية!

صعقني بذلك الخبر، قلت له: عزمي هو ابن شقيقتي وأعرفه جيداً منذ طفولته، لا أعداء له.

فبـرم شـفتيه وقـال «يمكـن أن يكـون نجاحـه في أعماله سـبباً في استهدافه. تعرف. النجاح ممنوع وله أعداء كثيرون.»

عزمـي نفـى تلـك المعلومـة لتزيـد حيرتي معه وخوفي عليه. ذلك لأن بعض من يشاركون في لقاءات المزرعة يستطيعون إيذاءه من دون أن تتلطخ أو تتسخ أياديهم، وربما تلزمهم إيماءة إلى شخص ما أو جهة مـا، لكننـي تذكـرت أنـه يحتفـظ بنوع من الحماية من أناس كبار تجمعه بهم أعمال ومصالح.



سندس

بعد أسبوع على وفاة صبري ذهبت إلى عزمي في بيته. لم يفاجأ، لكنه قال عندما علم بما فعلت «كان بوسعك احتمال الأمر، يكفيه أنه مات، لماذا أحرقت جثته؟ هذا حرام.» فأجبته: أهانني بفعلته.

ثم أشعلت سيجارة. في الفترة الأخيرة تعلقتُ بالسجائر.

صمت وسرح بعينيه في لوحة معلقة على الجدار البني الفاتح. انتظرت أن يقول لي شيئاً لكنه لم يفعل. كنت بحاجة إلى الخروج من تبعات موت صبري، ذلك أن غيظي منه، وما فعلته به بعد موته، والضجيج الذي ملأ رأسي ورافقني حينها، كل هذا أدى إلى رجوعي إلى جسدي، وأيقظ شهواتي، ودفعني نحو عزمي الذي توقعت أن يفهم سبب زيارتي له، أن يسحق جسدي بجسمه القوي كي أفرّغ ما تراكم في جوفي، أن يعيدني إلى الحياة ويخرجني من دوامة الموت التي أحاطت بي. لكنه لم يفعل شيئا، على الرغم من أن نظراتي إليه كانت تشيع أسرار رغباتي. كان حريصاً متحفظاً وهذا ما زادني بؤساً.

سألته ما إذا كانت العدة ضرورية؟ فابتسم «تسألين والجواب في ملابسك التي ترتدينها، وفي كحل عينيك وشعرك وخروجك من بيتك قبل انتهاء عدتك؟»

أحسست بأن تغيراً ما قد حدث لعزمي، نبرات صوته، نظراته، ملامح وجهه، واستخدامه تلك الكلمات التي هجرها منذ مدة. كل هذا أكد لي صحة ذلك الإحساس الذي ساورني منذ أن دخلت بيته.

حك ذقنه الحليقة ونظر في وجهي «من أخبرك بقضية العدة؟» فأجبته:

واعظة، قالت إن الشيخ الجنزير أرسلها لي.

هز رأسه ورفع حاجبيه، ثم أدار وجهه ناحية اليمين قائلاً «الشيخ الجنزير يريد رؤيتك بعد انتهاء عدتك.»

فوجئت، وحين فكرت بما قاله فُجعت. لقد خرجت الكلمات من فمه كأنما هي لا تخصه. أوزانها كانت أخف من كلماته التي عهدتها. فأحسست بأن أمراً ما أرغمه على قوله.

أيمكن أن يكون جاداً فيما قاله لي؟ سألتُ نفسي وأنزلتُ رأسي ثم فاجأته بنظرة إلى وجهه. كانت ملامحه منقبضة.

لم يكن خائفاً أو منكسراً، لكنه تحدث إلي كما لو أنه اتخذ قراراً من دون أن يكون مقتنعاً به. وحين سألته عما تغير ليوافق على لقائي مع الشيخ الجنزير، بعد أن حذرني من مجرد رؤيته فيما مضى، قال وهو ينظر إلى السقف «الزمن يسير، والناس يتغيرون.»

قلت: ومن المؤكد أن الشيخ قد كبر كثيراً وتغير.

فأجاب «لأنه كبر فقد غيرت رأيي، لن تخسري شيئاً، اذهبي إليه بعد انتهاء عدتك.»

أحسست بأنني لم أعد قادرة على فهم ما يريده عزمي، ما الذي جرى له ليتغير بهذا الشكل السريع؟ لقد رأيت فيه شخصاً آخر غير الذي عرفته وقضيت معه أمتع اللحظات. ما معنى أن يحثني على الذهاب إلى ذلك الرجل على الرغم من معرفته بأنه ليس أهلا للثقة؟ هو الذي سبق أن حذرني منه!

أعاد القول «لن يحدث شيء، الجنزير يريد رؤيتك، هذا كل ما في الأمر، لم يسبق أن طلبت منك طلباً.»

نهضت عن المقعد، حملتُ حقيبتي وهممت بالخروج فاعترضني.

المشكلة أن من وقف أمامي هو عزمي وليس شخصاً آخر. عزمي الذي أعادني إلى الحياة وفلح أثلام جسدي وروحي وعقلي، يريدني أن أذهب إلى الجنزير؟ لماذا؟

قال لي «لماذا وقفتِ». قلت وقد لازمني إحساس بالخذلان:

إذا كان هذا ما تريده، سأذهب إليه بعد انتهاء عدتي حسبما اتفقتما، لكن على مسؤوليتك أنت، والآن دعني أعود إلى بيتي، فأنا ما زلت في فترة عدتي!

***

الشيخ عبد الحميد الجنزير

عزمي لمّاح. قال لي «من يحضرون إلى المزرعة أربعة أنواع، وزراء أو نواب نافذون وسابقون، مستوزرون أو مستنوبون، رجال أعمال وأموال، ونوع رابع من الطامحين بأمور لا يعلمها إلا الله وهم، لذا فهم باطنيون مشفرون.»

سبحان الله.

التقت عيناي بعينيه، قلت له:

أنت تلازمني وتحضر لقاءاتهم عندي، ولستَ وزيراً ولا نائباً في البرلمان فمن أي نوع أنت؟

فردّ بخبث «أنا مثلك.»

قلت: تخرّج في هذه المزرعة وزراء ونواب ومسؤولون كبار ممن تسمع بأسمائهم أو تراهم هنا. نريد وزيراً لنا في الحكومة القادمة.

فأجاب من فوره «لست طامحاً.»

نظرت في وجهه من جديد: إن في عينيك لطموحا راسخا، ومشروع رجل نافذ.

فهز رأسه نافياً «ظلمْتني.»

سطع نجم عزمي في المزرعة وخارجها، صار معروفاً وموضوع حديث بين المسؤولين والمستثمرين ورجال الأعمال الذين ألتقيهم من حين لآخر. فأين عزمي الوجيه من بقية التلاميذ الذين لم أدعُ أيا منهم إلى تلك اللقاءات؟ ليس إقصاء لهم، إنما لأنهم لا يملكون سوى بُعد

واحد وحيد في شـخوصهم، على خلاف عزمي الذي تعددت الوجوه في شخصه وتنوعت، وتمكن من الفصل بين ما كان يجري في جلساتي مـع التلاميـذ أيـام جبـل الجوفـة، وبين ما يدور في المزرعة، فضلاً عما تميز به من كتمان للسر، ومرونة ومعرفة عميقة في أمور شتى.

غير أن هذا أثار في نفسي قلقاً وضيقاً، إذ إن بلوغ الإنسان درجات متقدمة من المعرفة، وكسره حاجز ما هو مسموح به من حدودها، قد يشكل خطراً على وجوده، فثمة أسرار لا يجوز لأحد الاطلاع عليها.

***

جبران

بلغت الستين من عمري، وأتم عزمي عامه الثالث والثلاثين أو كاد.

كثيرون يعتقدون أن سن الستين هو مفصل التقاعد والشيخوخة وغير ذلك مما يتم تداوله بطرق متعسفة. بالنسبة لي، أرى أن الإنسان في هذه السن يصير مثل آلة موسيقية تمت دوزنتها، وضبط مفاتيحها، وأصبحت جاهزة للعزف والعطاء. أذكر أنني قرأت شيئاً من هذا القبيل في أحد الكتب. ثم إن العقل والروح لا يشيخان بمرور الأعوام، إنما يمتلكان الحكمة التي لم تكن بمتناولهما أيام الصبا والشباب. التقدم في السن ليس سوى نوع من التغيير، لكنه لا يعني بالضرورة الاقتراب من النهاية. ثمة شبان يشيخون بسرعة، ومسنون يحافظون على شبابهم ويمتلكون الخبرة والدربة في الوقت ذاته. يحتاج هذا الأمر الى شيء من الذكاء الذي يمد الإنسان بحقائق خفيّة تصوّب علاقته مع العمر.

على أي حال، في مرحلة متقدمة من السن، يشعر الكثيرون من الموسرين برغبة في ارتياد أصقاع لم يقتربوا منها في حيواتهم، أو تجريب أمور لم يسبق لهم أن جربوها.

يمكنني الإقرار بأنني اغترفت من ملذات هذه الحياة ما يكفي ويزيد، سافرت كثيراً ولم أردع نفسي عن فعل ما تشتهيه، جمعت مالا كثيراً عن طريق استثماراتي في ثلاثة مصانع لإنتاج الأغذية والملابس والميلامين، إضافة إلى التداولات بالعملات والأسهم والعقارات التي

حققت لي أرباحاً كثيرة. ارتديت من الملابس ما غلا ثمنه خصوصاً تلك التي تحمل ماركات عالمية؛ بيير كاردان، فيرزاتشي، أرماني وغيرها... جهزت بيتي بأثاث معتّق استوردته خصيصاً من إيطاليا، استخدمت العطور الفرنسية الفاخرة التي لا مثيل لها في البلاد، عشت وزوجتي بمستوى يزيد كثيراً عما كنت أتخيل في سرحات أيام الفقر، وأصِبتُ بتخمة الترف.

لكن، ظلت أمور لم أحققها ولم أقترب منها في حياتي، منها كتابة الأدب أو المذكرات، وتسلم حقيبة وزارية.

لم أجرب كتابة الأدب أو المذكرات من قبل، فقد رأيت أن هذا يحتاج صبراً وجَلداً، كما لم أكن متأكداً من قدرتي على كتابة ما هو نوعي في هذا المجال، ولم أرغب في أن أصير كالمسنين الذين يريدون وضع بصماتهم الأخيرة في دفتر الحياة، عن طريق كتابة هذرهم وهذيانهم حول ما فعلوا خلال حيواتهم، تحت عناوين رومانسية أو كلاسيكية، كالمذكرات أو السير الذاتية أو الأوراق المبعثرة أو رحلة العمر أو محطات من الذاكرة...

قال لي وزير سابق خلال لقاء في مزرعة الجنزير «من هم مثلك صاروا وزراء من زمان،» ثم أردف ضاحكاً «في بلدنا، لو قلبت أي حجر كبير لوجدت تحته فرخ وزير، وأنت قادر على تسلم وزارة في أية حكومة، ما الذي ينقصك؟».

تبين لي أن ذلك الرجل لم يقلها من فراغ، فقد تم الاتصال بي بعدها ودعوتي لشرب فنجان قهوة في أحد المكاتب الرسمية الخاصة، وقد فهمت أن الرجال الثلاثة الذين جلسوا معي في غرفة جيدة التأثيث والتهوية، يرغبون في فتح حوار معي، ربما من أجل التعرف على طريقتي الحالية في التفكير.

عاملوني بلطف واحترام، قالوا لي إنني ورفاقي السابقين نعد جزءاً من التاريخ السياسي للبلاد على الرغم من ماضينا الخلافي. تحدثوا عن حاضري الذي يعولون عليه باعتباري إصلاحيا متنوراً. لا أدري من أين جاؤوا بهذا الوصف الذي لا أحبه، ذلك لأن أسوأ ما يمكن للمرء فعله هو أن يتحول إلى مصلح، لأنه يهدر وقته وجهده في أمور لا نفع فيها، عدا عن العداوات التي تتكاثر من حوله. لكنهم أصروا على قولهم، ثم ترحّموا على أيام اليساريين الذين شكلوا فيما مضى «حالة قابلة للحوار» على الرغم من أنها كانت مصدر أرق لأجهزة الدولة، وتمنوا لو أن اليسار يشحذ همته ويعيد لملمة صفوفه كي يخلق تياراً وطنياً عريضاً يحقق توازناً سياسياً في البلاد.

تحدثنا عن اليسار واليمين والأصوليين والمحافظين والإصلاحيين وغير ذلك من المصطلحات المتداولة في الأوساط السياسية. وحين عدت إلى بيتي تساءلت عما سيعقب تلك الجلسة التي شعرت خلالها بالارتياح، وبوجود ما هو أبعد من مجرد الدردشات السياسية. ولكن، حين جلست مع الشيخ الجنزير وأخبرته بما جرى، أدلى بدلوه لينتشل زبدة الحديث كله.

الذي أثارني هو أن عزمي سألني عما جرى في جلستي تلك!! كيف عرف؟ من أين استقى معلوماته؟

كانت زوجتي رابعة قد أيقنت أنها غير موهوبة في الرسم والفن، فتذكرَت نصيحتي الأولى، وعادت تقرأ وتشارك في الندوات وورش العمل التي تقيمها مراكز الدراسات والمراكز الثقافية وبعض الجمعيات والمنتديات. انضمت إلى الاتحاد النسائي ولجان المرأة، تعرفت على الكثيرات من النسوة اللواتي تبين أنهن زوجات رجال على درجة كبيرة من الأهمية، أقامت دعوات ومآدب لهن ولأزواجهن في بيتنا،

وقمنا بزيارات لبيوتهم، وقد أتاح لي هذا فرص التعرف على الكثيرين والكثيرات ممن كنت أسمع بأسمائهم ولم ألتق بهم.

هذه عادة أو عرف في البلد، فالشخصيات العامة والمعروفة كثيرة، بعضهم في حالة تواصل، لكن معظمهم لا يعرفون إلا أسماء بعضهم واهتماماتهم أو مراكزهم، وحين يلتقون يدعون بأنهم يعرفون بعضهم، من دون أن تجمعهم لقاءات أو جلسات. لا يوجد ناظم لحركة الأسماء في البلاد.

أمر آخر جدير بالذكر مع أنه معروف. فأحياناً تحدث أمور أو تحولات كبرى بسبب تفكير عميق أو تخطيط مسبق أو غير ذلك. وأحياناً يكون السبب صغيراً أو تافهاً أو محض مصادفة، لكنه يغير مجرى حياة إنسان.

ثمة صديقة أنيقة لرابعة تدعى أم رامي، في حوالي الخمسين من عمرها. أحضرَت معها إلى بيتنا ابنها الذي لا يزيد عمره على السنوات العشر، وحين انشغل الجميع في تناول العشاء تذكرَته أمه فسألت عنه، ليتبين أنه أقام علاقة ود مع القط سنزي، وبدا على الطفل رامي أنه قد تعلق بذلك القط، الى حد أنه رفض مفارقته لتناول الطعام. كان طفلاً جميلاً ذا شعر سبطي منسدل على رقبته، ووجه ناعم بريء ينفي أي احتمال لوجود خبث أو عدوانية في طبعه مثلما نلحظ لدى بعض الأطفال، أما ملابسه فمرتبة وتفصح عن رقي وذوق رفيع. أصر على احتضان القط ومداعبته والتمسيد على وبره بجذل وسعادة! وقد تفهمَت أمه ذلك التعلق اللافت بالقط، ففركت شعره بود وتركته. لكنني استغربت حين وافقت رابعة في نهاية الدعوة على طلب أم رامي باستضافة قطها، سنزي، ليلة ويوماً في بيتها! فهي متعلقة به، وحين تعود من أي من مشاويرها تتفقده قبل أن تتفقدني، وتسمع تقريراً من الخادمة، جنجاي، حول ما حدث معه خلال غيبتها، وما إذا تناول طعامه الخاص أو بال أو تغوط.. فكيف وافقت على التخلي عنه مدة يوم وليلة؟

بعد أن غادر المدعوون والمدعوات سألتها عما فعلت، ليس تمسكاً أو خوفاً على القط الذي لم تنشأ بيني وبينه علاقة، إنما كي أفهم سر موافقتها، فادعت حبها لتلك المرأة وابنها.

لكن تبين لي أن والد ذلك الطفل واحد من المتنفذين في البلاد. ليس هذا وحسب، إنما يعرفني أيضاً من دون أن نلتقي. أما أم رامي فهي من أسرة معروفة بثرائها، ولقد قالت لي رابعة تلك الليلة «أحيانا تكون القطط أكثر نفعاً من البشر.» وبدا على وجهها التفكير في أمر ما.

بعد أيام تعززت علاقتنا بوالدي ذلك الطفل، وتبادلنا الزيارات والأفكار والحوارات حول القضايا السياسية وأوضاع البلاد وما حولها.

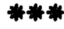
انتابني إحساس بأن تلك العلاقة رُتِّبَت بقصديّة من قبَل المرأتين.

أبو رامي، ذو الوجه العريض والقامة الممتلئة، كان يتحدث بهدوء وثقة، وبعبارات مختصرة تلخص الكثير مما يمكن قوله. ليس ثرثاراً ولا مجاملاً في أفكاره، إنما أكثر ميلاً إلى تحليل الظواهر والأحداث بعقل بارد. فهو يرى مثلاً أن «من الأفضل لنا أن ننأى بأنفسنا عن موضوع اعتقال صدام حسين (كان الأمريكيون قد اعتقلوه قبلها بفترة قصيرة)، مع ضرورة إصدار تصريحات من قبل الناطق الرسمي باسم الحكومة أو غيره من الوزراء، من أجل امتصاص ضجيج المتحمسين في البلاد. لا مصلحة لنا في افتعال الخلافات مع أمريكا وحلفائها. مصلحتنا في الإبقاء على هذا التوازن الذي يضمن لنا الإستقرار والتأثير. ليس من الحكمة أن نضحي بمصالحنا الحيوية من أجل معركة خاسرة مائة بالمائة. العراق يمارس تدميراً ذاتياً إضافة إلى الدمار الذي تعرض له جراء احتلاله للكويت، فلماذا نضع أنفسنا في سلته؟ القضية الفلسطينية

تشكل التزاماً لا نستطيع التنصل منه لأسباب كثيرة منها: العلاقات التاريخية والاجتماعية وتلاصق الجغرافيا والأوضاع الديمغرافية في البلاد. لكن لا يجوز لأحد أن يتوقع منا مهاجمة إسرائيل أو السماح بمهاجمتها من أراضينا، لأن هذا يعد انتحارا. السلطة الفلسطينية نفسها لا تقر مهاجمة إسرائيل وتريد حلولاً سياسية معها. نحن نفعل ما بوسعنا على المستويات الدولية لمساعدة هذه السلطة. نستثمر علاقاتنا مع أمريكا وأوروبا وغيرهما لدعم القضية وإقامة الدولة الفلسطينية، لكن عن طريق العمل الدبلوماسي. أما ما تطالبنا به الأحزاب والنقابات وسائر الأوساط الصاخبة، فمحض ثرثرات غير محسوبة لا يمكننا الأخذ بها، ولو فعلنا مثلما يريدون، لتقوض استقرارنا الوطني الذي يعد مثالياً، ولما وجد المواطنون ما يأكلونه لسبب بسيط، أننا بلد محدود الموارد، لا نحتمل أية ضغوطات أو عقوبات أمريكية أو دولية. غالبية النواب والنقابيين والمسؤولين الحزبيين يقولون لنا غير ما يقولون في خطاباتهم النارية، إنهم يستخدمون لغة أخرى حين يتحدثون معنا..»

شيئاً فشيئاً بدأت مساحات الخلاف بيننا تضيق، ووجدت في كثير مما قاله تعبيراً عن واقع فرضته أوضاعنا وما خلّفت من معادلات لم أتوقعها من قبل.

بعدها بأيام دُعيت إلى جلسة أخرى في ذلك المكتب الرسمي الخاص.



بكر الطايل

حين أتتني إشارة الشيخ الجنزير، كنت جاهزاً للانقضاض على عزمي الوجيه، فالإجهاز على من استولى على أموال المسلمين وعاث في الدنيا فساداً هو عبادة وعمل جهادي، لكن محاولتي قتله لم تنجح، فقد أصابت إحدى رصاصات مسدسي حافة جدار نافذته، حيث كان يقف، وتمكن من الاختباء داخل بيته، مما دعاني إلى الابتعاد بسرعة خشية انكشاف أمري.

لكن الشيخ أسمعني كلاماً قاسياً في غرفة القعدة العربية في داره، وتنصل من إشارته التي جاءت على شكل سكوت حين قلت له إن عزمي يستحق القتل. قال لي «ما الذي دهاك؟ لماذا أطلقت الرصاص عليه؟ عزمي الوجيه يظل واحداً منا، من قال لك إننا نريد قتله؟ نحن لسنا قتلة، ولا يجوز لنا قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق.»

قلت: أليس من الحق أن نقتل من استولى على أموال المسلمين؟

فأجاب بغضب «هذه حكاية قديمة ولم يكلفك أحد بمتابعتها، ثم إنني قلت للجميع منذ أعوام، اتركوه لي، سترون بأعينكم وتسمعون بآذانكم.»

قلت: لكننا، يا شيخنا، لم نر شيئاً ولم نسمع صوتاً على الرغم من مرور سنوات طويلة على ذلك الإستيلاء.

فقام وهو يستغفر ربه، ثم وقف تحت شجرة التوت وهو يسبح بسبحته الطويلة، فأحسست بأنني أغضبته.

حرت في أمري وتبعته، لكنني لم أجد ما أقوله له، مع أنني فسّرتُ سكوته على ما قلته قبلها بأيام، على أنه إشارة على موافقته، وحسب معرفتي به، فإنه في كثير من الأحيان لا يباشر بالإفصاح عما يريد صراحة، إنما يكتفي بالإشارة أو الإيحاء، فحين أبدى رغبته - قبل حوالي عشر سنوات على ما أذكر - في استبدال أحد الأئمة بالشيخ عاصم كساب الذي كان واحداً منا، واصفاً ذلك الإمام بأنه مدع أفاق، فهمت إشارته وذهبت إلى ذلك المسجد لحضور خطبته في يوم الجمعة، وبعد انتهاء الصلاة انتحيت به جانباً، وأسمعته كلاماً قاسياً بسبب طول خطبته وتململ المصلين، وبينت له أن الشيخ عاصم كساب أبلغ منه وأفصح، وأكثر رأفة بالمصلين، لكنه أبدى عناداً وقال بأن من وظفه هم وزارة الأوقاف، فقلت له إن من وظفه يستطيع أن يعزله، ونصحته بالانتقال إلى مسجد آخر، وأنهيت كلامي بعبارة نطقتها بنبرة حازمة متوعدة «من يحضر خطبتك يتمنى لو يحضر جنازتك.»

بعدها انتقل ذلك الإمام إلى مسجد آخر ليتسلم الشيخ عاصم مكانه، وحين علم الشيخ الجنزير بما فعلت قال «أحسنت، لأن الأفاقين والمُطيلين ينفرون المصلين، ونحن نريد جذبهم لا تنفيرهم.»

تركت الشيخ الجنزير واقفاً ويداه خلف ظهره تسبحان بسبحته، وعدت إلى بيتي. فكرت فيما قاله لي، ترددتْ في أذني أصداء صوته وهو يعنفني، وتراءى لي وجهه الغاضب الذي انطبع في مخيلتي، تأملته بهدوء وصفاء، توقفت عند كل كلمة قالها، حاولت إيجاد تفسير لقسوة تقاطيع وجهه، فانتابني خاطر غريب لم أفكر به أثناء سماعي كلماته، وهو أن غضبه قد لا يكون بسبب محاولتي قتل عزمي، إنما لأنني لم أفلح في تلك المهمة.. والله أعلم.

تذكرت أنه ساعدني أكثر من غيري من التلاميذ على مدى أعوام

طويلة، وتغاضى عن كثير من أخطائي، وتقبل إخفاقي في الخطابة في بيوت العزاء، وتجاهل فلتات لسـاني خلال أحاديثنا وحواراتنا، لكنني لم أسأل نفسي: لماذا تسامح معي إلى ذلك الحد؟

قلت في نفسي: الشيخ سايرني. صحيح. لكن لو كان رافضاً فكرة الخلاص من عزمي بشكل قاطع، لما اكتفى بتوبيخي على ما فعلت.

الله وحده يعلم ما في الصدور.

عدت إلى نفسـي: من الصعب أن أفاتح شـيخنا بما خطر لي من أفـكار وشـكوك وهواجـس، فهـو رجـل كاسـح لا يمكنني الصمود أمام هجماته التي تتضافر فيها ملكاته وأعماقه ودربته وتاريخه.

لكنني بدأت أشعر بأن الشيخ الجنزير لم يعد راغباً في بقاء عزمي بالقـرب منـه، لا أدري مـا أسـباب هـذا الإحسـاس، ولسـت متأكداً من صحته، لكنه صار يراودني. خصوصاً أن الشيخ سلامه أبو سداد عضو لجنة مركز الحارث بن الحافي لتحفيظ القرآن قال لي «الشيخ الجنزير تغير منذ أن هجر داره في جبل الجوفة، لم نعد نراه إلا مرة كل شهر أو شهرين. لقد حضّرنا كل أدلّتنا ضد عزمي الوجيه الذي استولى على أموال المركز، لكن مرت سـنوات طويلة ولم نسـتخدمها، لأن شـيخنا الجنزير، لا يريد ذلك حتى الآن لأسباب لم يذكرها، لكننا لم نسترجع مـا اسـتولى عليـه عزمـي من أمـوال المركز. هذا يعني أننا عاجزون عن حماية ممتلكات بيوت الذِكر، أو أننا قادرون على فعل ذلك، لكننا غير راغبين، وفي كلتا الحالتين، نحن خاسرون.»

صبيحة اليوم التالي، وقبل أن يغادر الشيخ داره، ذهبت كي أعتذر منه عما بدر مني في اليوم السابق، فرأيت نائل عثمان، الذي يعمل في الملهى الليلي خارجاً من بيت الشيخ بلباس عادي بسيط!

***

جبران

سألني الجنزير بعد تلك الجلسة في المكتب الرسمي الخاص «هل نجحت في الامتحان؟» قلت: أي امتحان؟

فرفع حاجبيه الأشيبين «إذا لم تعرف الامتحان فمن المستحيل أن تكون قد نجحت فيه.» سألته عما يقصد بعبارته، فتشاغل بالعبث في سبحته من دون أن يلتفت إليّ وقال «الحكومة ستتغير خلال أيام، كنت سأقول لك معالي جبران أبو بصير، لكن واضح أنك لم تنجح في الامتحان يا أبو بريص.»

أبو بصير هو اسم عائلتي وعشيرتي الممتدة التي تقطعت علاقاتي مع الكثيرين من أفرادها وأسرها، بحكم نمط تفكيري وأسلوب حياتي الذي يختلف عنهم بشكل جذري، وبسبب تجاهلي لمطالب بعضهم بالاستدانة مني بعد أن تحسنت أوضاعي.

أراد الجنزير ممازحتي بما قاله لي حين قلب حروف كلمة بصير لتصبح بريص، وهي ممازحة من العيار الثقيل، فما يقصده هو إشعاري بأنني متسلق مثل سحلية أبو بريص. وحيث إن المعاني العميقة غالباً ما تأتي في سياق الفكاهة، فقد مازحته بالطريقة ذاتها، لعبة الأحرف، واستخدمت كلمة الخنزير بدلاً من الجنزير، وحين ضحك أضفت: الغريب أنك متدين، مع أن الخنازير لا تستطيع النظر إلى السماء.

لكنه أمعن في استخدام لقب أبو بريص بظرف في ذلك اللقاء، حتى أنه قال «أبو بريص وكل أنواع السحالي كانت ديناصورات حسبما يقول العلماء، ومن الممكن أن الله تعالى مسخها لتصبح هكذا.»

فـي العـام الأخيـر، لاحظت وسـواي ممـن يلتقون في المزرعة أن لدى الجنزير أموراً يخفيها، فقد صار يغيب أياماً، ولا أعرف أين يذهب، وفتـرات اللقـاءات التـي يقيمهـا في المزرعة تباعدت، حتى أنني مازحته ذات مرة: ظنناهم اعتقلوك.

فردّ ضاحكاً «قد يفعلونها بسـبب اسـتضافاتي لك.» ثم اسـتدرك كأنمـا تذكـر معلومـة مهمـة «لكننـي لـم أعد خائفاً مـن أحد طالما أنك موجود وتجلس في مكاتبهم.»

عزمي أيضاً صار أشـبه بلغز، فقد افتقدته، وكلما حاولت مهاتفته وجـدت هاتفـه النقـال مغلقـاً. لـم يعد يظهر في لقـاءات مزرعة الجنزير إلا فيما ندر. وحين سـألته عن أسـباب ابتعاده أجاب بسـرعةٍ من تَوقع السؤال «أشغال يا خال.»

لـم تعجبنـي إجابتـه تلـك. ربمـا كان محقاً في الاحتفاظ بشـؤونه لنفسه، لكنني خفت عليه، فأنا لست متيقناً من سلامة التعامل مع الذكاء بطريقة كلية أو شمولية. يحتاج هذا الأمر إلى إعادة نظر. ففي كثير من الحالات يكون الإنسان متوقد الذكاء، لكنه في حالات أخرى لا يكون كذلك، إن لم أقل إن ذكاءه يصير أقل من العادي.

ينطبـق هـذا علـى عزمـي بشـكل مـا، وعلى سـواه ممـن أتذكرهم الآن.

أعرف أنه يثق بي، لكنه لا يقول كل ما عنده! حتى أنني في الفترة الأخيرة لم أعد قادراً على تصنيفه أو تحديد وجهته، فتارة أرى فيه رجلاً متمسكاً بإيمانه، وأخرى متحرراً، ثم محسناً، فمغامراً، أو صعلوكاً، أو باطنياً، أومشـروع عاشـق، أومرتبطاً بعلاقات غير مفهومة مع أناس لا أعرفهم، وأخيراً، على علاقة غامضة مع زوجة أبيه السابقة، سندس!

شـغل الجنزيـر وعزمـي حيـزاً كبيـرا فـي تفكيـري، وأحسسـت

بأنهما يمتطيان حصاناً واحداً ويتزاحمان على من الذي سيكون في المقدمة!

لقد تحولا إلى رجلين مغلقين على ما لديهما من خفايا، على الرغم مما يبدو على كل منهما من براءة خادعة، فبناء على ما تجمع لدي من معلومات استقيتها من عزمي، أجد صعوبة في القول إن الجنزير أحب سندس، فالحب يخضع لشروط الزمن وتعرجاته ومحطاته. لو كان يحبها فعلاً، فما الذي يدعوه إلى انتظارها بهذا الشكل الرواقي؟

من حق الجنزير أن يشتهي سندس. لأنها جديرة بأن يشتهيها كل الرجال. لكن ما لم أفهمه هو رغبة الجنزير بها وانتظاره الطويل لها في الوقت ذاته، على الرغم من صدها له. حتى إنني توصلت، أثناء استماعي لتفاصيل ذكرها عزمي، إلى أن الجنزير ظل يعاني صراعاً مكتوماً مع نفسه لسنوات طويلة.

بهذا تعقدت المعادلة التي ظننتها سهلة. فسندس لا تريد غير عزمي حسب قوله. ومطلوب من عزمي إقناعها بالزواج من الجنزير!

في اعتقادي أن خطورة المفصل الذي وقف عنده كل من عزمي والجنزير، تمثلت في قناعة الأخير بأن من يستطيع تحقيق رغبته في الزواج من سندس هو ابن شقيقتي، ما يعني أن عزمي يشكل العقبة المتبقية أمام تحقيق حلم النهاية المجهولة لحياة الجنزير المعلنة والمستترة. هذا بالضبط ما شوّش عزمي الذي قال «تذكرت ما جرى لصبري أبو حصة وبدأت اتخاذ تدابيري واحتياطاتي.»

ومع أنني لم أعد أرى فيما يقوله عزمي مسلمات يتوجب تصديقها دائما، فإنني أحسست عند هذه النقطة، بأن الجنزير صار أشبه بتنين هرم يريد نفث آخر ما تبقى في جوفه من لهيب قد يحرق عزمي.

«لما طلب الجنزير مني إقناع سندس بالزواج منه هذه المرة، رأيت

في وجهه وعينيه عزماً وبأساً لم يظهره لي من قبل، كأنما أراد القول إن زمان العبث قد مضى وانتهى، وجاء وقت الجد.»

هذا ما أخبرني به عزمي قبل فترة من حدوث الكارثة.

***

بكر الطايل

لم أعد قادراً على فهم شيخنا الجنزير بعد أن رأيت نائل عثمان خارجاً من داره، ما الذي أتى به؟ وكيف يدنس دار الجنزير التي كنا نتلقى فيها دروسنا ومواعظنا، وهو يعمل مع السكارى والزانيات؟

هدّأت نفسي ودخلت داره، كان يعد نفسه للخروج، قلت له: متى ستعود إلى هنا يا شيخنا؟

قال «بعد شهرتقريبا، كالعادة.» ثم نظر في وجهي بعينيه اللماحتين وقال بسرعة «جاءتنا معونة من محسنين جدد، أظنك في حاجة إلى المال.» ثم ناولني أربعمائة دينار وأبرز ورقة وقلماً وقال «عدها يا بكر، لأنك ستوقع على استلامك هذا المبلغ وكل المبالغ التي تسلمتها مني، ماذا أفعل، يريدون تدقيق كل سجلاتنا وأوراقنا.»

عددت المبلغ ووقعت إلى جانب اسمي. كان على عجلة من أمره، مع أنني لم أعرف أين يقضي أيامه طالما أنه لا يذهب إلى زوجته أم صهيب إلا نادراً.

قلت له:

رأيت نائل عثمان وهو خارج من دارك، وهذا الرجل يعمل في....

فقاطعني من دون أن تتغير ملامحه «يعمل مع الفاسقين في نوادي الليل.»

قلت: لكنه دنس دارك ومكان دروسنا السابقة.

عدّل وضع عمامته بيديه على رأسه، وشد طرفي عباءته استعداداً

للخروج، وقال لي» أراد رؤيتي ومصافحتي، وهداية الضالين خير من طردهم».

ثم سار نحو البوابة الخارجية للدار فلحقته، خرجت فأقفلها قائلاً «لديك ما تفعله قريباً، سنتحدث عندما أراك في المرة القادمة.» وسار مبتعداً عني.

تذكرت أنني وضعت في جيبي أربعمائة دينار، وهو أكبر مبلغ تسلمته من الشيخ الجنزير، عدت إلى بيتنا، أعطيت النقود لأمي وجلست وأنا أرقب ملامح الفرج على وجهها وأسمع دعواتها لي، وحين سألتني عن مصدر تلك النقود أجبتها:

معونة من الشيخ الجنزير.

فصارت تدعو له وقررت اقتطاع عشرين ديناراً من المبلغ، من أجل شراء بعض المستلزمات لشقيقتي عتاب كي ترسلها لها في مستشفى الفحيص للأمراض العقلية.

أطرقت حين صارت تعد النقود، بقيت صامتا، فانتبهت لي «مالك صفنت؟» قالتها بنبرة استغراب، فأجبتها: أفكر في هذه الدنيا وأهلها.

قالت «ابق مع الجنزير، إنه رجل مبارك، لم يساعدنا أحد مثله، قد تكون لديه معونات أخرى في الشهور المقبلة.»

قلت وأنا أهز رأسي:

اطمئني، سأبقى. لكن لا بد لي من أن أفعل شيئاً.

***

الشيخ عبد الحميد الجنزير

سامحت عزمي على كل شيء إلا سندس، فهي الرحيق الذي يعيد إليّ روحي التي تكاد تجف وتهجرني.

لقد بلغت من العمر ستة وستين حولاً من دون أن تخرج سندس من نفسي، وكثيراً ما فكرت في سر خنوعها لعزمي، وامتثالها لما يريد.

أطلت التفكير في أمرهما، قلت في نفسي: على الرغم مما طرأ على عزمي من تغيرات أبعدته عن دينه، إلا أن من الصعب عليه أن يحب سندس مثلما تتوهم هي، ومن غير الممكن أن يتزوجها، فهو يعرف أن اقترانه بها غير جائز شرعاً وقانوناً. لكنني لم أكن على ثقة من أن عزمي يوافق على زواجي منها، شيء ما في جوفي ظل يرغمني على استرجاع ما قاله لي حين أبلغته رغبتي بسندس، فقلت في نفسي: من الحكمة أن أنتظر انتهاء عدتها.

لم يتأخر فهمي للحياة والناس، كما استطعت العيش بطريقتين تسند كل منهما الأخرى وتعاضدها.

عزمي فهم الحياة في وقت مبكر من عمره، وتعلم أشغال الحاسوب وفنونه وخرائبه، وابتاع في وقت مبكر، جهازاً نقالاً يتحدث عبره، ولما أبديت إعجابي بفكرته أهدانيه من دون تردد، وحين حاول تعليمي على استخدامه وجدت فيه إضاعة للوقت.. لكنني اهتديت متأخراً إلى أنه بزني في اعتصار الزمن، وأزهق بعضاً من بهجتي بما وهبني الله وما

حققت على مدى سنوات عمري. ومع ذلك، رأيت فيه استدراكاً واستكمالاً لما كان ينقصني، وامتداداً لي في هذه الحياة. لكن أمراً فيه ظل يؤرقني، فقد تعلم مني طرائق استقطاب الآخرين وتقريبهم منه، وسبر منابت أفكارهم، وتفكيك ألغاز نواياهم بغية الاستحواذ عليهم، ووجدت نفسي في مواجهة لم أحسب حسابها معه، فقد خرج عن إرادتي على الرغم من استمرار لطفه معي، وصار السؤال الذي يراودني «من منا سيدخل في إرادة الآخر بعد كل هذا؟»

عند هذا السؤال شعرت بتوقف الأرض عن دورانها، وامتناع المياه عن السير في مساربها، وجمود الخلق في أماكنهم حتى لو كانوا يسيرون في الشارع أو يتقافزون.

لما مات صبري أبو حصة، صرفت النظر عن بلبلة هذه الوساوس، ذلك لأن سندس، ضالة روحي ونفسي أصبحت طليقة، لكنها ظلت في قبضة عزمي الذي وعدني بإقناعها، بعد أن فشلت كل النساء اللواتي أرسلتهن لها قبل زواجها من صبري رحمه الله.

لا تغرنكم لحيتي المحناة وتخدد وجهي واخضرار لساني، فقد داويت نساء كثيرات، وارتوت عيناي من أبدانهن من دون أن أرتكب المعاصي، رغم تحرش الشياطين بي وتحريضهم لي من أجل الخروج عما عاهدت الله عليه.

لكنني مخلوق من لحم ودم، ولي نفس محبة جسور، وسندس كانت تمر في خاطري، فيتسرب إلى روحي شذى ينعشني ويشحذ همتي ويعيد جذوة الباه إلى بدني. سندس تختلف عن غيرها، فالشيطان يلازمها، ووطئي لها يمنحني متعة إغاظته وصفعه وطرده.. إن في حلال وطئها لعبادة.

اشتقت لها والشوق ليس بمثلبة، فقد نَمَت وتفتحت تلك البذرة

التي زرعَتْها في نفسي أيام زياراتها لبيتي، واحتملتُ صدها لي بعد طلاقها من رباح، وقبل زواجها من صبري الذي اقتاده قدره إلى تلك الميتة المبكرة، كما رضيت بجور صدها وتواريها وانشغالها ببعلها، فسندس التي جعلتها خليلة روحي كلما خلدت إلى نفسي، جارت علي، واقتادها عزمي الوجيه وليّن حجارة قلبها، ليجعلني رهينة إفراجه عن روحها.

لقد عادت تحتلني غداة موت زوجها، فأحسستُ بضعف لم تشهده حياتي من قبل، وصار لزاماً عليّ أن أفعل شيئاً، بغية التخفف من عذاب ابتعادها عني وتجوال روحها في نفسي، فأقمتُ واحدة من حلقات الأذكار في صالون بيت مزرعتي، بحضور عدد من تلاميذي القدامى، وجميعهم فوجئوا بتلك المزرعة التي لم يسبق لهم أن رأوها.

كنت قد أقلعت عن تلك الحضرات الصوفية منذ ما ينوف على ثلاثين عاماً، بعد أن تقشّعَتْ أمامي حقيقة البدع التي انطوت عليها، لكنني اضطررت إلى إقامتها هذه المرة كي أبلغ نشوة الانعتاق من بدني وتطهيره، على الرغم من اختلاف فهمي للدنيا وما عليها ومن عليها، ولقد تمكنتُ من مغادرة بدني بعد ساعة من وقوفي وسط حلقة التلاميذ، الذين لم يكفوا عن التمايل وذكر الأوراد التي ذكرتها لهم، مع ترديد (يا هو يا هو يا هو هو هو هو، يا حنّان يا منّان) بصوت جماعي أعادني إلى الوراء ثلاثين عاماً، وكنت مثلهم، أرددها بوجد وتقرّب إلى الله تعالى، فيما حلقت روحي بعيداً عن بدني الذي أقامت فيه سندس منذ أعوام، وحين غرزتْ يمناي سفوداً مدبباً في بطني فنفد من ظهري، تلامعت بعض العيون، ثم سحبت يدي ذلك السفود وأخرجته من دون أن تنزل من بطني أو ظهري قطرة دم واحدة.

رأيت كل هذا وروحي سابحة في أعالي السماء، مبتعدة عن بدني، باحثة عن سدرة المنتهى، ولقد استراحت نفسي إثر انعتاقها وابتعادها عن بدني. لكنني بوغتّ حين رأيت سندس من عل، مرتدية نقاباً وجلباباً

أسـود يُفصّـل حـركات بدنهـا المتمايـل أثنـاء ترديدها (يـا هو يا هو...) بمثابرة تبز ما يفعله تلاميذي الذين كانوا كالمريدين في تلك الليلة، ولا أدري ما إذا أحسوا بوجودها بينهم أم لا، لكنني سرعان ما أصبت بفزع أرعش روحي أثناء تحليقها، إذ إن سـندس كانت بمثابرتها تسـعى إلى الوثوب خارج بدنها واللحاق بي حتى وأنا في طريقي إلى السماء! وهذا ما خلخل توازني أثناء تحليقي، فوقعتُ من عل، مثل طائر خذله الجناح فهوى، لأجد نفسي ممدداً على الأرض بين التلاميذ الذين سكبوا على وجهي ماء بارداً، وغسلوا به جرحاً أصاب قرن رأسي فأسال دمي.

لما رأى عزمي ذلك الجرح في اليوم التالي أصر على اصطحابي إلى المشفى كي يقطبوه، فأبيت قائلاً: من يفتح الجرح يقطبه.

وإذ أقطـبَ حاجبيـه قلـت: شـفاء جرحي رهـن بتقطير دموع امرأة فيه.

هـز رأسـه وبـدا أنـه فهـم مقصـدي «لا أضمـن دمـوع سـندس.» فقلت:

هي التي فتحته وأشرعته لخبث الرياح ومكرها.

يعجبنـي أن عزمـي يفهـم إشـارتي قبـل أن أتمها، فقد تركني قائلاً «سـتكون مهمتك صعبة إذا أتتك إلى هنا، فتقطير الدموع أمر لم تتقنه المتصوفة ولا المعتزلة.»

قلت: لأنهم لم يهتدوا إلى المفاتيح.

ثـم تفقـدت جيـوب عقلـي وروحـي فتحققـت مـن وجـود تلـك المفاتيح، وبدأت انتظار انتهاء عدة سندس على مواقد من الجمر.

***

جبران

بعد ارتشافي وزوجتي رابعة قهوتنا الصباحية المُرة في حديقة منزلنا، بحضور القط الذي ظل يتمسح ببنطال بدلتها الرياضية البيضاء، قلبَتْ رابعة فنجاني في الصحن وانتظرت قليلاً. ثم حملتْه ونظرَتْ في داخله. قالت «ستتلقى خبراً سعيداً خلال ساعات أو أيام.». سألتُها: أهذا ما يقوله الفنجان أم ما تريدين قوله؟

فردّت باسِمة «الفنجان السياسي هو الذي يقول لا أنا.» ثم تنهدت من دون أن ترفع عينيها عن الفنجان «طريقك سالكة، لكن عليك الابتعاد عن عثرة قد تعترضك.» سألتها وقد طابت لي لعبتها الصباحية: عثرة سياسية؟

فأجابت «سمّها سلالية، ها هي في القاع، انها أشبه بكتلة شائكة أكثر منها عثرة.»

أحسست بأن رابعة صارت كالمسؤولين والسياسيين والمثقفين الذين ألتقيهم في مزرعة الجنزير وفي بيتي أو بيوتهم، تتحدث بلغة الرموز والشفرات! إذ لماذا لم تقل صراحة بأن علي الابتعاد عن عزمي ابن شقيقتي كي تصير طريقي سالكة إلى مبنى رئاسة الوزراء، على بعد خمسمائة متر من منزلي؟

سألتها: رأيتِ أم رامي بالأمس؟

فأجابت «اتصلتْ بي بعد انتصاف الليلة الماضية.»

التقت عيناي بعيني القط الذي ظل يتمسح بقدم رابعة. أحسست أنه يطالبني بالابتسام، وضبطتني رابعة وأنا أبتسم له لأول مرة منذ أن

شاركَنا حياتنا في المنزل.

ما إن أعادت فنجان القهوة إلى المنضدة حتى رن جرس هاتفي النقال، التفتتْ نحوي كأنما تستحثني على الرد، نظرتُ إلى الاسم الذي ظهر على شاشة الجهاز، ترددتُ قليلاً وقلت: هذا عزمي، ابن حلال.

فردّتْ بامتعاض «أشك في أنه كذلك.»

قال عبر جهاز الهاتف «مبروك يا خال.» سألته: على ماذا؟

فأجاب «ألم تقرأ الصحف، اسمك بين المرشحين للوزارة التي سيشكلونها.» قلت:

تكهنات، لم يخبروني بشيء.

فرد بثقة «صحيح، لكنهم اختاروك، أنا متأكد.»

بعد انتهاء المكالمة لوت رابعة وجهها قائلة بضجر. «ما دخله هو؟» نظرت إليها: ألا زلت تكرهينه؟

فاعتلت وجهها ملامح جادة «هذه المكالمة قد تضرك.» ثم استدركت «أنا لم أكره عزمي، لكنني أحبك فقط وأخاف عليك.» قلت: حتى يوم رفضتِ مبيته في منزلنا؟

فأجابت «نعم، رفضتُ لأني أحبك ولا أريد لعزمي أن يقترب منك، وجوده بالقرب منك قد يكشف لك ما قد ينغص عليك حياتك.» ثم نهضت ودخلت البيت من دون أن تسمع تعليقي.

حين تصفحتُ إحدى الصحف اليومية، وجدت فيها أخباراً تتحدث عن أسماء مرشحة للحكومة التي ستُشكل خلال أيام. كان اسمي من بينها. وجدت خبراً مماثلاً في ثلاث صحف أخرى، كنت واحداً ممن وردت أسماؤهم في الصحف الأربع، على خلاف آخرين وردت أسماؤهم في صحيفة أو اثنتين أو ثلاثاً.

عاد عزمي إلى الظهور والاتصال عبر الهاتف، فتجنبتهُ مؤقتاً.

شـاركت في لقاء بمزرعة الجنزير بعد أن طلبت منه أن لا يدعو عزمي فبُهِت. لكنه قال لي «كما تريد يا صاحب المعالي.»

عند بعض المفاصل في حياة الإنسان لا ضير من اتخاذ قرارات حاسمة حتى لو أدت إلى غضب الأقرباء والمقربين.

ضم ذلك اللقاء نخبة من الشخصيات العامة والمسؤولين والوزراء السـابقين، فثمـة مائـدة دسـمة مـن المعلومـات التـي تصلـح للأحاديث الطويلة والاجتهادات، حول من سيتسلم هذه الوزارة أو تلك.

تحدثنا وتكهنّا كثيراً، ثم أمسك الجنزير يدي واصطحبني لنتمشى في ممر ترابي بين الأشجار. فاجأني بقوله «حظك يفلق الحجر، فبعد أن زكّينا عدداً من الأسـماء كي يصير أصحابها ضمن الطاقم الوزاري الجديد، اختاروك أنت.»

قلت له: لماذا لا تكون أنت وزيراً في الحكومة الجديدة؟

فضحك بطريقة لم أسمعها من قبل، كانت ضحكته أشبه باحتكاك وتباعد منتظمين لحجرين، ثم انقطع ذلك الاحتكاك فجأة، وقال مشيراً إلى الأشجار من حولنا «هذه ليست مزرعة، إنها مصنع، والصانع أهم من المصنوع؟»

كانت عبارته مؤثرة وبليغة، إلى حد أنني خاطبت نفسـي صادقاً: من حقه أن يعتد بنفسه إلى هذا الحد.

ظـل يمشـي إلـى جانبـي صامتـاً، لعله أراد اختبـار التفاعلات التي أحدثهـا كلماتـه فـي نفسـي. تنحنـح قائلاً وهـو يزيح حجراً عن الأرض بحذائه «على كل حال، سأعتبرُ نفسي رابحاً ما دمت ستصير وزيراً، أليس هذا ما كنت تطمح إليه وتخطط له؟ صحيح أنك لم تحمل إبريق وضوء في حياتك، ومحسـوب على اليسـار الذي صار يلتقي مع الحكومات أكثر من سـواه، لكنك تظل واحداً من رواد هذه المزرعة والمخلصين لها، أم أنني مخطىء؟» ضحكتُ:

لستَ مخطئاً، لكنك لستَ مصيباً، لأنك تريدني أن أصدق كل ما قلته، بما في ذلك تزكيتكم وجهاً يسارياً مثلي.

قال «لم لا تصدق؟ ألم يكن هذا سبباً في اقترابك مني رغم اختلافنا؟ ثم ما الفرق بين وزير يميني أو يساري حين يصير في الحكومة؟»

فاجأني من جديد بما قال، فآثرت عدم التعليق.

صمت ثم قال هامساً «كنا سنزكي عزمي أيضاً ليكون ضمن الطاقم لولا..». فوجئت بما قال، لكنني سألته بسرعة: لولا ماذا؟

فأجاب بنبرة استياء «لديهم معلومات لا تسر عنه. هي تتراوح بين المعلومات والشكوك، لا تقل لي بأنك لا تعرف شيئاً عن عمله في التهريب هو وعدد من الأسماء المعروفة وغير المعروفة؟ ألم تسل نفسك من أين جاء بكل هذه الأموال والممتلكات التي تعرفها أكثر مني؟»

حاولت التقاط أنفاسي لاستيعاب ما سمعت فأكمل «هو حدثني قبل ثلاثة أعوام عن أناس يهربون الأجهزة والبضائع عبر الحدود، ويعبثون ببيانات جمركية تخص استيراد الحديد كي يتملصوا من دفع جماركها، يفعلون ذلك بالاتفاق مع بعض المخمنين وسواهم، ويهربون بعض السلع إلى العراق المحاصر بحجة دعم صمود الأهل هناك، لكنهم يحققون أرباحاً خيالية. يسمون التهريب إخراجاً، ويرون أنه لا يخالف الشرع، لأنهم يساعدون الفقراء من عائداته، هذا ما قاله ابن شقيقتك، حتى أنه حدثني عن فتوى عجيبة حصلوا عليها من شيخ معتكف في بيت قريب من وادي رم، وتنص على أنه (إذا كانت المواد العابرة للحدود قد اشتُريتْ بالمال الحلال، وإذا كانت لا تحتوي ما يخالف شرع الله تعالى كالمنكر والمخدرات والأفلام الخليعة وخلافها، وإذا كانت الحدود بين اثنتين أو أكثر من ديار الإسلام التي يقتضي الشرع

أن تكون وسواها من ديار المسلمين في المعمورة تحت إمارة واحدة، وإذا كانت الغاية من هذا الإخراج هي مساعدة الفقراء والمحتاجين من المسلمين وتوزيع ريعه عليهم، فلا إثم في ذلك ولا غضاضة.)

تسرب إلى نفسي إحساس بأن الجنزير ليس بعيداً عما يفعلون، سألته: أهذه فتواهم أم فتواك أنت؟

فضحك «ستظل سيء النية حتى لو صرت وزيراً، اسمعني حتى النهاية ثم أدِر مفتاح وساوسك. عزمي ليس بسيطاً، فحين سألته عما إذا كان يعمل معهم في الإخراج؟ نفى بشدة، لكن نفيه لم يكن على قدر من التماسك المقنع الذي يدخل الروع. ولكي أسهّل عليه مهمة الاعتراف، قلت له: حتى لو كنت تعمل معهم في هذا الذي تسمونه إخراجاً، فاحرص على أن لا تنكشف، لأن انكشافك يعني فشلك، والناس ينفضّون من حول الفاشلين لأنهم يصبحون ضعفاء، هذا إذا لم يحاربك الجميع بمن فيهم أقرب الناس إليك. أما رد فعله فقد اتخذ سلوك الحذر في أقواله، وهذا ما رجّح كفة شراكته معهم، وساهم في كشف سر ثرائه المبكر. لكنني مارست فضيلة تجاهل الأمر منذ ذلك الحين، فعزمي لا يقوم بمثل هذه الأعمال وحده، ولكل شيء أوانه، ثم إن بعض الظن إثم.»

قلت له: هل تريد إبعاده من طريقك لتتهمه بالتهريب؟

افتعلَ ضحكة سريعة وقال «أسوأ ما يفعله الإنسان هو الدفاع عن الخطأ.»

لكن أموال عزمي هي من إرث أمه، سبق أن حدثتك عنها.

قلت بثقة، فضحك «إرث أمه يجعله ثرياً إلى هذا الحد؟ فكرت ثم أجبت: استثمَرَ الإرث مثلما يفعل الناس، أين الخطأ في هذا؟

فهز رأسه «ما قلته لك هو معلومات.»

ساورتني شكوك بأن الجنزير شريك له في ما يفعل على الرغم من كل ما قال، أو أنه يلوح بتوريطه لسبب ما. سألته: من هم شركاؤه؟

فنظر في وجهي كما لو أنه عرف ما جال في خلدي، ذلك لأنه باغتني بقوله «لقد ابتعدتَ كثيراً في تفكيرك.» ثم تلفت حوله وأخفض صوته «لنترك هذا الموضوع الآن، أريد منك خدمة.» قلت: وهل هي مهمة حد الالتفات يمنة ويسرة والحديث بصوت مبحوح؟

فأكمل «بالنسبة لي مهمة جداً، وأهم من كل ثرثراتنا، أريدك أن تقنع عزمي بتنفيذ ما طلبتُه منه كي نبقى أنا وهو أصحاباً.» سألته: ما الذي طلبته منه؟

فحك لحيته قائلاً بصوت رق قليلاً «أريد الزواج من سندس، عزمي وعدني بإقناعها، لكنه يراوغ.»

قلت: وماذا عن التهريب؟

فأجاب «أعرفك نبيها، قلت لك أن تنفيذه لما طلبت سيبقينا أصحابا.»

في طريقي إلى بيتي تذكرت ما قالته رابعة وهي تقرأ ما أسمته الفنجان السياسي. لماذا لم تخبرني بما لديها طالما أنها اعتبرت عزمي عثرة في طريقي؟ لماذا اكتفت بطلبها الموارب مني بالابتعاد عنه؟

والجنزير؟ أي فخ يحضّره لي بطلبه الزواج من سندس؟ هل يظنني غبيا لأصدق أن رجلاً مثله شارف على إتمام السادسة والستين من عمره وتزوج ثلاث مرات، يريد البدء بحياة زوجية جديدة بعد خراب مالطا؟ ومع من؟ مع سندس؟ ثم، عزمي يعمل في التهريب؟ ولديهم معلومات؟ أيمكن أن يكون قد بلغ هذه المرحلة من الخراب؟ ألا يمكن أن تكون مصالحه تضاربت مع مصالح الجنزير ليلفق له هذه التهم التي قد تجره إلى الهلاك؟ ولنفرض أن ما قاله الجنزير صحيحاً، فهل يريد جرّي إلى

لقاءات مع عزمي لتلويث اسمي في هذا الظرف الدقيق؟

أسئلة كثيرة خطرت لي بعد عودتي من بيت الجنزير، لكن أمراً واحداً أحسستُهُ أكثر أهمية من كل تلك الأسئلة: حتى لو كان عزمي بريئاً، فمن الأفضل الابتعاد عنه الآن.

زارني بعض الرفاق السابقين بعد أن قرأوا ما نشرته الصحف. كان اثنان منهم قد سُجنا معي بداية السبعينات في سجن الجفر. توقعت أن يكون لهما رأي مختلف، لكنني فوجئت بتحمس الجميع لفكرة أن أصير وزيراً! قالوا كلاماً كثيراً «أساليب العمل السياسي تغيرت. التغيير لم يعد ممكناً إلا إذا شاركنا في صنع القرار. أشكال النضال القديمة انتهت منذ إلغاء الأحكام العرفية وإقرار قانوني الانتخاب والأحزاب. لا فائدة من مواجهة الحكومات. يجب أن نعمل من داخلها لإجراء التغيير الذي كنا نطالب به ونحن في السجون وخارجها. نريد وزيراً في الحكومة، هذا حقنا، ولا يتعارض مع يساريتنا.»

أحسست بوجود أمر يرغبون في تذكيري به، وهو أن من سيختارونني لأكون وزيراً لم يفعلوا ذلك لسواد عيني، إنما لأنني - حسبما قالوا - أمَثلُ تياراً متجذراً في الحياة السياسية في البلاد، إنه تيار اليسار الذي سيتم إرضاؤه وإشراكه في الحكومة بعد ازدياد نفوذ الإسلاميين في مجلس النواب وفي الشارع. غير أن أحدهم قال، بعد أن ظل صامتاً طيلة الجلسة «اختاروك لأنك من آل أبو بصير، مسألة توازنات عشائرية يمكن بيعها لليساريين لإيهامهم أن الحكومة تضم واحداً منهم.» رجل آخر كان قد تعرض لضربة على وجهه بإبزيم حزام عسكري أيام السجن، فخلفت آثار جرح تحت شفته السفلى، قال متبرماً «ما تقولونه يعني أننا كنا نناضل من أجل استلام السلطة، أو حتى هامش من السلطة.» فانهالت عليه انتقاداتهم اللاذعة واتهاماتهم

له بعدم القدرة على استيعاب متغيرات السياسة والزمن. وبينما نتحدث، إذ بالباب يقرع، فتحته فوجدت نفسي وجهاً لوجه أمام عزمي الذي احتضنني وحاصرني بكلماته المؤازرة المركزة. لم أجد ما أقوله له غير كلمة «تفضل»، فدخل وجلس على أحد المقاعد بثقة، عرّفتهم عليه: عزمي الوجيه، ابن شقيقتي.

فقال أحدهم «معروف، لكننا توقعناه أكبر سناً.» ثم صاروا يتلفتون إلى بعضهم بشيء من الارتياب، أما هو فبدأ يتحدث بطلاقة عن أسماء أعلن عن ترشيحها للاستهلاك الصحفي والتمويه على الأسماء الحقيقية التي اختيرت، تحدث عن سبب التغيير الذي سيتم خلال أربع وعشرين ساعة، وتمكن من جذب اهتمام الجالسين الذين صاروا يستوضحون منه عن بعض الأمور. كنت سأقول إن أحداً لم يبلغني بعد بأنني سأصير وزيراً، لكنني آثرت الصمت، وتثاءبت متظاهراً النعاس كي يتركوني لأفكاري وتأملاتي التي ألحت عليّ بضراوة. لكن فجأة رن هاتفي النقال فساد صمت في الصالون، نظر الجميع إلي كأنما عرفوا أن ذلك الهاتف يحمل الخبر اليقين، مع أن مكالمات عدة وردتني قبله من الأصدقاء ولم تحظ باهتمامهم. نظرت إلى شاشة الجهاز فلم أجد رقماً ولا اسماً، كل ما رأيته هو *Private Number*، فاستأذنتُ خارجا إلى إحدى غرف البيت:

أنا جاهز يا دولة الرئيس، سأكون عندك خلال ربع ساعة.

هكذا انتهت المكالمة مع الرئيس الجديد.

***

رباح الوجيه

أخيراً لقيت سندس في شقتها، فتحت لي الباب، نظرت في وجهي باستغراب، ثم قالت كأنها لم تغب عني كل تلك السنوات «أهلا رباح» وأدخلتني دارها.

قعدنا في الصالون، صالون كبير ومؤثث ما شاء الله.

سألتها عن زوجها فقالت إنه مات! قالتها بدون اهتمام، كأنها تحكي عن صحن انكسر.

خمّنت بأنها زعلانة منه. لكنها عادت تقول بجد «صبري مات!»

عزيتها بموته، فقالت «الله لا يرده!»

فكرتُ: محتمل أنها امتصت بدنه وأفرغت له عظامه فمات. ويمكن أن تكون قتلته حتى يخلو لها الجو مع عزمي.

سألتها كيف ومتى والسبب وغيره وغيره، فأجابتني بكلام مختصر لم أفهم منه إلا بعض الأمور الصغيرة.

لكنني انتبهتُ إلى أنها ترتدي فستاناً أحمر بدلاً من الأسود. كما أن الحزن لم يكن ظاهراً عليها. ثم إن عدتها لم تنته في ذلك الوقت، فكيف أدخلتني إلى شقتها!

قبل أن أبدأ كلامي عن عزمي قلت لها:

البيت مغلق علينا وعدّتك لم تنته، هذا حرام أم أنني غلطان؟

قالت «من الآخِر، ماذا تريد مني؟ لماذا زرتني؟»

صوتها لم يكن صوت أرملة فقدت زوجها قبل حوالي شهرين، ونبرتها كانت عاليه.

تشجعت وقلت لها: اسمعي يا سندس، لما كنتِ على ذمتي، عرفتك وعجنتك وخبزتك، وعرفت من أيامها بأنك كنت ترسمين على ابني عزمي، ابعدي عنه.

صارت تضحك. أطلقت ضحكتها التي تشبه صوت النصال على البلاط.

قلت لها: مالك؟ ما الذي يضحكك؟

قالت «ألا زلت تظن أن عزمي هو ابنك؟»

أنا متأكد من أنني لم أكن أحلم، كنت في علم، وشعرت بأن عظامي تخلخلت ووقف شعر رأسي. صِحْتُ بها: سندس، احكي مثل الأوادم.

لكنها أوجعتني بكلامها، أحرقت قلبي ودمي عندما قالت «أنت لم تنجب أحداً» وذكرتني بالفحص الذي أجراه لي طبيب التناسلية أيام كانت على ذمتي، فقلت:

العبي غيرها.

قالت «أنا لا ألعب، لديك عيب خَلقي، والعقم رافقك منذ ولادتك.»

وقفت وقلت لها: كذابة، هذا الكلام عيب، لا تؤلفي من عندك.

تركتني ودخلت إلى ممر في شقتها.

صفنتُ وصرت أفكر. كأني اشتممت رائحة دمي وهو يحترق في عروقي: عزمي ابن رجل غيري؟ أيمكن أن تكون جليلة...

رجعت سندس ومعها ورقة عتيقة مختومة، أعطتني اياها وقالت «اقرأ بنفسك حتى تقتنع، هذا هو تقرير طبيب الأمراض التناسلية قبل ثلاثة عشر عاماً.»

قرأته ويدي ترجف، قرأته مرة ثانية وأنا أغلي، ثم وجدت نفسي أبكي بصوت عال. عيطتُ قدامها مثل الولد الصغير، وانهالت عليّ كل هموم الدنيا، وشعرتُ أني مخصيّ من زمان.

أخذتْ التقرير مني ودخلت الممر، ثم رجعت وفي يدها كوب ماء.

شربتُ وأنا أرتجف، تشردقتُ ولولا لُطفُ الله ورحمته لانقطع نَفسي.

لكني استرجعت قوتي وكابرتُ قائلاً لها:

هذه واحدة من ألاعيبك يا سندس. احكي الصحيح لأني أخاف أن تصيبني جلطة فأموت بسبب تقريرك هذا.

فردّت بعين قوية «تستطيع أن تذهب إلى أي طبيب للأمراض التناسلية، وأن يفحصك ليقول لك الحقيقة، من يدري، قد يكون الطبيب صاحب هذا التقرير مخطئاً.»

قبل أن أغادر شقتها سألتها عن دار عزمي، فرفضت أن تدلني. قالت إنها تعرفها لكنها لا تريد أن تدلني عليها.

لم أحاول الضغط عليها لأني أعرفها أكثر من غيري، أعند من الصخر. لكن سألتها: هل عرف عزمي بهذا التقرير؟

فأنكرت وقالت «لم يعرف، لكن من يدري، فقد يعرف في وقت قريب.»

لمّا رجعتُ إلى بيتي أصابتني سخونة أو حمّى، وصرت أرتجف، وظل العرق يتصبب من وجهي ويسيل على رقبتي. ارتخى بدني. إرتميت على الفراش وغطيت جسمي كأني في عز الشتاء. صرت أهلوس. قلت لنفسي: إذا كان تقرير سندس صحيحا، فهذا يعني أنها محللة لعزمي شرعاً، ومن الممكن أنه قد عمل بها السبعة وذمتها وهي على ذمتي.

تذكرت سنين عمري منذ أن تزوجت جليلة، تذكرت كل شيء، كأن الحياة شريط سينما مر من قدام عيني. تذكرتُ جليلة ليلة قالت إن الجني ركبها أول مرة بعدما تزوجتها بتسعة أشهر، لم تكن حاملاً بعزمي...

صرت ألهث، وهات يا دموع.

قمت لأشرب، فتعثرتُ بعتبة الباب ووقعت، انكسرت رجلي وصرت أصيح، سمعتني فاطمة، أم سندس، من دارها، فتحت البوابة عليّ، ولما رأت حالتي صارت تضرب على صدرها، فغبتُ عن الوعي، ولما أفقتُ وجدت نفسي على سرير أبيض في مستشفى البشير، رجلي مجبصنة ويدي مجروحة من عند المرفق.

لكنني صممت على الذهاب إلى طبيب الأمراض التناسلية بعد أن تشفى رجلي من كسرها الذي عطّلني.

***

جبران

حين أعلن التشكيل الحكومي الجديد، فوجئت بإعلانات المباركة التي احتلت مساحات وصفحات في الجرائد اليومية إلى معالي الأستاذ جبران أبو بصير. مباركات كثيرة من أناس أعرفهم وآخرين نسيتهم، مع صورة حديثة لي لم يسبق أن رأيتها. أما من أمّوا مكتبي في الوزارة لتهنئتي فكانوا بالمئات، وجوه أعرفها وأخرى نسيتها، وثالثة لم يسبق لي أن رأيتها، إضافة إلى عدد من رموز المعارضة والنقابيين الذين لم أتوقع حضورهم.

عزمي نشر تهنئته لي على صفحتين متقابلتين في ثلاث جرائد، وهو ما أثار حفيظة زوجتي رابعة التي قالت لي بانفعال «عزمي يريد القضاء عليك قبل أن تبدأ.» قلت: ماذا أفعل لشخص يريد تهنئتي؟ ثم من قال لك إنه استشارني؟

فتذمرَتْ «من يُرد الأذى لا يستشر من سيؤذيه، من الأفضل أن تبعده عنك.»

أستطيع القول، بناء على تجربتي، إن أول ما يلفت انتباه المعارض حين يصير وزيراً، هو تلك الحيل النفسية التي تتكاثر وتتوالد لتخلق لديه يقيناً بأنه يستحق الوزارة بعد تاريخه النضالي الطويل، وأن وجوده فيها خير من بقاء الوجوه التقليدية التي لم تفعل شيئاً للوطن.

بالنسبة لي، كانت الوزارة طموحاً مشروعاً سعيت بصمت من أجل تحقيقه.

حين تسلمت حقيبتي الوزارية، اعتاد لساني بتلقائية غريبة على ترديد ألقاب وألفاظ لم أستخدمها من قبل؛ سيدي، دولة، باشا، معالي، عطوفة، بيك... هذه الألفاظ أصبحت جزءاً من تقاليد أحاديثنا وحواراتنا في اجتماعات مجلس الوزراء وسواها. ثم وجدت نفسي أمام مجموعة من الحقائق التي أرغمتني على إعادة ترتيب أفكاري السابقة حول كثير من القضايا، فموازنة الدولة التي ناقشناها باستفاضة قبل عرضها على مجلس النواب، كانت تعاني عجزاً حاداً متوارثاً يتطلب حلولاً لا سبيل إلى تجنبها، كرفع الدعم عن عدد من السلع الأساسية، وزيادة بعض الرسوم الجمركية، وضغط النفقات الحكومية، كل هذا من أجل تحقيق معادلة خفض العجز وتقاسُم الأعباء مع المواطنين،الذين يجب أن يتفهموا أننا لسنا بلداً نفطياً، ولا توجد لدينا ثروات طبيعية تنعش اقتصادنا الوطني وتحميه من التعثر، كما أن ديوننا الخارجية في حالة صعود وازدياد، جراء العجز المتراكم على مدى سنوات طويلة. حتى إن واحداً من وزراء «\التكنوقر\ط» قدم مداخلة مبنية على معلومات إحصائية ادعى صحتها، وتفيد بأن كل ما يمتلكه المواطنون من منازل ومزارع وأراض ومنشآت وعقارات في بلدنا لا يساوي أكثر من 9 ٪ من أراضي المملكة، في حين تمتلك الدولة حوالي 91 ٪ من هذه الأراضي، ثم اقترح أن تقوم الدولة ببيع ما نسبته خمسة بالمائة من أراضيها وبعض عقاراتها غير الضرورية للمستثمرين العرب والأجانب، بهدف الخروج من أزماتنا الاقتصادية، وسداد الديون الخارجية التي تثقل كاهل الخزينة باستحقاقاتها وخدماتها السنوية، عدا عن تحقيق مستوى معيشي أفضل لمواطنينا.

حينها استيقظت ترسبات مرحلة المعارضة في نفسي ودفعتني إلى الرد على ذلك الوزير بحدة: هذا يعني أنك تريد بيع البلد للمستثمرين من كل الجنسيات!

فأجاب بطريقة آلية مرقمة «أولاً ستظل الدولة هي صاحبة السيادة

على كل الأرض وما عليها، ثانياً، ستظل تملك 86 ٪ من أراضي المملكة، ثالثاً، الدولة لا تستطيع استثمار أو استصلاح هذه الأراضي بسبب شح الموارد المالية، رابعاً، ما قيمة الأرض إذا لم يتمكن المواطن من العيش الكريم عليها؟ خامساً، علينا أن ندرس النماذج التي حققت وثبات اقتصادية عن طريق تكييف أوضاعها مع المتغيرات الجديدة في العالم، سنغافورة وقبرص مثلاً. أخيراً، ما قدمتُهُ هو مجرد اقتراح للخروج من مآزقنا الاقتصادية وخدمة مواطنينا. إما أن تقبلوه أو ترفضوه.»

وعلى الرغم من أن تلك الفكرة أثارت جدلاً حاداً انتهى بالاتفاق على طيها وتأجيلها وعدم إفشاء ما دار حولها من حوارات في الجلسة، إلا أنني اضطررت إلى إعادة التفكير فيها بعد انتهاء أعمالي في وقت متأخر من الليل. قلّبتها على وجوهها، فوجدت فيها حلاً ومنطقاً قابلاً للتداول والنقاش، بل إنني قلت في نفسي: لا بأس من تبنيها. لكنني تذكرت أن المعارضة ستتهمنا بالتفريط وربما ببيع الوطن، أما إذا صرفنا النظر عن الفكرة فستنتقد أداءنا الاقتصادي وتحتج على رفع الدعم عن بعض السلع، وعلى زيادة الرسوم الجمركية التي ستؤدي إلى رفع الأسعار وإفقار المواطنين. باختصار، لن تكون المعارضة راضية في الحالتين، وفي الوقت ذاته، لن تستطيع تقديم حلول لأزماتنا وعجز الموازنة وتراجع مستوى معيشة المواطنين.

كان مفهوم السلطة غائماً في ذهني قبل تسلمي تلك الحقيبة، لكنه صار يتضح بمرور الأيام وتراكم المعلومات، فالصورة ليست وردية مثلما كنا نشيع للمواطنين بثقة مبالغ فيها، فثمة إرباكات وأخطاء وتجاوزات كثيرة من بينها توظيف الأقارب والمعارف، والمحاباة، وتمرير بعض العطاءات الحكومية والإعفاءات وإبرام الصفقات وغير ذلك، لكن لا أستطيع تعميم مفهوم الفساد على كل من هم في السلطة. أنا شخصياً

لم أمارس أيا من تلك التجاوزات باستثناء تعيين شقيق زوجتي رابعة في دائرة شبه حكومية بوظيفة رئيس ديوان.

هاتفني الجنزير مرات عديدة، ذكرني بما طلبه مني بشأن سندس، ودعاني إلى المشاركة في عدد من اللقاءات التي أقامها في مزرعته، لكنني في كل مرة كنت أعتذر متذرعاً بانشغالي. كنت معنيا بالتخلص من دالته التي بدأت تزحف باتجاهي في الفترة الأخيرة، وقد أحسست أنه استاء كثيراً وتحدث بغضب في آخر دعوة وجهها لي. ثم توقف عن الاتصال بي، لكنه أرسل لي واحدا ممن يلتقون في مزرعته ليقول لي حرفياً «يحدث أن يرتكب الصانع خطأ في مصنوعيته.»

تملصتُ من عزمي أيضاً. فقد حاول زيارتي في البيت والمكتب، وفي كل مرة كنت أقول له: أجّلْها لأنني مشغول.

ثم بعدها لم أعد أردّ على مكالماته، وصرت أترك هاتفي النقال مع مرافقي كي يرد على ما يردني من هواتف مدعياً أنني في اجتماع، بينما أحتفظ في جيبي بالهاتف الآخر الذي يحمل رقمي الخاص الجديد. تخلصت من عدد كبير ممن كنت أعرفهم بمن فيهم بعض رفاقي السابقين، ذلك لأن الإجابة على الهواتف النقالة والأرضية واستقبال الأعداد الكبيرة من الراغبين بالزيارة، يعني استنزافاً للوقت، وانقطاعا عن العمل، وانشغالاً بالمجاملات التي لا لزوم لها على حساب خدمة المواطنين، خصوصاً أن الناس في بلدنا يتحدثون ساعة كاملة كي يقولوا ما يمكن قوله في جملة واحدة أو اثنتين.

عزمي وجد حلاً، فقد اهتدى إلى رقم هاتفي الجديد، وحوّل رقم هاتفه إلى *Private Number* كي يرغمني على الرد على مكالماته، ذلك لأنني لا أستطيع تجاهل مكالمات الأرقام الخاصة التي لا تظهر على الشاشة، فهي غالباً ما تكون من دولة الرئيس أو سواه من المهمين في الدولة.

لم يكتف عزمي بذلك، إنما فاجأني ذات صباح بزيارة في الوزارة من دون موعد مسبق. لم يتوقف عند مدير مكتبي ولا سكرتيرتي، إنما وجدته بغتة أمامي وخلفه السكرتيرة ومدير المكتب وحارسي الشخصي، وجميعهم كانوا مندهشين.

صرفتُهم فجلس بجانب طاولتي، قال «أعرف أن الناس يتغيرون حين يصيرون وزراء، لكنني جئتك كي أطلب القلادة التي خبأتها أمي عندك قبل وفاتها.»

تأملته فلمحت في عينيه تصميماً على ما يريد، قلت: أي قلادة؟

فأجاب بلا تردد «قلادة الليرات العثمانية التي ورثْتها عن جداتي.»

شعرت في نبرته أنه ليس ابن شقيقتي الذي أعرفه. لم يكن بحميميته السابقة. أنا أيضاً لم أعد كذلك، أمور كثيرة جفت في داخلي، لكن لدي أسبابي التي يتوجب تفهمها. قلت: المرحومة أمك أخبرتني قبل وفاتها أنها خبأتها في بيت والدك، ابحث عنها هناك، لكن ما حاجتك بها؟ لديك الكثير من الممتلكات والمال الحلال.

تعمدت التشديد على كلمة «الحلال» كي أرى تأثيرها على ملامحه، لكن تلك الملامح لم تفصح عن أي شيء، كأنما لم يسمع، بل إنه نهض قائلاً «من الأفضل أن تجدها يا خال.» قلت: تأكد من معلومتك وابحث في بيت أبيك، لا تتعامل مع الأمور على هذا النحو الذي لا يليق برجل مثلك، ذكي ومعروف في البلد.

قبل أن يغادر مكتبي تذكرت الجنزير، وأحسست أنني ابتعدت عنه أكثر مما يجب، وتذكرت ما طلبه مني حول رغبته في الزواج من سندس، فوجدتها مناسبة لنقل خبر يرضي الجنزير. قلت لعزمي: حسّن علاقتك مع الشيخ الجنزير، حاول أن تحقق له ما يريد.

فالتفت إلي وهز رأسه «سأحاول إقناع سندس، لكن لا أضمن موافقتها.»

أحسستُه محتدماً مع نفسه، وفسّرتُ اتصالاته بي وزيارته لي بمنأى عن مسألة القلادة، إذ على الرغم مما يبدو عليه من اليقظة والتحفز، إلا أن زيارته المفاجئة ذلك الصباح، أوحت لي باختلال ثقته بي وربما بنفسه وبالآخرين، وبحاجته إلى شيء من الحنان والاهتمام في تلك الفترة بالذات. ربما كانت أعماقه تستغيث بصمت. تساءلت في نفسي: أيمكن أن يتخلى عنه شركاؤه وأصدقاؤه؟

ثم فكرت وقررت بسرعة: لا أستطيع حمايته أو التضحية من أجله، إذ ربما يشتغل فيما يسمونه بالإخراج مثلما قال لي الجنزير الذي لا ينطق عن الهوى.

***

سندس

في الصبيحة الأولى التي أعقبت انتهاء عدّتي، صحوت من نومي، فسمعت أنفاس الجنزير وأحسست بخطواته في غرفتي، كان يدور حول سريري من دون أن أراه، وكدت أغطي جسدي كي لا يرى عريي. تذكرت أصابعه التي عبثت بظهري وعمودي الفقاري قبل ثلاثة عشر عاماً. تذكرت سندس الأخرى وهي تراقبني في غرفة الدخان.

سمعت صوت جرس الباب فارتديت ملابسي وفتحته. رأيت رجلاً أسود ببدلة داكنة يقف بالباب. قال إنه من طرف الشيخ الجنزير ففهمت البقية. قلت له: انتظرني أسفل البناية وسألحق بك.

أغلقت الباب. ارتديت عباءة سوداء فوق ملابسي، وخرجت الى حيث السيارة الأمريكية البنية وسائقها الذي اصطحبني الى مزرعة كبيرة، وهناك وجدت الجنزير بانتظاري، قرب جدار قصير ممتد من نبات اللافندر المقصوص بعناية، وإلى جانبه رجل يرتدي مئزراً أسود وعمامة بيضاء، وبالقرب منهما شاب تشير هيئته إلى أنه يحرس المزرعة أو يرعاها.

نظر الجنزير إلي بشوق لم أره في وجه رجل من قبل، لكنه بدا لي أكثر كهولة مما توقعت. كان حاجباه أشيبين وحناء لحيته حائلا، أما شعر رأسه فلم أتمكن من رؤيته بسبب العمامة التي يعتمرها، وإن كنت قد رأيت بعدها، خلو رأسه من الشعر باستثناء خصل خفيفة بيضاء. كان يرتدي عباءة سوداء مبطنة بالساتان الأخضر. لم يصافحني. إنما اكتفى بالابتسام لي والقول بثقة «أخيراً؟!»

ثم سار نحو مصطبة واسعة، فتبعته وخلفي صاحب العمامة

البيضاء. كان المكان يوحي بتغير طرأ على الشيخ، فأنا لم أر على الجدران سوى سورة قرآنية واحدة، ولم أشعر بأنني في بيت رجل متدين قيل في وقت ما بأنه واحد من أولياء الله. رأيت أرجوحتين مغبرتين، وسبعة مقاعد من البامبو، وطاولتين صغيرتين تحت عريشة مكللة بالياسمين، أما ما تحت شجرة الكينا الضخمة على بعد أمتار من المصطبة، فرأيت مكاناً مجهزاً بالطاولات والمقاعد الكثيرة، فيما بدت لي أشجار المزرعة الممتدة راسخة ومزمنة.

جلست على أحد المقاعد فغاب صاحب العمامة البيضاء ثم عاد ومعه دفتر كبير، فتحه وسأل الجنزير من دون مقدمات، وبوجود عامل المزرعة والسائق «هل تقبل بسندس بنت عدلي خليل الطيب زوجة لك؟» فأجابه «نعم.»

أدار وجهه نحوي وسألني «هل تقبلين بالشيخ عبد الحميد محمود حسني الجنزير بعلاً لك؟»

فوجئت، ووجدت لساني ينطق: لا.

ثم وجهتُ حديثي الى الشيخ الجنزير الذي خذلته عيناه: نحن لم نتفق على هذا، لم نتفق على شيء.

فأمر السائق بتوصيل صاحب العمامة البيضاء بمرافقة حارس المزرعة الى بيته، وبقينا وحدنا.

قال «الم يخبرك عزمي؟» قلت: أخبرني أنك راغب برؤيتي فقط.

فحانت منه التفاتة إلى ذراعي المجروحة التي انزلقت عنها عباءتي، حاولت لملمة تلك العباءة، فتلمس آثار الجرح بأصابعه وهو يقول باهتمام «هذا جرح أعسر، ما سببه؟ «فأجبته: كسرتُ المرآة حين علمت بموت زوجي.

غرز عينيه المكحلتين في عيني فأنزلتهما. نظر إلى جرح ذراعي وقال «كل ميت يترك أثرا.» قلت: لكنه شفي.

فهز رأسه ببطء «جرحك لم يلتئم.» قالها فأحسست بأنه يتحدث عن جرح آخر، وحين خلع عمامته ووضعها جانباً رأيت في زاوية رأسه جرحاً حديث العهد، قال مشيراً إليه بسبابته «جرحك هنا، في رأسي.»

ثم أحضر أنبوباً زجاجياً، دس إصبعه فيه ثم أخرجه مغلفاً بمرهم أخضر ذي رائحة نباتية، وبدأ يدلك مكان جرحي من دون أن أطلب ذلك.

انداحت في بدني متعة أعادتني إلى ذكرى غرفة الدخان، ظلت عيناه منغرزتين في عيني اللتين ابتلتا، لا أدري لماذا ابتلتا، ربما لأن صورة عزمي ظهرت في مخيلتي تلك اللحظة، تلك الصورة التي لم تكن بنقائها وصفائها الذي عهدته فيه.

واصل عمله بليونة وثقة ترافقت مع أنفاسه الخشنة، فازداد ابتلال عيني وحدرت دموعي، وفوجئت به يمد يده إلى خدي ويبللها بتلك الدموع ويمسح بها جرح رأسه.. ثم يباغتني بنبرة رجل على شفا الهجوم «ستتزوجينني؟»

انتفضت فجأة، كأنما صحوت من حلم ملتبس وقعت أحداثه على شفا هاوية عميقة كدت أسقط فيها. نهضت ولملمت عباءتي. جلست على مقعد بعيد عن متناول يده وأشعلت سيجارة. أحسست بقوتي. شيء في داخلي بدأ يكنس نفايات روحي وأعماقي. هاتفتُ عزمي فبدا كما لو أنه خالي الذهن من نية الجنزير في الزواج مني، حتى انه قال بغضب «هذا يعني أنه أعدّ لك ولي فخاً.» فقلت:

بدلاً من التفسير تعال وأعدني إلى شقتي.

بدا لي الجنزير بائساً منكس العينين مهزوزاً، مرت ثوان من الصمت سمعت خلالها خشيش حنجرته وصدره أثناء تنفسه. قال لي بوهن «جرح رأسي سيشفى، لكن جرح روحي لن يشفى بغير زواجنا.»

تلك كانت أول مرة أسمع فيها حشرجاته ونبرات صوته الهزيلة، فشعرت بأنه شاخ وهرم أكثر مما توقعت.

لم أعلق، فتنهد «ألم يوافق عزمي؟»

بعد صمت قصير وجدتني أقول بحنق: لم يستشرني أحد.

فقال بألم «مع أنني اتفقت معه.»

ثم صمت قليلاً وقال «ألم يتزوج عزمي إلى الآن؟»

تأملت وجهه علني أعثر على سبب لسؤاله الغريب، ثم قلت: لم يتزوج.

أدار وجهه ونظر إلى الأرض الممتدة أسفل المزرعة ثم قال «متأكدة من أنه لم يتزوج؟»

فقلت بلا تفكير: لديك ما تريد قوله.

لكنه لم يعلق.

لقد ازددت يقيناً بأن ما بينه وبين عزمي أكبر من أن يدركه عقلي، فحين يتحدث أحدهما عن الآخر يصير أكثر جدية ويميل لسانه الى الاختصار، لكن، أين أنا بينهما؟ ما الذي يريده عزمي مني؟ عزمي الذي أطعته برضاي وفعل بي كل ما يشتهي، ثم قدمني بتلك السهولة، إلى الجنزير الذي يوقظ أنوثتي من دون أن يستطيع فعل شيء؟ لماذا يريد الزواج مني؟!

حضر عزمي بسيارته إلى المزرعة، التقت عينا الرجلين، كانت القسوة واضحة في نظرات عزمي، بينما عينا الجنزير ظلتا تنضحان وعيداً، كأنما لم يبق منه سوى بريق عينيه الحادتين. لم أدر ما إذا كانا جادين أم أنهما يتمان تمثيل دوريهما أمامي. فأنا لم أعد أثق بأحد.

تصافحا بفتور، فتح عزمي باب سيارته فاستقللتها، أغلق الباب ورائي ووقف مع الجنزير على بعد خطوات، لم أسمع ما قالا، وحين

عـاد إلـى السـيارة منطلقـا بهـا بسـرعة، كانت ملامحه قـد تغيرت. خيم الصمـت علينـا طيلـة الطريـق، لـم أبادر إلى النطق، أما هو فبدا منشـغل البال متضايقاً.

حيـن جلسـنا فـي شـقتي، أحسسـت بقـوة غيـر مألوفة تسـري في عروقي، وتحررني من أوهام أو أحلام عبثتْ بي طويلاً.

انتبـه إلـي، بـارك رفضـي الـزواج مـن الجنزير. فسـألته عن موعد زواجنا.

عاد يفهمني أن القانون والمحاكم تمنع ذلك...

كان من الممكن أن أزود عزمي بتقرير قديم يثبت أن رباح يعاني عقمـاً خَلقيـاً يمنعـه مـن الإنجـاب منـذ ما قبل زواجه من جليلة، كنت قد أطلعتُ رباح الوجيه عليه، حين زارني بلا موعد قبلها بأيام، لكنني فضّلتُ إخفـاء هـذا الأمـر عـن عزمـي طيلـة الأعـوام التي انقضـت، خوفاً من رد فعله، فمثل هذه الأمور قد تؤدي إلى عواقب لا أستطيع تصور نتائجها، وأنـا أحببـت عزمـي ولـم أكـن راغبة في أن يكون التقرير سـبباً في تدمير علاقتي به، وربما تدميره هو. فقد عرفته جيداً خلال السنوات التي مضت، وتوقعت أن يفعل أي شيء إذا قرأ ذلك التقرير الذي سيفجعه، لذا أقنعتُ نفسي منذ البداية بأن أكون عشيقته، مع إشعاره بأنني أحلّ له، من دون ذكر الأسباب. كنت أتستر وراء جهلي منتظرة اللحظة المناسبة.

ظل عزمي ينظر في وجهي كأنما يريد معرفة ما أفكر به، فنهضت ودخلت غرفة نومي، دسستُ ذلك التقرير في مغلف أغلقته وعدت إليه، وضعته على الطاولة أمامه وخاطبته بنفاد صبر، وبنبرة لم يسبق لي أن استخدمتها في أحاديثي معه:

سـتجد فـي هـذا المغلـف مـا قـد يغيـر حياتـك، خذه إلـى بيتك، سـنتحدث بعـد أن تقـرأ مـا فيـه، ومن يـدري، فقد تتزوجني بعدها، هذا إذا لم تكن قد تزوجت.

خانني عزمي، وعليه أن يدفع ثمن خيانته.

أستطيع قول هذا من غير تردد أو مسايرة، فقد استرجعتُ كل إشاراته ووقائع اختلائي بسندس أيام حجرة المداواة، وفكرت ملياً، وفضضتُ اشتباكات الروح والبدن والعقل، ثم وصلت بين الخيوط التي تاهت أطرافها في عباب رغبتي بها وحيرتي برفضها زواجي منها، فتكشّف لي أنني في غمرة انهماكي مع التلاميذ ورواد المزرعة وأعمالي وسواها، لم أقم بإزاحة الغشاوات والغلالات التي عمد عزمي إلى إسدالها على نواياه وقسمات وجهه وعباراته المضللة.

فحين حضرت سندس إلى مزرعتي ورفضت زواجي منها، شعرت أن روحاً جديدة قد حلت في بدنها، وألبَتني نفسي على عزمي. فهو الذي نفذ إلى بواطنها منذ أن عاش معنا في بيت رباح. هو الذي ظل ممسكاً بتلابيبها وحال دون زواجي منها بعد أن طلقها رباح. وهو الذي استحوذ على روحها وعقلها في آن معاً، أما أنا فلم أهيمن سوى على روحها أيام كانت تحضر إلى غرفة المداواة.

كان لا بد لي من الولوج إلى عقلها منذ البدء.

لمّا رفضَت زواجي منها، تراخت مفاصلي وهزل صوتي وتشققت هيبتي، فأيقنتُ أنها لم تعد قابلة للدخول في حوزتي، لكنني تمالكتُ قوتي للحظات عندما حضر عزمي ووضعها في سيارته. أوقفتُه على بعد أمتار من تلك السيارة، قلت ببعض القسوة: خنتني. خالك خانني مثلك.

فردّ «لا علاقة لي بما يفعله خالي جبران، أما سندس فأمرها بيدها لا

بيدي.» قلت محاولاً بث الخوف في نفسه: ألم تقتل صبري أبو حصة؟

فأجاب «أنت من قتله.» قلت: دفاتر إيصالات التبرعات التي جمعتها ولم تسلمها للمركز ما زالت بحوزتي، وقد حميتك ممن كانوا سيقتلونك.

أجاب «لستُ بحاجة إلى من يحميني.»

ازددت غضباً: وأموال السحت التي جمعتها مما تسمونه إخراجاً، أتظنني غافلاً عن مساربها ومصادرها؟

فأجاب وقد تغير لونه «افتراء، أموال السحت كلها في جيوبك منذ أن ذهبنا إلى بريطانيا.» وقبل أن يستدير نحو سيارته جمّعتُ نفسي المنهكة، وغرزت نظراتي في عينيه قائلا:

أريد سندس والبقية عندك، سأنتظر اتصالها بي وموافقتها على زواجي منها في أقرب وقت، أما إذا اخترتَ خلاف ذلك، فلن تستطيع معاتبتي، لأن من تظن أنهم سيحمونك، سيبتعدون عنك حين تصلهم أخبار غضبتي، فثمة من هم أكبر منهم، وستصير مثل ريشة في مهب عاصفة ستدهمك من حيث لا تدري. مع أن حياتك تعنيني.

ثم رميت طرف عباءتي على كتفي بحزم وبأس، واستدرت مبتعداً عنه.

لكن سندس لم تهاتفني!

قلت في نفسي: لقد علا عزمي وارتفع كثيراً.

ثم تراءى لي واقفاً على حافة شاهقة في مرتفع الحياة، وعزمي يخاف الأماكن المرتفعة منذ طفولته، عرفت هذا قبل ثلاثة عشر عاماً، عندما ذهبنا إلى وادي اليرموك ولم يستطع الوقوف عند حافته كبقية التلاميذ..

خاطبت نفسي: ها إنه يحث الخطى هذه المرة مقترباً من حافة الهاوية.

سندس

حين عاد عزمي إلى شـقتي بعد أيام، كنت قد تعرفت على كثير من خفايا حياته الأخرى التي فاجأتني وأحدثت انهيارات في أعماقي، سمعتها بأذني، لكنها أعانتني على التخلص من كثير من أوهامي وعوالق الماضـي، وأدت إلـى اختـلاف نظرتـي إلـى كل الناس، حتى إنني عدت إلـى المحطـات التـي توقفـت فيهـا على مدى الأعـوام الماضية: أتراني عابثت نفسي وخادعتها طيلة تلك الأعوام؟

رأيت في عينيه وهيئته ارتباكاً لم يتمكن من إخفائه.

سألته: هل عرفت من أنت؟

قال «أوراقك مزورة، مؤكد أنك أغويتِ الطبيب ليكتب لك هذا التقرير الكاذب عن أبي.»

قلـت: ألا زلـت تقـول إن ربـاح هـو أبـوك؟ أتظنني كنت سـاذجة حين قلت إنك تحلّ لي؟

«مع ذلك لن أتزوجك.» قالها بحزم.

قلت باعتداد: تأكدتُ من هذا قبل أن تأتي، وعرفت كل ما أخفيتَهُ عنـي، وعرفـت أيـن كنـت تذهـب كلما أطلتَ غيبتـك وأغلقت هاتفك، لكنني الآن حسمت أمري بعد أن كدتُ أضيع في ظلام عالمكم.

رق قليلاً «حتى لو كان رباح ليس أبي، ما ذنبي أنا؟»

قلت: لست معنية بالذنوب.

لـم أر عزمـي مـن قبـل منفعـلاً، فقـد اعتـدت هـدوءه وسـيطرته واسـتحواذه علـى مـن يحدثـه، لكنـه هـذه المـرة بدا لـي مختلفاً في كل

شـيء: عيناه المتوعدتان اللتان اتسـعتا في دائرتي جفونه التي احمرت، خـداه اللـذان كانـا ينتفضـان بيـن لحظة وأخـرى، ألفاظه وصراخه الذي لم يسبق لي أن سمعته.

قلت: لا تسـتغرب، كل شـيء ممكن، بما في ذلك أن تكون ابن الجني الذي زار أمك قبل أن تحمل جنينك.

فصفعني على وجهي «لا تتحدثي عن أمي الطاهرة.»

لم أجد وسـيلة للانتقام لنفسـي غير الاسـتمرار في إغاظته، قلت وكفّي على وجهي: رباح ما زال حياً، بوسعك الذهاب إليه واصطحابه إلى الأطباء، وسيقولون لك ما لا تريد سماعه أو تصديقه. والآن اخرج من بيتي، فما اجتمع رجل وامرأة في بيت واحد إلا كان الشيطان ثالثهما. أليس هذا ما تحبون قوله للناس دائماً؟ قل هذا لشيخك الجنزير.

قـال بوجـوم «لا أسـتبعد عنـك شـيئاً، ألـم تحرقـي جثـة زوجـك المرحوم صبري أبو حصة؟» قلت: لكنني لم أقتله..

ازداد وجومـاً، وقبـل أن يـرد،رن جـرس هاتفـه النقـال، رد عليـه، تغيرت ملامحه، صار يتحدث بانفعال، فهمتُ أن من يهاتفه أحد أصحابه أو المقربين منه. كانت آخر عبارة سـمعتها منه قبل أن يخرج مسـرعاً.

«راقبوا الطريق، دقائق وسأكون عندكم.»

***

العقيد رشيد حميدات

كان علينا أن نلقي القبض على المدعو عزمي الوجيه حتى لو لم يبق منا واحد على قيد الحياة، فقد بلغْنا مرحلة من الإصرار والاستنفار لم يبلغها أسلافنا منذ أعوام طويلة.

راقبنا التقاطعات الخطرة التي قد تمر منها سيارته البويك السوداء، أو تلك السيارة اليابانية القديمة التي يستخدمها لقضاء بعض مشاويره المشبوهة. وضعنا صفائح الحديد المسنن في أماكن قد يضطر الى المرور منها في حال ملاحقتنا له. رصدنا السيارات وحركة الحياة في الشوارع. نشرنا تسع دوريات محمولة في مواقع منتقاة من أحياء عمان، عدا دوريات الطرق الخارجية التي واظب أفرادها على تفتيش أي سيارة يتم الاشتباه بها، ما أدى الى اكتشاف كمية من أقراص المخدرات وثلاثة صناديق من علب الغراء ذي الفاعلية التخديرية العالية، في صندوق سيارة أجرة متجهة الى منطقة القويسمة شرق عمان، كما ضبطت دورياتنا ثلاث سيارات مسروقة كان أصحابها قد أبلغونا عنها منذ أسابيع،إضافة الى خمسة وعشرين فتى وفتاة، ممزقي الثياب مجرحي الأيدي، ومتلاصقين في صندوق «بكم ديانا» يتولى سائقه مهام توزيعهم على مفترقات طرق العاصمة بهدف التسول المنظم، كما لاحظ رجال إحدى الدوريات الخارجية، أن عدداً من الشاحنات الصغيرة العتيقة المقنطرة بصناديق مكشوفة أو مشدّرة، قد خرجت عن الشارع العام وانعطفت لتسير في طرق ترابية شقتها بعجلاتها تحاشياً للتوقف والمثول أمامهم. غير أن ذلك الانتشار الكبير للدوريات أدى إلى حدوث

اختناقات مرورية بلبلت المواطنين، فتذمروا متسائلين عما إذا كان ثمة ما يهدد استقرار البلاد. ولقد أثمر هذا التذمر الذي تناهى إلى مسامع السلطات العليا، حيث أصدرت تعليماتها العاجلة بضرورة تخفيف حمى البحث عن عزمي الوجيه ومن معه، وعدم الإطاحة باستقرار المواطنين الذين ضجوا. والحقيقة أنني استغربت كثافة الاهتمام بهذه المهمة، ذلك لأن من عادتنا الاكتفاء بعدد محدود من أفراد الشرطة إذا كان المطلوب شخصاً أو اثنين أو ثلاثة، أما أن نسيّر هذا العدد من الدوريات والأفراد، فهذا أمر غير مألوف بالنظر إلى طبيعة وحجم المهمة التي أحسست أنها استثنائية، أو أن سراً ما يكمن وراءها، خصوصاً أنني علمت بأن عقبات كثيرة اعترضت اتخاذ قرار الملاحقة، كما أن استصدار المذكرات اللازمة للقبض عليه وعلى من معه قد جوبهت بعراقيل أدت إلى تأجيل البدء بالمهمة.

فعلنا كل ما هو ممكن من أجل اصطياده ومن معه، ومع ذلك، تمكنوا من الإفلات من كمائننا كلها. ولقد شعرت بأن عزمي الوجيه والمطلوبين الثلاثة الذين معه لم يكونوا وحيدين، وأن إفلاتهم منا لم يكن بسبب تقصيرنا في أداء مهمتنا، كما لم يكن عزمي الوجيه مجرد واحد من المطلوبين المبتدئين، ذلك لأنه لم يوقف سيارته في الطريق الحرجي الذي يصل بين مدينتي عمان وجرش، على الرغم من وابل النيران الليلية التي أطلقناها باتجاهه لإرغامه على التوقف. لم نصوب نيراننا نحو سيارته مباشرة، لأن ما كان مطلوباً منا هو القبض عليه لا قتله، لكن الغريب أن سيارته اختفت فجأة من أمامنا مثلما يحدث في أفلام السينما، ولم نعثر عليها الا صبيحة اليوم التالي، فيما تمكن هو ومن معه من الاختفاء رغم محاصرتنا كل المنطقة.

ومما ضاعف الضغوطات التي مورست عليّ من رؤسائي وسواهم، أنه تمكن من الإحتيال على يقظتنا، وخداع أبصارنا، حين

غادر مسجد أبي درويش في الأشرفية، ومر من أمامنا مثل شبح، وعلمنا فيما بعد، أنه غادر المسجد في زي شيخ جليل يعتمر حطة بيضاء، ويرخي لحية بيضاء زائفة، أكسبته هيبة رحمانية أثناء خروجه الواثق المتأني بسبحته الطويلة، بُعيد انتهاء صلاة المغرب التي طالت، فطال معها انتظارنا الممض في الخارج، احتراماً لبيت الله عز وجل، ولحرمة الصلاة والمصلين، وهو ما وافقني عليه رئيسي المباشر العميد فلاح باشا، إذ لو اقتحمنا المسجد للقبض عليه، لوجدنا أنفسنا في مواجهة مع المصلين، ولوجدت أحزاب المعارضة والجمعيات الدينية وسائر السياسيين، سبباً وجيهاً وقوياً لاتهامنا - نحن والحكومة التي لم يمض على تشكيلها سوى شهر وبضعة أيام - بخرق حرمة المساجد أثناء خشوع المصلين بين يدي ربهم، ولتناقلت الفضائيات ووكالات الأنباء هذا الخبر حسب أهوائها وأهواء القائمين عليها ومموليها، لذا آثرنا الانتظار كي نفوت الفرصة على المتربصين ببلدنا. ولكن، لم يخطر لنا أن ذلك الانتظار القهري سيسمح له بالإفلات منا.

لقد أحسست خلال مطاردتنا له، أن لديه من المجسات وعمليات الإسناد الخفية التي لم نتمكن من تشخيصها أو مشاهدتها، وهي التي تكفلت بحمايته منا مراراً، بما في ذلك ليلة حصارنا منزله في الرابية، واقتحامنا له اثناء وجوده فيه. لقد رأيته بأم عيني من نافذة المطبخ، حاملاً صحناً وكوباً داكناً قبيل مداهمتنا منزله بثوان معدودات، غير أننا لم نعثر عليه، على الرغم مما يتمتع به رجالي الثمانية من حس أمني عال، ودربة مشهود لها وبها في مجالات الاقتحام والقبض على الفارين من وجه العدالة.

لم نجده أبداً، مع أن ستة أخرين من رجالي حاصروا منزلهُ لحظة اقتحامنا له، كي يحولوا دون خروج أي كائن منه. فتشنا كل زاوية داخل صالات وغرف ومرافق ذلك المنزل الواسع، وانتشرنا تحت أشجار

الصفصاف في عتمة حديقته الملأى بنباتات الـ«جولد ستار» الملفوفة المقصوصة التي كادت تخدعنا، ذلك لأن بعضها بدا لنا في عتمة الليل أشبه بالأشباح الجامدة ذات الرؤوس المنحنية الخادعة للعيون.

بحثنا عنه في كل شبر من تلك الحديقة، حتى أن ثلاثة من رجالي عمدوا إلى تقليب الحجارة المثقبة بين تجمعات الأزهار، كانوا يقلبونها بعصبية علهم يعثرون على أي شيء.. ومع ذلك لم نجده! كما لم نجد ما نقوله للمسؤولين حين ذهلوا أكثر من رجالي الذين بدت عليهم ملامح الإحباط والسخط.

أكثر من هذا، أن مطاردتنا لسيارته في واحدة من ليالي أيلول، باءت بالفشل الذريع الذي لا علاقة لنا به، أؤكد أننا لسنا مسؤولين عن ذلك الفشل الذي شل قدراتنا على التفكير والتدبير، إذ على الرغم من إيماني العميق بالله وبرسوله الكريم وبكل أنبيائه، الا أنني مضطر الى القول بأن قوة خفية تدخلت في اللحظة الحرجة كي تنقذه منا في منطقة الجبيهة التي شهدت ملاحقتنا المستميتة له! ذلك لأن موجة عارمة من الضباب الكثيف الملامس لسطح الأرض، زحفت نحونا كما لو أن يداً خرافية هائلة دفعتها باتجاه سياراتنا؛ التي لم يبق ظاهراً منها سوى لواحاتها الدوارة ذات الأضواء الحمراء والزرقاء، تلك التي ظلت تجاهد في لجة ضباب كثيف أطبق على المكان بلا أدنى مبرر مناخي او طقسي، فأنا واحد من سكان عمان الذين يعرفون أن موجات الضباب والأمطار لا تجتاحها إلا في تشرين أو كانون الأول أو الثاني وما بعدهما من أشهر الشتاء وبدايات الربيع، وعلى الرغم من شرحي المطول لرؤسائي عن تلك المفاجأة، إلا أنهم استهتروا بأقوالي، و قاموا بالكشف على موقع المطاردة، فوجدوه خالياً من الضباب تماماً، كما بدت الطريق - لحظة تفقدهم الموقع - واضحة تحت أضواء النيون المتفرعة من الأعمدة، أما السماء فقد زخرت بنجوم بدت واضحة

متيقظة كما لو أنها في شهر أيار، ولولا شهادة رجالي وسائقي السيارات الأربع التي شاركت في تلك الواقعة الغريبة، لتمت معاقبتي بتهم التقصير أو التقاعس أو حتى التواطؤ!

غير أن ما بهرني حقاً، أنني رأيت بعد أسبوع من تلك الحادثة التي كادت تزلزل يقيني بسلامة عيني وعقلي، صورة عزمي الوجيه في واحدة من صحفنا المحلية، وهو يصافح مدير إحدى الجمعيات الخيرية الكبرى، ويسلمه شيكاً بمبلغ ثلاثين ألف دينار، تبرعاً للعائلات المستورة والمعوزين الذين ترعاهم تلك الجمعية! كان مبتسماً في الصورة ومغتبطاً، كما لو أنه حائز على جائزة أول مخلوق يدخل الجنة. رأيت صورته أيضاً في صحيفة أخرى وصفته بالمحسن الكبير، والشخصية الاجتماعية والاقتصادية المرموقة. حملت الصحيفتين تحت إبطي وفتحتهما أمام رئيسي المباشر، العميد فلاح باشا، كي يرى بعينيه كيف أن ذلك الرجل الذي أرهقنا وأزهق يقيننا بقدراتنا، يتحرك بيسر وثقة في البلد من دون أن يوقفه أحد، لكنه رد بابتسامة غير مفهومة وغير مشفوعة بأي تعليق، اللهم إلا تكرار الأوامر بضرورة العمل الجاد المسؤول، للقبض على ذلك الرجل الذي أثار في نفسي تساؤلات كثيرة لم أجد لها إجابات، وإن كان العميد فلاح باشا قد قال لي أثناء خروجي من مكتبه «التبرع قديم والخبر جديد.»

لم نُبقِ وسيلة إلا اتبعناها من أجل القبض عليه ومن معه، لاحقناهم في أكثر من مكان وزمان، لكنهم أفلتوا منا.

ذهبنا إلى بيت أبيه في الحي السفلي بجبل الجوفة، على الرغم من معرفتي بأنه هجره منذ سنوات طويلة، وقد فوجئت بأن ذلك الحي أكثر بؤساً مما تحتمل الحياة، واستغربت أن يكون ذلك المكان تابعاً لمدينتنا الرخية التي أعرفها، وأصابني حزن مفاجيء على من رأيتهم من بائسي أزقته، ففي نهاية الأمر، أنا لست عقيداً وحسب، إنما إنسان قبل كل شيء، وهؤلاء مواطنون.

لقد شعرت عند وصولي مدخل الحي، أن ولوج أزقته لا يخلو من مغامرة، حتى ان عددا ممن التقيتهم من السكان أخبروني أن الحي خطر، ومزروع بشبان ورجال لا يعرفون الله، وبآخرين لا يعرفون إلا الله.

حين وصلنا بيت رباح الوجيه، بعد ساعة من صلاة العشاء، طرقنا بوابته فلم نسمع استجابة من داخل البيت، كان الزقاق مظلماً، طرقناها مرة أخرى وأخرى، فسمعنا نحنحة خشنة من النوع الذي يصدر عن المسنين بهدف الذود عن هيباتهم. فتحت البوابة، فرأيت عينين تلمعان في عتمة الدار، حتى إنني خلت الدار كلها كائناً أسود بعينين شبه آدميتين، وحين سلطت شعاع مصباحي اليدوي نحوه، رأيته متكئا بكلتا يديه على عكازة معقوفة، شعره مغبر بنوع عجيب من الشيب الذي يمتد إلى حاجبيه وشاربيه ولحيته الكثة، كأنه خارج من قبر، أما قدمه فملفوفة بقالب من الجبصين.

أدار وجهه يساراً تجنباً لضوء المصباح الذي بهره، وسألني بصوت خشن «أمر؟» فقلت: أشعل الضوء كي نراك ونتحدث.

أجاب بسرعة «قطعوا عني الكهرباء قبل أسبوع». وأضاف بعد نوبة من السعال المتصل بأن موظفي شركة الماء أيضاً، اجتثوا عدّادهم من جذوره وأخذوه بعدما فصلوا الماء عن بيته، ثم أكمل «من أرسلكم؟ سالم بيك؟ فلاح باشا؟ خالد بيك؟» واستمر في ذكر أسماء أصحاب الرتب العالية الذين ادعى معرفته بهم أيام شبابهم وشبابه الذي قضى جزءاً منه في كتابة الاستدعاءات أمام مديرية شرطة العاصمة حسب قوله.

كان راغباً في الاسترسال بأحاديثه المسنة، إلا انني أدركت خدعة الشيخوخة ومتع أحاديثها التي يجترها المسنون، فبادرته بالسؤال عن

ابنه عزمي، وما إذا زاره خلال الفترة الأخيرة، فأجاب بنبرة محايدة «مات، حسب علمي أنه مات.» وحين أكدت له أن ابنه ما زال حياً، اكتفى بالقول أنه حاول الاستدانة من أجل نشر إعلان في الجريدة للتبرؤ منه.

استغربتُ أن يكون ذلك البيت الفقير المتواضع هو بيت والد عزمي الوجيه، الذي قالوا لي إن رصيده البنكي وممتلكاته المعروفة التي تم حصرها تقدر بالملايين.

فتشنا بيته وهو يتمتم بكلمات غير مفهومة، رأينا بابا مقفلاً بجنزير وقفل صدىء، سألته عنه فقال «هذه غرفته أيام كان هنا.» طلبت مفتاحها فتنهد «المفتاح مع حُرمة اسمها سندس، طلقتها.» سألته عنها فقال علمها عند ربها وأمها.

خلعنا الباب بعتلتين حديديتين، كان بيّناً أنه لم يفتح منذ سنوات، بدليل الصدأ الذي غلف قفله، والتراب الذي تساقط من حول إطاره الخشبي حال خلعنا له، وحين دخلنا الغرفة بمصابيحنا اليدوية، اشتممت رائحة عطر عتيق فور فتحنا لها، ولقد لازمت تلك الرائحة أنوفنا أثناء تفتيشنا تلك الغرفة التي لم نجد فيها سوى فرشة مخططة، اسودّت حوافها واعتلتها بقع داكنة جراء دلف السقف الذي يذكّر بتعاقب الفصول، ثم لحاف مطوي بعناية تحت طبقة من الطين المتشقق، ووسادة مبقعة ملوية، وطاولة خشبية منخورة تحمل عدداً من الكتب المتضخمة المنفوشة بسبب دلف السقف، بينها الأجزاء الأربعة للسيرة النبوية الشريفة، وستة كتب ممنوعة لمؤلفين ملحدين، وثلاثة كتب عن السحر وفنونه، وكتاب مترجم بعنوان «الحروب العقلية»، وآخر بعنوان «استنفارالعقل في الأزمات»، إضافة إلى عدد كبير من الكتب الدينية والفلسفية والاقتصادية والتاريخية وسواها. لم نعثر على أسلحة أو ممنوعات باستثناء ستة كتب أضيفت فيما بعد، إلى ملف قضيته التي ملأت خمسة من أدراج الخزائن الحديدية في غرفة العمليات، عدا ما

تم تخزينه على أجهزة الحاسوب من معلومات وتقارير. غير أن أحد رجالي همس في أذني قبل أن نخرج «لو تسأله سيدي عن بيت المرأة التي اسمها سندس، لعلها تفيدنا في العثور عليه.»

ذهبنا إلى بيت أم المدعوة سندس، لم نجد سوى امرأة مكتئبة متثاقلة اسمها فاطمة، قالت لنا، بعد الإلحاح والتهديد «سندس دشرت، لم تعد تعرفني بسبب انشغالها بجمع النقود، ولا أريد رؤيتها إلا في كفن، هذا إذا تمكن الكفن من لملمة وستر بدن داشرة مثلها.» وبعد ثوان من الصمت أضافت «حتى إخوتها الثلاثة الذين تغربوا، تخلوا عني ونسوا تربيتي لهم بسبب جحود نسائهم بنات الحرام، اللواتي ركبنهم.» وقبل أن نغادر بيتها سألتنا عما إذا كان بوسعنا إعطاؤها ثمن جالون من الكاز ودواء للحكاك الذي يؤرقها منذ مدة طويلة.

لقد أخلصت في مهمتي وبذلت كل ما بوسعي من جهود، ومع ذلك، تم تجميدي ونقلي إلى مستودعات التموين والتخزين، ثم إحالتي على التقاعد. وصار كل همي محصوراً في متابعة أخبار من كلفوا بملاحقة عزمي الوجيه، والقبض عليه من بعدي.

***

جبران

اضطررت إلى الاستقالة من منصبي بسبب عزمي، فقد آلمني بفعلته التي انتشرت في أوساط السياسيين والمسؤولين وكواليس الصحف كالنار في الهشيم. فحين تبنت الجهات المختصة تلك الشكوك والظنون حول ما يقوم به ومن معه من عمليات تهريب واستيلاء على أموال وتبرعات تسلمها من عدد من المحسنين، بدأت الشرطة بملاحقته، فالتجأ ومعه ثلاثة من جماعته إلى حديقة بيتي في غيابي، وفي وقت كانت زوجتي خلاله تحاضر في ورشة عمل، حول دور المرأة في التنمية الاجتماعية، لكنهم لم يتمكنوا منهم على الرغم من أنهم أطلقوا نيرانهم التي كسرت عدداً من زجاج نوافذ بيتي. وقد شاعت بعدها تقولات كثيرة ابتدأت بتستري عليه وتواطؤي معه، وانتهت بمشاركتي له فيما يقوم به!

ومع أن الجهات الأمنية قدمت لي اعتذارها عن اضطرارها لإطلاق الرصاص على منزلي خطأ، وعلى الرغم من التطمينات والتأكيدات التي وردت على لسان دولة الرئيس حول براءتي من الشائعات التي أثيرت حولي، إلا أنني لم أسحب استقالتي.

أعرف بأن البلاد واسعة، وكان بإمكان عزمي الاختباء في أماكن أخرى كثيرة، لكنه اختار منزلي كي يؤذيني، ففي تلك الأيام أحسسته معني بتدمير الكثيرين ممن هم حوله قبل أن يلحقه الدمار، حتى أنه لم يتمكن من زيارتي لبحث مسألة قلادة أمه. ولقد علمت أن من أكد وأثبت الشكوك حول ما يفعله عزمي هو واحد من أتباع الشيخ

الجنزير الذي كان ينفث لهيب نهاياته! وهو الذي أبرز دفاتر إيصالات المبالغ التي تسلمها عزمي من المتبرعين وسلمها إلى الجهات القضائية، بالتعاون مع أعضاء لجنة المركز منذ وقت طويل. علمت أيضاً أن واحداً من أتباع الجنزير، اسمه بكر الطايل، قد تعقب عزمي وأبلغ رجال الشرطة بوجوده ومن معه في بيتي، ليصطاد الجنزير بذلك عصفورين بحجر واحد: عزمي الذي نافسه ولم يحقق له رغبته المزمنة في الزواج من سندس ابنة عدلي الطيب، ثم أنا الذي خرجت على طوعه. ربما لم ينس حقده العقائدي القديم عليّ، على الرغم من كل ما بيننا، مع أنه لم يعد متمسكاً بالعقائد إلا إذا وجد فيها مصالحه.

موقف زوجتي رابعة كان على خلاف ما توقعت، فبدلاً من أن تُسمعني عبارات التأنيب بسبب ابن شقيقتي، وقفت إلى جانبي وأشعرتني بأن ترك الوزارة خير من البقاء فيها، وقالت «على الرغم من البرستيج الذي يحيط بالوزراء، إلا أنهم يهملون بيوتهم وزوجاتهم، ويضحون بهنائهم وراحتهم بلا حمد ولا شكور.» ثم عمدَت إلى إلغاء ارتباطاتها والبقاء معي في البيت بعد أن أحست بضجري خلال الأيام الأولى التي تلت استقالتي، ونقلت لي معلومة حصلتْ عليها من صديقتها أم رامي «عندما يغيرون الحكومة الحالية، قد يختارونك لتكون في الحكومة التالية.» ضحكتُ بمرارة:

يختارونني بعد أن انتهيت؟

فقالت «أنت لم تنته، إذا لم يعينوك في الحكومة القادمة ففي التي تليها أو غيرها.» ثم رددت تلك المقولة الشائعة في بلدنا «الوزراء والشخصيات العامة في بلادنا لا تنتهي إلا حين تُدفن تحت التراب.»

لكنها قالت لي بنبرة تشجيعية «خيراً فعلت، كان يجب أن تكشف

أمر عزمي منذ زمن!» التقت عيوننا. لكنني لم أكن أنظر إليها. قلت لها: الجنزير هو الذي أبلغ... فقاطعتني «الجنزير أيضاً فعل خيراً.»

في الصبيحة التالية باغتتني رابعة وأنا أسقي أشجار الورد في الحديقة، فقد وقفت إلى جانبي قائلة «ألا تريد رؤية ما برقبتي؟» نظرت إليها فرأيت في رقبتها قلادة شقيقتي جليلة، العثمانية! ألقيت خرطوم الماء على الأرض وعيناي مفتوحتان دهشة حتى آخرهما، قلت لها: من أين حصلتِ على هذه القلادة؟

أجابت بنبرة بدت صادقة «من المرحومة شقيقتك.» سألتها:

كيف؟ فهي لم تكن تحبك.

فأدارت ظهرها قائلة «تفاهُم نسوي قديم، بيني وبينها» لكنها لم تفسر لي ما أسمته تفاهماً، على الرغم من كل الحيل التي اتبعتها لانتزاع التفاصيل. كل ما عرفته أن تلك القلادة تساوي هذه الأيام مبلغاً طائلاً، وتصلح للعرض في المتاحف العالمية.

حين ألححتُ عليها بضرورة إعلامي بكيفية حصولها على تلك القلادة نظرت في وجهي بخبث. أستطيع القول إن خبثها طفا على سطح وجهها وعينيها معلنا عن نفسه، قالت «برغم أن هذه القلادة تساوي مبلغاً كبيراً، فإن معرفتك بكيفية حصولي عليها من جليلة، ستجعلك تتمنى لو دفعت أضعاف ثمنها مقابل عدم العلم بذلك.»

ما فجعني أن رابعة حصلت على تلك القلادة منذ أيام الجوع والضنك في جبل الجوفة، لماذا لم تخبرني عنها حينئذ؟ لماذا أخفت جليلة هذا الأمر عني؟ وكيف يمكنني فهم النساء بعد كل هذا؟

لم يعد جهاز هاتفي النقال يرن إلا فيما ندر، اختفت صوري من على صفحات الجرائد، انقطعت الدعوات التي كانت تزدحم في

مفكـرة سـكرتيرتي ومديـر مكتبـي، وتوقفت زيـارات الأصدقاء والرفاق القدامى إلى منزلي.

ازداد إحساسـي بعزلتي حين اسـتأنفت رابعة نشـاطها الاجتماعي والثقافي. فوجدت في القط، سـنزي، ما يمكن الإفادة منه. فيما مضى كنـت لا أطيـق رؤيتـه، وكان هـو علـى علـم بذلك، نظراتـه لي وابتعاده عني خير دليل على أنه كان يتجنبني. فالقطط والكلاب تستطيع التقاط عمليـات التراسـل والتـرددات الصـادرة عن الإنسـان، هـذا ما قرأته في أحـد الكتـب، ليـس هـذا وحسـب، إنما هي تتعامـل معه بناء عليها، لذا لم أسـتغرب نفور سـنزي مني حين كنت لا أطيقه، وإقباله عليّ حين توصلتُ إلى إمكانية التعايش معه.

قربته مني وصرت أداعبه. كان مسـالماً. وتأكدت أن العلاقة معه ممكنة وآمنة.

لـم أغـادر منزلـي منـذ اسـتقالتي، لـم أذهب إلى مزرعـة الجنزير. وعلمـت أنـه أوقـف اللقـاءات التي كانت تعقد فيها، ثم انقطعت أخباره عني. لم يعد ثمة ما يبرر رؤيتي له أو لقائي به بعد كل ما فعل.

دهمني عباب الفراغ، كاد يفلق صدري، فلم أجد ما أفعل سوى تدويـن المذكـرات التـي لـم أقتنـع فيمـا مضى بلزومهـا أو بقدرتي على كتابتها.

ما كتبته هنا ليس سوى جزء يسير من مذكراتي التي سأبحث لها عن ناشر حال انتهائي من كتابتها.

عمان 25 / 12 / 2004

سندس

تكشّفَ لي كل شيء. عدت إلى بيت أمي في جبل الجوفة، استقبلتني بحنان، لم تسألني عن أسباب جفائي لها وابتعادي عنها، كانت أكبر بكثير مما تخيلت، عيناها غائرتان محاطتان ببقعتين داكنتين، تحك خاصرتيها بين لحظة وأخرى، وعروق يديها بارزة.

إحتضنتني كما لو أنها لم تتوقع رجوعي أبداً، أجلستني وهي تنظر إلى حقائبي، قالت «انتهت رحلتك؟»

رميت رأسي في حضنها باكية. مسدَت شعري. قالت كلمات لم أتوقعها. صبّت غضبها ولعناتها على إخوتي الثلاثة وزوجاتهم. قالت «عبد اللطيف وعارف حضرا مع زوجتيهما وأبنائهما إلى هنا قبل أيام، أحضروا لي ثوبين ومنديلين، وفستانين لك، شربوا القهوة، سألوني عنك فقلت لا أعرف أين ذهبت، وعندما قلت إن رجال الشرطة حضروا إلى هنا وسألوا عنك، تبادلوا النظرات، ثم استأذنوا وخرجوا كلهم إلى الشقق المفروشة التي استأجروها في عمان الغربية لقضاء عطلتهم، كأنهم لم يعيشوا في هذا البيت سنوات طويلة، كأنني لم ألدهم ولم أربيهم.»

ثم بكت فبكيت معها.

بعد أن هدأت، أخبرتني أن رجال الشرطة سألوا عني وعن عزمي. قلت لها:

توقعتُ هذا.

قالت «جاءت امرأة في حوالي الثلاثين من عمرها إلى بيت أبي عزمي...»

فقاطعتُها: توقعت هذا.

بدأت صورة عزمي تتفتت في ذاكرتي، لم تعد بذلك الوضوح الذي أعرفه. صارت ذاكرتي تتقيأ الكثير من الصور والأحداث والكلمات والأوهام التي احتلتها سنوات طويلة. لم تعد لدي رغبة في رؤية الناس، وأحسست بجفافِ روحي التي لم تعد تحنّ إلى شيء.

قالت أمي «هل تملكين نقوداً؟»

أجبتها:

أملك.

فقالت «بعد أن ينتهي موسم الحج، سنذهب لتأدية العُمرة، أنا وأنت. هناك يغفر الله كل الذنوب.»

فأجبتها:

لن أذهب، فأنا لم أرتكب سوى ذنب واحد، يوم ذهبت إلى المقبرة وأحرقت جثة صبري.

***

رباح الوجيه

في الأيام الأخيرة شعرت أن الدنيا مقلوبه، وعرفت أشياء غريبة، وصار طعم حلقي مثل العلقم.

لم يفكوا الجبصين عن رجلي، قالوا إن كسر عظام الكبار يختلف عن الصغار ويحتاج وقتا أطول. بقيت أمشي على العصا وأتبرم من الدنيا وأهلها، وأفكر في عزمي الذي لم أعرف حقيقته بعد ما قرأت تقرير طبيب التناسلية في شقة سندس الكاسرة.

فجأة زارني عزمي ومعه ثلاثة رجال عرفت أنهم أطباء. كانوا يحملون ثلاثة صناديق وتتدلى من رقابهم سماعات.

حضنني عزمي وقال لمّا رأى الجبصين على رجلي «ألف سلامة عليك يا أبي.»

قال يا أبي! فخمّنت أنه لم يعرف بموضوع التقرير، همست في أذنه:

الشرطه قلبوا الدار وفتشوها وسألوني عنك.

أجابني «لا تقلق.» قلت: من الممكن أن يرجعوا في أي لحظة.

قال «قلت لك لا تقلق.» وناولني رزمتين من الدنانير، كل رزمة فيها ألفا دينار. قلت له: هذا كثير يا حبيبي.

قال «إذا كنت محتاجاً لمبلغ أكبر فقل لي.» الله يرضى عليه.

الأطباء أدخلوني إلى غرفتي بلطف واحترام، مدّدوني على السرير، وصاروا يسألونني أسئلة غريبة.

سألوني إذا أصابتني سخونة أو حمى قوية لما كنت صغيراً، قلت لهم:

أي نعم، أصابتني حمى وسخونة.

سألوني إذا أصابني النكاف فلم أفهم قصدهم، فقال أحدهم «النكاف هو أبو ادغيم.» قلت:

أي نعم، أصابني وأنا عمري تسع سنوات، ووضعوا على خدي حبراً من قلم الكوبياء.

سألوني عن سن بلوغي وعن العمليات الجراحية التي أجراها لي الأطباء خصوصاً في الخصيتين.

وقتها فهمت سبب زيارة عزمي وقلت لحالي: أكيد انه عرف بموضوع التقرير ونادى الأطباء حتى يتأكدوا. لكن، بقيت خائفاً من أن تعرف الشرطه انه عندي في الدار ويأخذوه، أو يفتشوا الدار مرة ثانيه ويعرفوا انه أعطاني اربعة آلاف دينار ويأخذوها.

الأطباء صاروا يرطنون مع بعضهم ولم أفهم شيئا من رطنهم، بعدها جردوني من دشداشتي وسروالي وفحصوا كل بدني، وجهي وعيني وراسي ورقبتي وصدري وبطني وكل شي، حتى إني خجلت لما صاروا يلعبوا بذكري وخصيتي، خصوصاً عندما غسلوها بصابون لونه مثل البلح، غسلوها وفركوها ثلاث مرات، كأنهم يحممون ميتاً. بعدها أوجعوني وصرت أصيح، لأنهم غرزوا إبره في خصيتي وسحبوا منها شيئاً لم أعرفه، ولما سألتهم قالوا هذه خزعة. أجروا لي فحوصات كثيرة وغريبة وخلّيها مستورة، لأن الكلام عنها معيب.

بعدها أعادوا أغراضهم إلى صناديقهم وطلعوا. ودعني عزمي ولم أتمسك به، لأن الشرطه اندلت على داري، ومن المحتمل أن يغيروا عليها في أي لحظة.

راحت الأيام واسودّت الدنيا في عيني، ولولا فاطمة، أم سندس،

طلعت أصيلة وصارت تطبخ وتحسب حسابي وقت الغداء والعشاء، لمتّ من الجوع. فاطمة تحسنت أحوالها بعد ما رجعت سندس إليها، مع أن سندس زارتني وطيّبت خاطري، وصارت تتطلع إلى الدار كأنها مشتاقة لها.

بعد حوالي شهر، زارتني حُرمة حلوة عمرها حوالي ثلاثون سنة ومعها ولد وبنت.

قلت لها: أمر؟

قالت «أتسمح لنا بالدخول؟»

قلت: تفضلي.

دخلوا وقعدنا تحت الدالية. صارت تتطلع في الدار كأنها زارتها من قبل. كانت ثيابها وثياب ابنها وابنتها مرتبة وراقية.

ولما قالت إن عزمي تزوجها قبل خمس سنين وخلفت منه الولد والبنت، كدت أفقد ما تبقى من عقلي. فركت عيني وقلت لها:

عزمي تزوجك؟

أجابتني «نعم، أنا فاتن عبد الحكيم الريشه، زوجة إبنك عزمي.»

قلت لها:

قولي وغيّري، عزمي لم يتزوج.

فتطلعتْ لإبنها وسألتْه «ما اسمك؟.» فرد «اسمي رباح عزمي رباح الوجيه.» سألَت البنت فقالت «جليلة عزمي رباح الوجيه.»

سألتها:

كيف تزوجك ولم يخبرني؟

قالت «لم يخبر أحدا.»

قلت:

مستحيل أن يظل السر مخبأ لمدة خمس سنين، خصوصاً الزواج.

قالت «صحيح، لكننا نتحدث عن عزمي.»

سألتها:

عندك علم بتهمته التي جعلت الشرطة تبحث عنه؟

أجابت «تهمته أنه يساعد الفقراء، وناجح في أعماله، ويوجد شخص اسمه الشيخ الجنزير يريد القضاء عليه، والكل تخلى عنه بسبب الجنزير.»

قلت:

مساعدة الفقراء والنجاح والا...

فقاطعتني «بدون والا، هذا ما أعرفه.»

قلت:

والشيخ الجنزير، ماذا يريد من عزمي؟

أجابت «لا أعرف.»

سألتها:

والمطلوب مني؟

ردّت «كل ما أريده هو أن يعرف رباح وجليلة جدهما بعد أن غاب والدهما.»

يا الله يا الله ما أصعب موقفي لحظتها. الولد اسمه رباح والبنت جليلة؟

سألتها:

من سماهما؟

أجابت «عزمي.»

قلت لحالي: يظهر انها لم تعرف بالطبخه. لكن أعجبتني كلمة جدهم. تطلعت في وجه الولد، فلقيته مثل عزمي وهو صغير بالتمام.

سألته:

اسمك رباح يا جدي؟

ضحك وقال " أنا رباح." لكنه كان يتطلع إليّ وكأنه يستكشف آثاراً أو مخلوقاً لم يسبق له أن رأى مثله.

البنت، جليلة، عمرها حوالي ثلاث سنين، مثل أم عزمي الله يرحمها، حتى إن قماشة وجهها من نفس القماشة. سبحان الله.

لكن لا الولد يشبهني ولا البنت.

سألت فاتن عن محل سكنها، فقالت " في بيت اشتراه عزمي خارج عمان."

حاولت معرفة المنطقه فلم تخبرني.

تذكرت موضوع التقرير والفحص، سألتها:

عزمي طلب منك أن تزوريني؟

فتطلّعت في وجهي باستغراب وقالت "ألم تعرف ما الذي حدث معه؟ "

قلت:

لا والله.

فقالت "جاء إلى بيتنا رجل اسمه بكر الطايل، أطلق الرصاص عليه من النافذة، فأصابه في ذراعه وهرب".

ثم نطت الدمعة من عينها، فتحرك دمي:

أكملي، ما لك سكتِّ؟ لا تقولي لي إنه مات!؟

فأجابت " لم يمت، لكنه لم يعد بعدها."

كيف؟

قلت بصوت عال. فجاوبت بصوت مكسور " ودّعنا وقال انه لن يعود إلى هنا، ولم يعد يثق بأحد في هذه الدنيا، حتى أنا."

***

الشيخ عبد الحميد الجنزير

بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، سيدنا محمد بن عبد الله، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أنا الآن في مكة المكرمة، حيث الأرض التي كرّمها الله وأنزل فيها رسالته على نبينا الكريم صلوات الله وسلامه عليه.

منذ أن دخلت هذه الأرض المباركة وأنا أشعر بأنني سأقابل وجه ربي عما قريب، أنبأني بذلك بدني الذي هزل، وروحي التي صارت تتقافز مبتعدة عني عائدة إلي، كأنها تقوم بتحضيري للقاء ربي.

حمدت الله وشكرته على نعمائه ورحمته التي غمرني بها، حين أمهلني وأبقاني حياً لأؤدي مناسك الحج للمرة الأخيرة، وأكَفّر عما اقترفتُه من ذنوب في حياتي التي طالت، وأثوب إلى الله توبة نصوحاً، وأمحو خطاياي متمسكاً بكتاب الله وسنة رسوله الكريم، مبتعداً متنائياً عما يدنس فطرتي، ويزيغ بصري، ويخطف اليقين من قلبي وصدري.

لقد رميت الجمرات السبع بما أوتيت من بقايا قوتي، وتراءى لي إبليس مهزوماً مكلوماً ذليلاً؛ وغير قادر على أن يستغيث بالله أو بأي من عباده الصالحين الذين ألهبوه بجمراتهم.

أقمت وحيداً في خيمة استأجرتها مبتعداً عن فنادق الإسمنت وشرور الخلق.

في الليل، أخرجت من جوفي كل ما ترسب فيها وشابها من أدران، نضحتُ قتام أيامي وأعوامي التي قصرتُ فيها تجاه خالقي، وانسقتُ وراء بريق هذه الدنيا الزائلة. تناوبتْ الأصوات والصور في ذهني كأنما هي صديد يخرج من روحي وإهابي، خرجتْ سندس من نفسي إلى غير رجعة، خرجت هاربة من لظى إيماني وإرادتي التي استرجعتُها بفضل الله تعالى وعونه، لم يعد لها وجود في بدني وروحي، لا أدري أين استقر مقامها، لكنها ذوت وتباعدت وتصاغرت، مثل أفعى غادرت قصراً من دون أن تفرّخ فيه. عزمي نال جزاءه والعلم عند الله، لقد قمت بواجبي تجاه ربي وديني الحنيف، لكن عزمي ظل يجوس في أماكن شتى من ذاكرتي، لقد تصدق على كثيرين من الفقراء رغم كل شيء، ثم إن حنينا روحيا ينتابني كلما تذكرته.

توالدت الوجوه وتظاهرت في ذاكرتي التي أرادت تصفية حساباتها مع الجميع: وجوه محروقة في الدنيا، وأخرى شائهة أو مشوهة، وأجساد تذوب كالشمع حال مرورها في خاطري.

تذكرت جولات الخير في بلاد الفرنجة، مراكز تحفيظ القرآن، دسائس الساسة والمسؤولين والمتحزبين ورجال الأعمال المتهافتين المتكالبين على هذه الدنيا، أبدان النساء الباذخات والفقيرات في غرفة المداواة، بكر الطايل، الذي فشل في قتل عزمي في بيته، لكنه نجح قبل أعوام في قتل إحدى الغانيات المستوردات، ثم فشل في مهمته الأخيرة. يكفيه ما فعله، لم يعد له لزوم، لقد تسلمه رجال الشرطة من بيته قبل أن آتي إلى هنا، على الرغم من أنه أرشدهم إلى مكان وجود عزمي في بيت خاله. كان من الممكن أن يرتكب إحدى سفاهاته معي، فقد ازداد احتقانا وتجرأت يده على قتل النفس التي حرم الله.

تذكرتُ جليلة بنت عبد الباقي أبو بصير التي اختصرت المسافات

ولقيت وجه ربها، رحمك الله يا جليلة وغفر لك ذنوبك.

جبران الفاسق الكافر الذي تنكر لي بعد أن صار وزيراً، انتهى ولن تقوم له قائمة، لقد تصرفت معه بما يرضي الله سبحانه وتعالى.

تذكرت التلاميذ ورواد مزرعتي الذين هجروها قبل حضوري إلى هنا، بعد أن أوقفت دعواتي لهم. ثم صبري أبو حصة الذي أطال النظر في وجهي كأنما يعاتبني.

أحسست برياح الجنة تهب عليّ من شقوق الخيمة، تنسمت شذاها وتشممت طيبها ومسكها، ورأيت نفسي مضطجعاً ومن حولي الحوريات، قرب نهر من الماء الزلال، وأرض خضراء يانعة لم تطأها قدم خبيثة من قبل.

لقد جاءني نذير الموت في حلمي وأنا في خيمتي، زارني ملاك بثوب أبيض، ابتسم لي فطهر بابتسامته روحي من كل ما علق بها، عادت بيضاء ناصعة من غير سوء، مسح بكفه على وجهي فرفرفت روحي وخفق قلبي: لعل الله تعالى قد اختارني لأموت قريباً من قبر الحبيب محمد.

تحركت شوادر خيمتي وهبت ريح قبيل الفجر، قلت: لعلها هالة الملاك، لعلها رياح الجنة تهب من جديد.

فُتح سحّاب الخيمة، رأيت يده.. لكنها يد آدمية، دخل الخيمة بثياب بيضاء.. نظرت في وجهه مستسلماً لنهايتي التي انتظرتها.. فراعني أن من دخل الخيمة هو عزمي! ما الذي أتى به إلى هنا؟ كيف غادرَ البلاد وهو مجروح ومطلوب؟ كيف اهتدى إلى خيمتي؟

أصابني الهلع، فعزمي جسور، أعرفه أكثر من غيري. قعدت على فرشتي. كنت أنتظر الموت، لكن ليس على يده.

ألم يقتلوك؟ قلت. فأجاب «أنت من قتلني.»

ولكنك حي ترزق!

أجاب «بدني هو الحي.»

لم يسبق أن تخلخلت عزيمتي وتقلصت روحي من قبل، لكنني هذه المرة وجدتني بين يدي عزمي، عارياً إلا من ثيابي.

قلت: كنت أنتظر موتي، أقتلني وخلصني.

فأجاب «أتنشد الشهادة على يديّ؟ تريدني أن أرسلك إلى الجنة بيدي؟»

قلت: ما الذي تريده إذا؟

قال «أريد أن أعرف من هو أبي.»

كان جاداً. رأيت هذا في عينيه. قلت وقد استرجعت عزيمتي:

من حقك أن تعرف أباك.

قال بنفاذ صبر «من هو؟»

قلت:

هنالك امرأة واحدة تعرف من هو أبوك، وهي التي امتلكت قلادة الليرات العثمانية التي تخص أمك، إنها رابعة زوجة خالك جبران.

أتراني كنت حالما؟ أم أن عزمي زارني في خيمتي؟

***

البريد الإلكتروني للمؤلف

jamalnaji@gmail.com

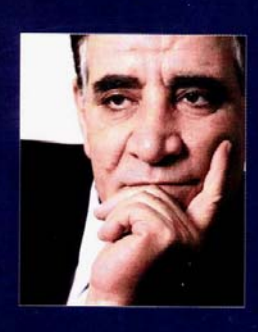
صدر للمؤلف

- الطريق الى بلحارث/ رواية/ 1982/ منشورات رابطة الكتاب الأردنيين.
- وقت/ رواية / 1985/ دار ابن رشد – عمان.
- مخلفات الزوابع الاخيرة/ رواية/ 1988/ المؤسسة العربية للدراسات والنشر – بيروت.
- رجل خالي الذهن/ قصص/ 1989/ دار الكرمل للنشر والتوزيع – عمان.
- الحياة على ذمة الموت/ رواية 1993/ المؤسسة العربية للدراسات والنشر – بيروت.
- رجل بلا تفاصيل/ قصص 1994/ مؤسسة عبد الحميد شومان بالتعاون مع رابطة الكتاب الأردنيين.
- ليلة الريش/ رواية 2004/ المؤسسة العربية للدراسات والنشر – بيروت.
- ما جرى يوم الخميس/ قصص قصيرة 2006 / وزارة الثقافة – الأردن.

رواية

عندما تشيخ الذئاب

القائمة القصيرة لجائزة بوكر العربية عام 2010



طبع بدعم من وزارة الثقافة
2010

لوحة الغلاف : عصام طنطاوي / الأردن

الغلاف: سميح ® ، هاتف 95297109 7 00962



منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef
هاتف: 1676179 2 (213+)
149 شارع حسيبة بن بوعلي
الجزائر العاصمة – الجزائر
editions.elikhtilef@gmail.com



الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com